نوبل للآداب

2015

سفيتلانا أليكسييفيتش

آخر الشهود



ترجمة: د.عبدالله حبه





آخر الشهود

Последние свидетели

تأليف: سفيتلانا أليكسييفيتش

Светлана Алексиевич

ترجمها عن الروسية: د.عبد الله حبه

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

978- 9933- 540- 33- 7 :ISBN



سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com/AdwanPH fb.com/Adwan.Publishing.House

سفيتلانا أليكسييفيتش

آخر الشهود

لحن منفرد
لصوت
طفل

ترجمها عن الروسية:
د.عبد الله حبه


تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

بدلاً من المقدِّمة

استشهاد واحد...

في فترة الحرب الوطنية العظمى (1941-1945) قُتل ملايين الأطفال السوفيت: روس وبيلاروس وأوكرانيون ويهود وتتار ولاتفيون وغجر وكازاخ وأوزبيك وأرمن وطاجيك...

(مجلَّة «دروجبا نارودوف»، 1985، العدد 5)

سؤال واحد لكاتب كلاسيكي روسي...

في وقتٍ ما طرح دوستويفسكي السؤال التالي: هل يوجد تبرير للسلام ولسعادتنا وحتى للانسجام الأبدي، إذا ما ذُرفت دمعةٌ صغيرةٌ واحدة لطفلٍ بريءٍ من أجل ذلك، ومن أجل إقامة الأساس المتين؟ وأجاب بنفسه قائلاً: إن هذه الدمعة لا تبرِّر أيَّ تقدُّم، وأيَّ ثورة، وأيَّ حرب. فهي أكثر قيمة دائماً.

إنها دمعةٌ صغيرةٌ واحدة.


تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

كان يخاف الالتفات إلى الوراء...

جينيا بلكيفتش – 6 أعوام.

الآن – عاملة.

حزيران/ يونيو عام 1941...

لقد تذكَّرت. كنتُ صغيرةً جدّاً، لكنني أتذكَّر كلَّ شيء...

إن آخر ما تذكَّرته من الحياة السلمية حكايةٌ كانت أمِّي تقرؤها ليلاً، حكايتي المفضلة – حول السمكة الذهبية. كنت دائماً أطلب شيئاً ما أيضاً من السمكة الذهبية وأقول: «أيَّتها السمكة الذهبية... عزيزتي السمكة الذهبية...». كما كانت شقيقتي تطلب راجيةً شيئاً ما. لكنها كانت تطلب بشكل آخر: «بإرادة سمكة الكراكي، وبإرادتي...». كنا نريد أن نسافر إلى جدَّتنا في الصيف، وأن يسافر بابا معنا. فهو مرحٌ جدّاً.

في الصباح استيقظت مرتعبة، بسبب أصواتٍ غريبةٍ ما...

كان ماما وبابا يعتقدان بأننا نستغرق في النوم، بينما كنت أرقد إلى جانب شقيقتي وأتظاهر بالنوم. ورأيت: قبَّل أبي أمِّي قبلةً طويلة، قبَّل وجهها ويدها، فعجبت: إنه لم يقبِّلها قبل ذلك هكذا أبداً. وخرجا إلى الباحة، متماسكي الأيدي، وقفزتُ إلى النافذة، تعلَّقتْ ماما برقبة بابا ولم تسمح له بالذهاب. فأبعدها عنه وانصرف، فلحقت به ومنعته من الذهاب مجدَّداً، وراحت تصرخ بكلامٍ ما. وآنذاك صحتُ أيضاً: «بابا! بابا!».

استيقظت أختي وأخي فاسيا، ورأت أختي كيف كنت أبكي، فصاحت

بدورها: «بابا!». وهُرعنا جميعاً إلى الشرفة: «بابا!». ورآنا أبي، وكما أذكر الآن، غطّى رأسه براحتي يديه ومشى، بل حتى أخذ يهرول. كان يخاف أن يلتفت.

أنارت الشمس وجهي. شعرت بالدفء الشديد... حتى الآن لا أصدق بأن أبي ذهب في ذلك الصباح إلى الحرب. كنت صغيرةً جدًّاً، لكنني أعتقد بأنني كنت أدرك أنني أراه لآخر مرَّة، ولن ألقاه أبداً. كنت صغيرة... صغيرة جدّاً.

وهكذا ترسَّخ في ذاكرتي أن الحرب تعني غياب أبي.

ومن ثمَّ أذكر السماء السوداء والطائرة السوداء. وأمِّي مستلقية على جانب الدرب وقد بسطت ذراعيها. لقد رجوناها أن تنهض لكنها لم تفعل. ولفَّ الجنود ماما في المعطف الواقي للجنود ودفنوها في الرمال في المكان نفسه. نحن صرخنا وتوسَّلنا: «لا تدفنوا ماما في الحفرة. إنها ستستيقظ، وسنواصل السير». كانت تمشي خنافس كبيرة ما فوق الرمال... ولم أستطع أن أتصوَّر كيف ستعيش ماما معها تحت التربة. وكيف سنجدها فيما بعد، وكيف سنلتقي؟ ومن سيكتب الرسائل إلى أبينا؟

سألني أحد الجنود: «يا بنية، ما اسمك؟». لكنني نسيت اسمي. «يا بنية، ما هو لقبك؟ ما هو اسم أمك؟». لم أتذكَّر... جلسنا إلى جانب قبر ماما حتى حلول الظلام حتى أخذونا وأجلسونا في عربة. كانت العربة مليئة بالأطفال. كان يقودها شيخ ما يجمع الأطفال في الطريق كافَّة. ووصلنا إلى قرية ما، وجرى توزيعنا على بيوت يقطن فيها أناس غرباء.

بقيت فترة طويلة لا أتحدث مع أحد. بل كنت أنظر فقط.

وفيما بعد أتذكر الصيف. صيف متألِّق. امرأة غريبة تطبطب على رأسي بلطف. وطفقت أبكي... الحديث عن ماما وبابا. كيف هرب بابا منا دون

أن يلتفت... كيف رقدت ماما على الأرض بلا حراك.. وكيف زحفت الخنافس على الرمل...

كانت المرأة تطبطب على رأسي بلطف. في تلك اللحظات أدركت: إنها تشبه أمي...

سيجارتي الأولى والأخيرة...

جينيا يوشكيفتش – 12 عاماً

الآن – صحفي.

في صباح اليوم الأول للحرب...

الشمس. هدوء غير طبيعي. صمت غير مفهوم.

خرجت إلى الباحة جارتنا زوجة عسكري وهي تذرف الدموع. وهمست بشيء ما لأمِّي، لكنها أشارت بإيماءةٍ منها إلى وجوب السكوت. كان الجميع يخشون أن يقولوا بِصوتٍ عالٍ ما تم إبلاغه فعلاً. لقد كانوا يخافون، لكي لا يوصَفوا بالعملاء السريين، وبكونهم من مثيري الفزع. وهذا أكثر فظاعة من الحرب. لقد كانوا خائفين... أنا الآن أعتقد ذلك... وطبعاً لم يصدق أحد شيئاً ممَّا يُقال. كيف؟! جيشنا على الحدود، وزعماؤنا في الكرملين! البلاد محمية، إنها محصَّنة ومنيعة على الأعداء! هذا ما كنت أفكِّر فيه آنذاك... لقد كنت من أفراد الطلائع.

أدرنا زر المذياع. انتظرنا خطاب ستالين. ثمَّ خطب مولوتوف. أصغى الجميع إليه. قال مولوتوف: «الحرب». مع ذلك لم يصدِّق هذا أيُّ أحد. أين ستالين؟

هاجمت المدينة الطائرات... عشرات الطائرات عليها علامة الصليب. لقد غطَّت السماء، وغطَّت الشمس. شيء رهيب! تردَّدتْ أصوات انفجار القنابل... كانت أصوات الانفجارات تسمع بلا توقُّف. قرقعة. كان كل

شيء يبدو كما لو أنه في الحلم، وليس في اليقظة. لم أكن يومئذ صغيراً، وبقيت في ذاكرتي جميع مشاعري. فزعي الذي سرى في جسدي كله، في جميع الكلمات والأفكار. فاندفعنا خارجين من البيت، وهرولنا في الشوارع على غير هدى... وبدا لي أن المدينة لم تعد موجودة، بل هناك الخرائب فقط. دخان... نيران. قال أحدهم: يجب الذهاب إلى المقبرة لأنهم لن يقصفوا المقبرة. فما الفائدة من قصف الأموات بالقنابل؟ كانت توجد في منطقتنا مقبرة كبيرة لليهود تنمو فيها أشجار عتيقة. واندفع الجميع مهرولين إلى هناك، وقد تحشد هناك الآف الناس. كانوا يحتضنون الأحجار، ويحتمون بالألواح الحجرية.

جلست مع أمّي هناك حتى هبوط الليل، ولم ينبس أي أحدٍ حولنا بلفظة "الحرب"، لكنني سمعت عبارة أخرى: «العمالة السرية». كان الجميع يردّدونها. وكان الحديث يدور حول أن قوّاتنا ستهاجم بعد قليل، وأعطى ستالين الأمر. ونحن صدّقنا ذلك.

كانت صفّارات المصانع تهدر طوال الليل في أطراف مينسك...

القتلى الأوائل...

أول قتيل رأيته هو حصان صريع... وبعده امرأة قتيلة... وقد أثار ذلك دهشتي. فقد كنت أتصوّر أن الرجال فقط يقتلون في الحرب.

استيقظت صباحاً... أريد أن أنهض، ومن ثم أتذكّر الحرب، فأُغلق عيني. لا أريد تصديق ذلك.

توقّف إطلاق النار في الشوارع، ومن ثم ساد السكون. وانصرمت عدّة أيّام غمر فيها الهدوء المدينة. ومن ثمّ بدأت الحركة بغتة... على سبيل المثال يمشي رجل أبيض، كله أبيض من الجزمتين وحتى شعر الرأس، كما لو كان الدقيق يغطّيه. ويحمل على كتفيه كيساً أبيض. وثمة

رجل آخر يهرول، وتتساقط من جيوبه المعلبات. حلوى... علب التبغ... وأحدهم يحمل قبعة فيها سكر، وآخر يحمل قدراً فيه سكَّر. هذا شيء لا يوصف! ويسحب أحدهم لفافةً من القماش، بينما يمضي الآخر ملفوفاً كله بقماش شيت أزرق وأحمر... شيء مضحك، لكن لا أحد يضحك، فقد قُصفت مستودعات المواد الغذائية. ويوجد متجر كبير بالقرب من بيتنا، فهُرع الناس إلى الاستحواذ على ما بقي فيه. وفي مصنع السكَّر غرق عدة أشخاص في أحواض دبس السكر. شيء رهيب! المدينة كلها تقزقز حبوب عباد الشمس. فقد عُثر هناك على مستودع للحبوب. وانطلقت أمام سمعي وبصري امرأة إلى المتجر: لم يكن معها كيس أو حقيبة مشبكة، فنزعت الرداء السروالي، والجوارب الطويلة، وملأتْها بحبوب الحنطة السوداء وانطلقت بها... وجرى هذا كله بصمت؛ لم يقل أي أحد شيئاً.

وعندما أخبروا ماما لم يكن قد تبقى هناك سوى معجون الخردل في القناني الصفراء. وردتني أمي قائلة: «لا تأخذْ أيَّ شيء». وفيما بعد اعترفت بأنها شعرت بالخجل لأنها علَّمتني طوال عمري شيئاً آخر. وحتى عندما عانينا من الجوع وتذكَّرنا تلك الأيَّام، لم نرغب في أخذ أيِّ شيء. هذا كان حال أمي.

في المدينة... كان الجنود الألمان يتجوَّلون بطمأنينة في شوارعنا. وصوَّروا كلَّ شيء بكاميرا سينمائية. كانوا يضحكون. كانت لدينا قبل الحرب لعبة مفضَّلة؛ هي رسم الألمان. كنا نصوِّرهم بأسنان كبيرة... بأنياب. بينما هم يتجوَّلون هنا، شبان ووسيمون... لديهم قنابل يدوية جميلة مدسوسة في فتحات جزمهم المتينة الصنع. إنهم يعزفون على آلة الهارمونيكا بشفاههم، وحتى يتمازحون مع فتياتنا الجميلات.

عجوز ألماني يسحب صندوقاً ما وراءه، فاستدعاني وأشار إليَّ لكي أساعده. وكان في الصندوق مقبضان فحملنا الصندوق بهما. وعندما

وصلنا إلى المكان الذي يقصده أخرج من جيبه علبة سجائر، وقدَّمها لي كأجرة عمل.

رجعت إلى البيت وقد نفد صبري، جلست في المطبخ وبدأت بالتدخين. ولم أسمع صوت فتح الباب، فدخلت أمِّي: «هل تدخِّن؟».

* «ممم... ممم...».

- «من أين هذه السجائر؟».

* «إنها ألمانية».

- «تدخِّن، زدْ على أنها ألمانية. هذه خيانة للوطن».

لقد كانت تلك أوَّل وآخر سيجارةٍ لي.

وحدث مرَّةً أن جلست أمِّي إلى جانبي وقالت: «أنا لا أطيق وجودهم هنا، منذ الأيَّام الأولى. هل تفهمني؟».

كانت تريد أن تناضل، منذ الأيَّام الأولى. وقرَّرنا البحث عن رجال المقاومة السرية، ولم يساورنا الشكُّ في وجودهم. لم نشك في ذلك لحظة واحدة.

قالت ماما: «أنا أحبك أكثر من أي شيء في الدنيا. هل تفهمني؟ هل ستغفر لي إن حدث شيء ما لنا؟».

لقد أحببت أمِّي، وصرت أطيعها بلا تردُّد. وفيما بعد بقيت محتفظاً بهذا طوال حياتي.

ردَّدتْ جدَّتي الصلوات...
راجية أن تعود روحي

ناتاشا غوليك – 5 أعوام.

الآن – مدققة في مطبعة.

لقد تعلَّمت تلاوة الصلوات... وغالباً ما أتذكَّر كيف تعلَّمت الصلاة في زمن الحرب... قالوا لي: الحرب، لكنني – وهذا شيء مفهوم – لم أدرك أية صور في سن خمسة أعوام. لم تكن هناك أية مخاوف. وكنت أغفو بسبب الخوف، الخوف بالذات. وبقيت نائمة طوال يومين؛ بقيت مستلقية طوال يومين كالدمية، واعتقد الجميع بأنني فارقت الحياة. كانت أمِّي تبكي، أما جدَّتي فكانت تصلي. ودعوتها قائلة: «جدَّتي... جدَّتي». لكنها لم تلتفت إليَّ، لم تصدق بأنني أدعوها. بينما أنا استيقظت... وفتحت عينيَّ...

ثمَّ سألتها: «جدَّتي، كيف صلَّيت حين كنت أنازع الموت؟».

* «لقد رجوتُ أن تعود روحك إليَّ».

وبعد مرور عام تُوفِّيتْ جدَّتي، وكنت قد تعلَّمت أداء الصلاة. كنت أصلِّي راجيةً أن تعود روحها...

لكنها لم تعد.

كانوا راقدين على الجمرات الوردية...

كاتيا كوروتايفا – 13 عاماً.

الآن – مهندسة منشآت مائية.

سأتحدث عن الروائح... وما هي رائحة الحرب.

أنهيت قبل الحرب ستة أعوام في المدرسة، وكان النظام السائد آنذاك هو أن يؤدي جميع التلامذة الامتحانات اعتباراً من العام الرابع، ويومئذ أدّينا آخر امتحان. كان ذلك في شهر حزيران/ يونيو. وفي عام 1941 ساد البرد في شهري أيّار/ مايو وحزيران/ يونيو. ولئن كانت أزهار الليلك تتفتح عندنا في أيار/ مايو فإنها تفتّحت في ذلك العام في أواسط حزيران/ يونيو، ولهذا ارتبطت بداية الحرب لدي دائماً بعبير أزهار الليلك، وبعبير أزهار بطمة الشمال. إن رائحة هذه الأشجار تذكّرني بالحرب دائماً...

كنا نعيش في مينسك، وولدت في مينسك. أبي قائد جوقة عسكري. وكنت أذهب معه إلى العروض العسكرية. ضمّت أسرتنا أيضاً أخويَّ الأكبر سنّاً مني. طبعاً كان الجميع يحبّونني ويدلّلوني باعتباري الأصغر سنّاً، علاوةً على كوني شقيقتهما.

أمامنا الصيف، وأمامنا العطلة المدرسية. كان هذا مبعث بهجتنا البالغة. كنت أمارس الرياضة وأرتاد نادي الجيش الأحمر حيث أمارس السباحة، حسدني أقراني، وحتى الصبية في صفّي حسدوني. وكنت أتفاخر بأنني أُجيد السباحة. وفي الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو، في يوم الأحد،

كان المقرَّر افتتاح بحيرة الكومسومول. وقد حُفرتْ وشُيِّدتْ منشآتها خلال فترةٍ طويلة، وحتى أن تلامذة مدرستنا ذهبوا إلى العمل الطوعي هناك في يوم السبت، وكنت أعتزم أن أكون أوَّل من يسبح فيها. ولكن..!

جرت العادة أن نذهب في الصباح لشراء الخبز الطازج، وكان هذا من ضمن واجباتي. وفي الطريق التقيت صديقتي التي قالت إنَّ الحرب بدأت، علماً أن شارعنا فيه حدائق كثيرة، وبيوتنا تغوص وسط أصص الأزهار. وفكَّرتُ: «أي حرب؟ ما لها تختلق الأقوال؟».

في البيت أعدَّ أبي السماور[1]... وقبل أن أقول أيَّ شيء هُرع إلينا الجيران، وعلى شفاههم جميعاً كلمةٌ واحدة: «الحرب! الحرب!». وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي استلم أخي الأكبر تبليغاً من مكتب التجنيد. وعند الظهر توجَّه إلى مكان عمله حيث استلم نقوده وأنهى عمله معهم. جاء إلى البيت حاملاً هذه النقود وقال لماما: «أريد الذهاب إلى الجبهة، وأنا لست في حاجةٍ إلى أيِّ شيء. خذي هذه النقود، اشتري فستاناً جديداً لكاتيا». علماً أنني حالما انتقلت إلى الصف السابع أصبحت في عداد تلامذة الصفوف العليا. وكنت أحلم بأن يكون لديَّ معطف بوستوني أزرق ذو ياقة من فرو استراخان الرمادي، وكان يعرف رغبتي هذه.

ما زلت أتذكَّر أنَّ أخي أعطاني النقود لشراء المعطف قبيل ذهابه إلى الجبهة، علماً أننا كنا نحيا حياة متواضعة، وميزانية العائلة كانت تعاني من كثيرٍ من النواقص. وكان في وسع أمِّي أن تشتري لي هذا المعطف ما دام أخي قد أراد ذلك، بيد أنها لم تُفلحْ في شرائه، فقد بدأ قصف مينسك، وانتقلنا مع ماما للعيش في قبو حجري مع الجيران. كانت لديَّ قطَّةٌ أحبها جداً، كانت متوحِّشة جدّاً، ولم تكن تذهب أبعد من الباحة، لكن لدى بدء

---

1 – وعاء يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي.

القصف كنت أهرول من الباحة إلى الجيران والقطة ورائي. علماً أنني كنت أطردها قائلة: «اذهبي إلى البيت!». لكنها كانت تتبعني. لقد خافت أيضاً أن تبقى لوحدها. القنابل الألمانية تتساقط بصوت يشبه العويل، وأنا صبية ذات موهبةٍ موسيقية، وقد أثَّر هذا فيَّ كثيراً. هذه الأصوات... كان هذا فظيعاً للغاية، وسرت الرطوبة في راحتي يدي. جلس معنا في القبو صبي في الرابعة من العمر، لكنه لم يكن يبكي. بل فقط يحدق بعينيه.

في البداية التهمت النيران بعض المباني، وفيما بعد احترقت المدينة كلها. إننا نهوى التطلُّع إلى النار، وإلى الشعلة في الموقد، لكن الأمر فظيع حين يحترق المبنى، وألسنة اللهب تنتشر في الأنحاء كافَّة، ويغطِّي الدخان السماء والشوارع. في بعض الأماكن تكون الإنارة ساطعة بسبب النيران... وأذكر ثلاث نوافذ مفتوحة في بيتٍ خشبيٍّ على رفوفها زهور صبَّارٍ رائعة. لم يكن هناك أناس في هذا البيت، بل هناك نبات الصبَّار المزهر وحده... وغمرني شعور بأنها ليست زهوراً حمراء بل ألسنة لهب. الزهور تحترق... هربنا...

في الطريق كان يجري إطعامنا الخبز والحليب، إذ لم يكن هناك أيُّ طعامٍ آخر غير هذا لدى الناس. ونحن بلا نقود. وقد غادرت البيت بمنديل رأس، بينما كانت أمِّي بمعطف شتوي وحذاء ذي كعبٍ عالٍ. كانوا يطعموننا مجَّاناً، ولم ينبس أحد بكلمة بشأن النقود، فقد زحفت جموع اللاجئين.

وفيما بعد صرخ أحدهم بأن راكبي الدراجات النارية الألمان قد سدُّوا الطريق أمامنا، فأسرعنا عائدين بمحاذاة القرى ذاتها، والنساء حاملات أوعية الحليب ذاتها. وهرولنا إلى شارعنا... كانت هناك قبل أيَّام أشجار وأعشاب خضراء، وزهور؛ أمَّا الآن فقد احترقت كلُّها، ولم يتبقَّ شيء حتى من أشجار الزيزفون المعمرة مئات السنين. واحترق كل شيء وبلغ

حتى الرمل الأصفر. إذ اختفت في مكان ما التربة السوداء التي نمت فيها النباتات كافَّة، وبقي الرمل الأصفر الشديد الصفرة فقط، وبدا كما لو أننا أمام قبر حُفر لتوِّه...

بقيت مداخن المصانع، وكانت بيضاء، وقد تصلَّبت بفعل النيران الشديدة. ولا يوجد أي شيء آخر مألوف لدينا... لقد احترق الشارع بأسره. احترق الشيوخ وكثيرٌ من الأطفال الصغار، لأنهم لم يهربوا سويةً معنا، وظنوا أن الألمان لن يمسُّوهم بأذى. لكنَّ النيران لم ترحم أحداً. إذا ما شاهد المرء في الطريق جثَّةً محترقة، فمعنى ذلك أن رجلاً عجوزاً قد احترق. وإذا رأى بعيداً شيئا صغيراً وردياً؛ فمعنى ذلك أنه طفل. إنهم يرقدون فوق الجمرات بلون وردي...

نزعت ماما المنديل وربطته على عيني... وهكذا حتى بلغنا بيتنا، أي المكان الذي كان فيه بيتنا منذ عدَّة أيّام. لم نجد البيت، واستقبلتنا القطَّة التي نجت من الموت بأعجوبة، فالتصقت بي، هذا كل ما هناك. لم يستطع أحدٌ قول شيء... حتى القطة لم تكن تموء. كانت صامتة خلال عدَّة أيام، وأُصيب الجميع بالذهول.

رأيت أوائل الفاشيين، أنا لم أرهم بل سمعتهم، كانت أحذيتهم جميعاً بنعل معدني، ويُسمع طرق أقدامهم بصوت عال، كانوا يدقُّون أرض شارعنا، وبدا لي أن الأرض تشعر بالألم حين يمشون فوقها.

ما أروع أزهار الليلك في ذلك العام! وكيف أزهرت بطمة الشمال...

مع هذا أريد ماما...

زينا كوسياك – 8 أعوام

الآن – حلاقة.

الصفُّ الأوَّل...

أنهيتُ الصفَّ الأوَّل في أيَّار/ مايو عام 1941، وأخذني والداي إلى مخيَّم الطلائع غورروديشه بضواحي مينسك. جئت إلى هناك وسبحت مرَّةً واحدةً، وبعد يومين بدأت الحرب. فنُقلنا إلى القطار وانطلق بنا. ظهرتْ في الجوِّ الطائرات الألمانية، فصرخنا مرحِّبين بها: «هوراه!». ولم ندرك احتمال أن تكون الطائرات غريبة، علماً أنها لم تقصف وقتها... وآنذاك اختفت الألوان كافَّة... جميع الألوان. وظهرت أوَّل مرَّة كلمة "الحرب"، وصار الجميع يردِّدون هذه الكلمة غير المفهومة. بينما لم يكن الآباء والأمَّهات بالقرب منا.

عندما غادرنا المخيَّم استخدموا أغطية الوسائد، البعض وضع الحبوب، والبعض السكَّر. وحتى الصغار لم يستثنوا من ذلك، وأعطوا الجميع شيئاً ما. لقد أرادوا حمل أكبر قدرٍ من المواد الغذائية في الطريق، وتمّ حفظ هذه المواد الغذائية الضرورية. لكننا رأينا في القطار الجنود الجرحى. كان عددهم يُقدَّر بالمئات، ويعانون من الآلام الشديدة، وأردنا أن نعطي كلَّ ما لدينا للجنود. ونحن سمَّينا ذلك: «إطعام الآباء». ونحن سمَّينا جميع العسكريين من الرجال باسم بابا.

حدَّثونا عن أن مينسك كلَّها احترقت، وهناك الألمان، ونحن نتوجَّه إلى ما وراء خطوط الجبهة... نتوجَّه إلى حيث لا توجد حرب.

واصلنا الرحلة أكثر من شهر. أرسلونا إلى مدينة ما، ولكننا حين وصلناها لم يستطيعوا إبقاءنا هناك لأنَّ الألمان قريبون من المكان. ووصلنا إلى موردوفيا.

كانت المنطقة جميلة جدّاً، في كلِّ مكانٍ توجد كنائس. البيوت واطئة والكنائس عالية. لم توجد أسرَّةٌ ننام عليها، كنا ننام على التبن. وحلَّ الشتاء ولم يكن لدينا إلا زوج من الأحذية لكل أربعة أطفال. وبعد ذلك بدأ الجوع، وعانى من الجوع، ليس ملجأ الأطفال فقط، بل جاع الناس حولنا أيضاً، لأنهم أرسلوا كلَّ شيء للجبهة. كان يعيش في الملجأ مئتان وخمسون طفلاً، وحدث مرَّة أن دعونا إلى الغداء، بينما لم يوجد ما يؤكل. جلست هناك المربِّيات والمدير وعيونهم تتطلَّع إلينا. كانت الدموع تترقرق من عيونهم. كان لدينا حصان اسمه مايكا... كان حصاناً مُسنّاً، ولطيف الحاشية جدّاً، وكنا ننقل بواسطته الماء. في اليوم التالي ذبحوا هذا الحصان، مايكا. لكنهم أخفوا ذلك عنا. فلو عرفنا ما كنا لنأكل لحمه... أبداً ولأي سبب! كان الحصان الوحيد في الملجأ. كما وُجد قطَّان جائعان أيضاً، مثل هياكل عظمية! وفكَّرنا لاحقاً: لحسن الحظ أنهما هزيلان إلى هذه الدرجة، حيث لا نستطيع أكلهما. لا يوجد هناك ما يؤكل.

كنا ببطون منتفخة، فأنا مثلاً أستطيع تناول دلو من الحساء، لأنه لا يوجد شيء في هذا الحساء. وكنت آكل وآكل كل ما يضعونه لي في الطبق. أنقذتْنا الطبيعة، كنا مثل الحيوانات المجترَّة. وفي الربيع لم تورق الأشجار حول ملجأ الأطفال على مسافة عدَّة كيلومترات... فقد أكلنا جميع البراعم، وانتزعنا حتى الجذور النضرة. أكلنا العشب، وأكلنا كلَّ ما يقع تحت أيدينا. وأعطونا سترات عسكرية، فصنعنا في هذه السترات جيوباً

وضعنا فيها العشب، وكنا نمشي ونمضغه. أنقذنا هذا الأمر في الصيف، أما في الشتاء فكان الوضع صعباً جدّاً. أُسكن الأطفال الصغار، وعددنا نحو أربعين، في جناح منفصل. وتردَّد العويل في الليل. كانوا ينادون الأمَّهات والآباء. وسعى المربُّون والمعلمون إلى عدم تلفُّظ كلمة "ماما" أمامنا. وكانوا يروون لنا الحكايات ويختارون الكتب التي تخلو من هذه الكلمة. وإذا ما نطق أحدهم بكلمة "ماما" يبدأ العويل فوراً... عويل شديد.

ذهبت للدراسة في الصف الأول مجدَّداً. كنت قد أنهيت الصفَّ الأوَّل بدرجة امتياز، لكن في ملجأ الأطفال سألوا من يجب عليه إعادة امتحانه، أجبت بنعم. ظنّاً مني أن إعادة الامتحان تعني درجة الامتياز. في الصف الثالث هربت من ملجأ الأطفال، وذهبت للبحث عن ماما. ووجدني الجدُّ بولشاكوف في الغابة جائعةً وبلا حولٍ ولا قوَّة. وعندما عرف أنني من ملجأ الأطفال أخذني إلى أسرته. كان يعيش مع الجدَّة لوحدهما. وعندما استعدت عافيتي أخذت أساعدهما في الأمور المنزلية: جمع الأعشاب واستئصال الأعشاب الضارة من بين البطاطا. مارست الأعمال كافَّة. هناك أكلنا الخبز، لكنه خبز يحتوي على القليل من الخبز! إنه مرٌّ، شديد المرارة؛ إذ كان يُخلط بالدقيق كلُّ ما يُمكن طحنه: السرمق وزهور الجوز والبطاطا. وأنا لا أستطيع حتى الآن النظر بهدوء إلى العشب الدسم وآكل الكثير من الخبز. لا أستطيع أن أشبع به أبداً... خلال عشرة أعوام...

ثمة أشياء كثيرة أتذكَّرها. أنا ما زلت أذكر الكثير..

أذكر الصبيَّة الصغيرة المجنونة التي جاءت إلى حديقة أحدهم ووجدت جحراً وصارت تحرس فأراً هناك. لقد أرادت الصبيَّة أن تأكل. أنا أذكر وجهها، وحتى فستانها الريفيَّ الطراز الذي كانت ترتديه. وحدث مرَّةً أن اقتربتُ منها، وراحت تروي شيئاً ما حول الفأر... وجلسنا سوية وطفقنا نحرس هذا الفأر معاً...

انتظرت طوال فترة الحرب انتهاء هذه الحرب، وعندها سنجهز العربة ونذهب للبحث عن ماما. وكان يأتي إلى البيت نازحون، وصرت أسألهم جميعاً عما لو التقوا أمي. وكان عدد النازحين كثيراً جدًّا، ولذا وُجد في كل بيت قدر من الحديد الزهر فيه عصيدة دافئة من نبات القراص. فإذا ما ولج أحدهم البيت يمكنه تناول طعامٍ دافئٍ ما. لم يوجد شيء آخر يمكن تقديمه. لكن القدر من الحديد الزهر موجودٌ في كل بيت... أنا أذكر هذا جيِّداً. كنت أجمع بنفسي نبات القرَّاص.

انتهت الحرب... انتظرت يوماً ويومين أن يأتي أحد ما لأخذي. لم تجئ ماما، أما بابا فكان في الجيش كما علمت. وهكذا انتظرت أسبوعين، ولم أُطق الصبر أكثر من هذا. فتسلَّلت إلى أحد القطارات واختفيت تحت المصطبة وسافرت... إلى أين؟ لم أعرف. لقد اعتقدت أن جميع القطارات (هذا ما يعتقده الطفل) تذهب إلى مينسك. وفي مينسك تنتظرني ماما! وبعد ذلك سيأتي بابا... بطل! بابا يحمل الأوسمة والميداليات!

لقد فُقدا في مكانٍ ما تحت وابل القنابل. روى لي الجيران فيما بعد. لقد ذهبا سوية للبحث عني. وانطلقا إلى المحطَّة.

أنا الآن في الحادية والخمسين من العمر، ولديَّ أبناء. ومع هذا أريد ماما.

ما أجمل الدمى الألمانية...

تايسا ناسفيتنيكوفا – 7 أعوام

الآن – معلمة.

قبيل الحرب...

أذكر كيف كنت وقتذاك... كلُّ شيء كان على ما يُرام: روضة الأطفال، التلامذة، باحة بيتنا. الصبايا والصبية. كنت أُطالع كثيراً وأخاف الديدان وأحبُّ الكلاب. كنا نعيش في مدينة فيتبسك، وعمل أبي في إدارة للإنشاءات. ولعلَّ أكثر ما أتذكَّره من أيَّام الطفولة هو كيف علَّمني أبي السباحة في نهر دفينا.

وبعد ذلك تعلَّمت في المدرسة. وبقي لديَّ من المدرسة الانطباع التالي: سلالمُ واسعةٌ جدَّاً، وجدارٌ زجاجيٌّ شفَّاف، ويغمر نور الشمس المكان وكثيرٌ من البهجة. وثمَّة إحساسٌ بأن الحياة هي عيدٌ ومسرَّة.

في الأيَّام الأولى للحرب التحق بابا بالجبهة. وأذكر الوداع في محطَّة القطار... كان بابا يردِّد لأمِّي باستمرارٍ أنهم سيطردون الألمان، لكنه يريد أن نغادر إلى مكانٍ آخر. لكن ماما لا تفهمه: «لماذا؟ إذا بقينا في البيت فستجدنا بسرعة. فوراً». بينما كنت أكرِّر باستمرار: «بابوتشكا، عزيزي! عدْ بسرعةٍ فقط. بابوتشكا، عزيزي...».

رحل بابا، وبعد عدَّة أيَّام سافرنا نحن أيضاً. وفي الطريق كان يجري قصفنا باستمرار، وكان قصفنا بالقنابل يسيراً، لأن القطارات كانت تسير

بمسافة فاصلة تبلغ خمسمئة متر... وسافرنا بمتاعٍ قليل، كانت أمِّي ترتدي فستاناً قطنياً به بقع بيضاء، أما أنا فكنت برداءٍ قطنيٍّ ريفيٍّ أحمرَ مزخرفٍ بزهور. وكان الكبار يقولون إن لونه الأحمر ساطعٌ جدَّاً، يُرى بوضوحٍ من الجو، لهذا فحالما يبدأ القصف كانوا يغطُّونني بكلِّ ما يُمكن إيجاده تحت أيديهم، لكي لا يُرى هذا الرداء الأحمر، فهو أشبه بالمصباح.

كنا نشرب الماء من المستنقعات والسواقي، وبدأت الإصابات بالأمراض المعوية، وأنا مرضت أيضاً وغبت عن الوعي ثلاثة أيَّام... وفيما بعد روتْ ماما كيف جرى إنقاذي. فحينما توقَّفنا في برانسك توقَّف في طريق السكك المجاور قطارٌ حربي. كانت أمِّي في السادسة والعشرين من العمر، واتَّسمت بجمالٍ باهر. توقَّف قطارنا فترة طويلة؛ فخرجتْ من العربة، ووجَّه إليها أحد الضبَّاط من ذلك القطار الحربيِّ كلمات إطراء. فرجتْه ماما قائلة: «ابتعدْ، فأنا لا أستطيع رؤية ابتسامتك. إن ابنتي على وشك الموت». وقد تبيَّن أن الضابط مساعد طبيب. فخرج من العربة وفحصني واستدعى رفيقه: «اجلب بسرعة الشاي والكعك والبيلادونا». وقد أنقذ حياتي كعك الجنود هذا، وقنينة الشاي ذات الليتر الواحد، وعدَّة أقراص من عقار البيلادونا.

وفيما كنا نسافر إلى اكتيوبنسك أُصيب بالمرض جميع راكبي القطار. ولم يُسمح لنا، نحن الأطفال، بالذهاب إلى حيث يوجد الموتى والقتلى بغية حمايتنا من رؤية هذا المشهد. وكنا نسمع فقط الأحاديث: دفنوا هناك عدداً من الموتى، وهناك كذا... وكانت ماما تأتي بسحنةٍ شاحبةٍ جدَّاً، ويداها ترتجفان. بينما كنت لا أكفُّ عن السؤال: «أين ذهب هؤلاء الناس؟».

لا أتذكَّر أية مشاهد طبيعية. وهذا أمرٌ غريبٌ جدَّاً، لأنني كنت أحبُّ الطبيعة. وبقيت فقط صور الشجيرات التي كنا نختفي تحتها، الوهاد.

ولسببٍ ما تراءى لي أنه لا توجد غابات في أيِّ مكان، ونحن ننطلق فقط وسط البراري، ووسط صحراء ما. ومرَّةً تملَّكني رعبٌ شديدٌ لم أعد بعده أخاف أيَّ قصفٍ جوِّي، فلم يخبرنا أحد بأن القطار سيقف فترة عشر أو خمس وعشرين دقيقة، لفترة قصيرة، فتحرَّك القطار وبقيت وحيدة... ولا أذكر من اختطفني، وألقاني في العربة بكلٍّ معنى الكلمة... لكن ليس في عربتنا بل في عربةٍ أخرى ما. لحظتئذ شعرت بالفزع لأوَّل مرَّةٍ من بقائي لوحدي، بينما ستسافر أمِّي. حينما كانت ماما إلى جانبي لم أشعر بالخوف. أمَّا عندئذ فقد تملَّكني الرعب، وبقيت كالبكماء ولم يستطع أحد أن يدفعني إلى الكلام حتى مجيء أمِّي التي احتضنتني بذراعيها. ماما هي العالم كلُّه بالنسبة إليَّ... كوكبي. وحتى إذا ما آلمني شيء ما فسيزول الألم حالما تمسك بي يد أمِّي. وفي الليل كنت دائماً أرقد إلى جانبها، وكلما اقتربت منها أكثر كان الخوف أقل. وعندما تكون ماما إلى جانبي يبدو كلُّ شيء كما كان في بيتنا سابقاً. فأغلق عيني – وتختفي الحرب. ولكن ماما لم تحب عندما يدور الحديث عن الموت، بينما كنت أتساءل عن هذا باستمرار...

توجَّهنا من اكتيوبنسك إلى ماغنيتوغورسك، فهناك يعيش عمِّي. قبل الحرب كانت لديه عائلةٌ كبيرة، وكثيرٌ من الذكور، وحينما وصلنا إلى هناك وجدنا النساء فقط؛ فقد ذهب جميع الرجال إلى الحرب. وفي أواخر عام 1941 ورد تبليغان من الجيش يفيدان بمصرع ولدي عمِّي..

بقيت في ذاكرتي من ذلك الشتاء الإصابة بمرض الحماق – وقد أصيب به جميع تلامذة المدرسة – والسروال الأحمر... فقد حصلت ماما بواسطة بطاقات الإغاثة على قطعة قماش قطني أحمر وصنعت منها السروال. وكان الأطفال يسخرون مني بقولهم "راهب بسروال أحمر" فأشعر باستياءٍ بالغ. وبعد ذلك بفترة وجيزة، حصلنا بواسطة بطاقات

الإغاثة على على جرموقين[1] بمقاسٍ كبيرٍ، وكنت أربطهما في قدميَّ وأمشي بهما. وقد أصابهما البلى في المقدَّمة، فأُصبت بجروحٍ في باطن قدمي، ولذا وجب عليَّ دوماً وضع شيء ما تحت عقب القدم لكي يصبح أعلى ولا أُصاب بهذه الجروح. بيد أن الشتاء كان قارساً، وكانت يداي وقدماي تتجمَّد دوماً. كنا في صالة الدرس نجلس بالمعاطف والقفازات، وقصصنا موضع الأصابع فقط بغية أن نستطيع الإمساك بالقلم. وأذكر أنه لم يُسمح لنا بالإساءة إلى من فقدوا آباءهم في الجبهة أو السخرية منهم، وكان من يفعل ذلك يعاقب بشدَّة. كما أننا طالعنا كثيراً من الكتب، أكثر من أي وقت آخر، وأعدنا قراءة مكتبة الأطفال واليافعين. وبعد ذلك أُعطيت لنا كتب الكبار، علماً أن الصبايا الأخريات كنَّ يرتعبن خوفاً... حتى أنهن لا يبدين المودَّة إلى الصبية، ولا يطالعن الصفحات حيث يجري وصف الموت... أمَّا أنا فكنتُ أقرأها.

تساقط كثير من الثلج. وخرج جميع الأطفال إلى الشارع وصنعوا عروس الثلج. وكنت أستغرب: كيف يمكن صنع عروس الثلج والابتهاج إذا ما كنت الحرب مستمرة؟!

كان الكبار يستمعون دوماً إلى المذياع، ولا يمكنهم العيش بدونه. ونحن أيضاً. وكنا نبتهج في كلِّ مرَّةٍ تُطلق فيها الألعاب النارية في موسكو، ونعاني من لواعج النفس لدى سماع أيِّ خبر: كيف الحال هناك في الجبهة؟ في جبهة العمل السري، في فصائل الأنصار؟ وأُنتجت أفلامٌ حول معركة ستالينغراد ومعركة موسكو، وقد شاهدناها خمس عشرة وعشرين مرَّة. وعندما كانت تُعرض ثلاث مرَّات بلا توقُّف، كنا نشاهدها ثلاث مرَّات. كانت الأفلام تُعرض في الممرِّ في المدرسة، حيث لم توجد صالة سينما

1- نوع خاص من الأحذية يلبس فوق الحذاء العادي طلباً للدفء أو للوقاية من البلل. (المترجم).

خاصَّة، وكنا نجلس على الأرض خلال ساعتين أو ثلاث ساعات. وبقي الموت في أعماق ذاكرتي... لقد عنَّفتني ماما لهذا السبب، واستشارت الأطبَّاء حول السبب في سلوكي هذا، ولماذا أهتمُّ بشؤون لا تعني الأطفال مثل الموت؟ كيف يجب تعليمي التفكير مثل بقية الأطفال؟

أعدت قراءة الحكايات، حكايات الأطفال... فماذا لاحظت فيها؟ لاحظت فيها أن أفعال القتل تُرتكب كثيراً فيها، الكثير من الدماء. وكان هذا اكتشافاً بالنسبة إليَّ...

في أواخر عام 1944.. رأيت أوَّل مرَّةٍ الأسرى الألمان... كانوا يمشون في طابور طويل في الشارع. وقد أدهشني كيف كان الناس يقتربون منهم ويعطونهم الخبز. وقد أدهشني ذلك لدرجة أنني هُرعت إلى أمِّي في مكان عملها وسألتها: «لماذا يُعطي أهلنا الخبز للألمان؟». لم تقلْ ماما شيئاً، بل بكت فقط. ويومئذ رأيت أوَّل مرَّةٍ ميتاً يرتدي بزَّةً عسكريةً ألمانية، فقد مشى ومشى ثمَّ سقط. وتوقَّف الطابور لوهلةٍ ثمَّ واصل السير بينما وضع بجانبه أحد جنودنا. فدنوت منه... أردت معرفة الموت عن قرب، وأن أكون إلى جانبه. وكنا نبتهج دوماً حين يعلن في المذياع عن خسائر العدو... وهأنذا هنا، رأيت إنساناً، يبدو وكأنه نائم، وحتى لم يكن مستقلياً بل جالساً، شبه استلقاء، ورأسه تدلَّى قليلاً على كتفه. ولم أعرف: هل أحقد أم أشفق عليه؟ لقد كان من الأعداء. كان عدوَّنا! لا أذكر: هل كان شابَّاً أم مسنَّاً؟ بدا مجهداً جدَّاً. لهذا كان من الصعب أن أحقد عليه. ورويت ذلك لأمِّي أيضاً، فبكت مرَّةً أخرى.

في التاسع من أيَّار/ مايو استيقظنا صباحاً لدى سماع صراخ أحدهم عند المدخل. كان الوقت ما زال مبكِّراً ولم تبزغ الشمس بعد. وذهبت ماما لاستقصاء الأمر، وعادت منفعلة: «النصر! هل صحيح أنه النصر؟». كان الأمر غير مألوفٍ جدَّاً: انتهت الحرب، تلك الحرب المديدة. وصار

البعض ينتحب والبعض يضحك والبعض الآخر يهتف... لقد بكى من فقد ذويه وابتهج لحلول النصر فهو نصرٌ على أيٍّ حال! وجلب إلى إحدى الشقق كلٌّ واحدٍ ما لديه - حفنة حبوب أو بطاطا أو شمندر. أنا لا أنسى أبداً ذلك اليوم. أي صباح كان ذاك! وحتى لدى حلول المساء لم يكن الوضع مثله...

كان الجميع سابقاً يتحدَّثون لسببٍ ما بصوتٍ خفيضٍ لدى الحديث عن الحرب، وحتى بدا لي أنهم يتهامسون، وإذا بهم يتحدَّثون يومئذٍ بصوت عال. نحن كنا دوماً إلى جانب الكبار، وصاروا يقدِّمون لنا المأكولات ويلاطفوننا ويطردوننا: «اذهبوا إلى الشارع فاليوم يوم عيد». ثمَّ نادوا علينا مرَّةً أخرى، ولم يحدث أبداً أن احتضنونا وقبَّلونا هكذا كما في ذلك اليوم.

لكنني سعيدة، فقد عاد بابا من الحرب. وجلب بابا لعباً ألمانيةً جميلة. كانت اللعبة ألمانية، وكنت لا أفهم كيف يمكن أن تكون هذه اللعب الجميلة ألمانية الصنع...

وحاولت أن أتحدَّث عن الموت مع أبي أيضاً؛ عن القصف الجويِّ بالقنابل حين نزحتُ مع ماما... وكيف استلقى على جانب الطريق جنودنا الموتى. كانت أغصان الأشجار تغطِّي وجوههم، بينما تحوم حولهم أسراب الذباب في طنين... وكذلك عن الألماني الميت، وعن والد صديقتي الذي عاد من الحرب ثمَّ مات بعد عدَّة أيَّام. لقد توفي بمرض القلب. ولم أستطع أن أفهم: كيف يمكن أن يموت الإنسان بعد الحرب، حين أصبح الجميع سعداء؟

لزم بابا الصمت.

حفنةٌ واحدةٌ من الملح...
هذا كلُ ما بقي من بيتنا

ميشا مايوروف – 5 أعوام.

الآن – دكتور في العلوم الزراعية

لقد أحببت الأحلام في زمن الحرب. أحببت الأحلام عن الحياة في زمن السلم وعن كيف عشنا قبل الحرب...

أوَّل حلم...

كانت جدَّتي منهمكةً في الأشغال المنزلية... وأنا أنتظر هذه اللحظة. ها هي تحرِّك الطاولة نحو النافذة، وتفرش قطعة القماش وتضع فوقها القطن وتغطِّيه بقطعة قماش أخرى، وتبدأ بخياطة اللحاف. ولديَّ عملٌ أيضاً: تدقُّ جدَّتي المسامير في أحد جوانب اللحاف، وتشدُّ على التوالي فتيلة الخيوط التي تدلِّكها بالطباشير، بينما أنا أشدُّها من الجانب الآخر. وتقول جدَّتي راجية: «شدَّها، ميشينكا، بقوَّةٍ أكثر». فأشدُّ بينما هي ترخي، وبهذا تظهر على قطعة قماش الساتين الحمراء أو الزرقاء خطوط طباشيرية. وتتقاطع الخطوط، فتتولَّد أشكال معينية، تمرِّر فوقها الدرزات السوداء.

أما العملية الثانية فهي عندما تنشر جدَّتي أوراق نماذج تفصيل الملابس، فيظهر رسمٌ على اللحاف المخطط. إنه شيء جميل وشيِّق. إن جدَّتي لأستاذةٌ ماهرة في صنع القمصان، وتبدع على الأخص في صنع

الياقات. أمّا ماكينة الخياطة اليدوية "سنجر" فتهدر حينما أستسلم أنا إلى الكرى. وجدّي ينام أيضاً.

الحلم الثاني...

جدّي يصنع الأحذية. وهنا أيضاً لديَّ ما أعمله؛ إذ أتولّى شحذ المسامير الخشبية. الآن تصنع جميع الكعوب باستخدام المسامير الحديدية، لكنها تصدأ، ولهذا يبلى الكعب بسرعة. ربّما كانت تستخدم آنذاك المسامير الحديدية أيضاً، لكنني أتذكّر الخشبية. وجِب أن تُقطع بالمنشار قطعٌ دائريةٌ من ساق شجرة بتولا عتيقة خالية من العقد، وتُترك لتجفَّ في الهواء الطلق. بعد ذلك تُقصُّ منها قطعٌ مستطيلةٌ بسمك ثلاثة سنتيمترات، وبطول عشرة سنتيمترات، وتُترك لتجفَّ أيضاً. ويُصنع من هذه القطع المستطيلة بيسرٍ ما يشبه المسامير بسمك 2-3 مليمترات. ويُمكن بواسطة سكّين الإسكافي الحاد إزالة القشرة من كلا جانبي القطعة بسهولة، وإدخالها بلا أيِّ جهدٍ في آلة منضدة الإسكافي لشحذها، وتصبح فوراً جاهزة. ويقوم جدّي بصنع ثقوبٍ في نعل الجزمة بواسطة المخرز، ثم يضع المسمار الخشبي في الثقب وبضربة من فأس الإسكافي يُدَقُّ المسمار في الثقب، وتُثبَّت المسامير في صفّين، وهذا ما يجعل النعل جميل المظهر وكذلك متينا جدّاً؛ فإن مسامير خشب البتولا الجافّة تنتفخ بسبب الرطوبة وتجعل النعل أشدَّ متانة، ولن تنفصل حتى يصيبه البلى.

كما كان جدّي يصنع جزم اللبّاد، وبالأحرى يصنع نعلاً ثانياً في جزمة اللباد، وعندئذ لا تبلى بسرعة ويمكن لبسها بلا جرموق. وكان أيضاً يخيط القطع الجلدية في القسم الخلفي من جزمة اللبّاد بغية ألا تبلى بالحكّ من جانب الجرموق. وكان واجبي أن أبرم خيط الكتّان وأغمسه في القطران الساخن ومن ثمَّ أعالجه بالشمع، ثمَّ أدخله في ثقب الإبرة. إن إبرة الدرز لدى الإسكافي تُعتبر من الأشياء الثمينة جدّاً، ولهذا كان جدّي يستخدم

في أحيانٍ كثيرةٍ شعر قذال الخنزير البرِّي، أو الخنزير المنزلي غير أن شعر قذاله يكون أكثر نعومة. وكانت توجد كميةٌ كبيرةٌ من هذا الشعر، ويُمكن استخدامه لدى خياطة النعل أو الرقعة الصغيرة في مكانٍ غير مريحٍ في الحذاء: لأن الشعر مرنٌ ويمكنه المرور في أي مكان.

الحلم الثالث...

قام الأولاد الكبار بعمل مسرح في العنبر الكبير المجاور تُقدَّم فيه تمثيلياتٌ حول رجال حرس الحدود والجواسيس. وسعر تذكرة الدخول عشرة كوبيكات، لا أملك حتى عشرة كوبيكات، لذا فإنهم لا يسمحون لي بالدخول، فأبدأ بالصراخ باكياً: أنا أيضاً أريد «رؤية الحرب». وأتطلَّع سرَّاً من شقٍّ في العنبر إلى عرض "رجال حرس الحدود" هناك يرتدون بزَّاتٍ عسكريةً حقيقية. العرض المسرحيُّ مدهش...

بعد ذلك توقَّفت أحلامي...

سرعان ما شاهدت البزَّات العسكرية للجنود في البيت عندنا... كانت جدَّتي تطعم الجنود المنهكين والمغبرين، وهم يقولون: «الألماني قادم». وأخذت أسأل جدَّتي: «من هم الألمان؟».

نحمل في العربة الحزم والرزم ويجلسونني عليها، ومن ثمَّ نعود... في بيتنا الألمان! إنهم يشبهون جنودنا - لكن ببزَّاتٍ عسكريةٍ أخرى، ومرحون. صرنا أنا وجدَّتي وماما نعيش وراء الموقد، أمَّا جدِّي فيعيش في عنبر القش. لم تعد جدَّتي تصنع اللحف، وجدِّي لا يصنع الجزم. وحدث مرَّةً أن أزحتُ الستار فرأيتُ جندياً ألمانياً جالساً بالقرب من النافذة وفي أذنيه سماعتان، وانهمك في تدوير مقبض جهاز اللاسلكي، وسمعت موسيقى، ثمَّ كلاماً واضحاً باللغة الروسية... كان هناك ألماني آخر في تلك اللحظة يضع الزبدة على شريحةٍ من الخبز، وحينما رآني لوَّح بسكِّينه تحت أنفي، فاختبأت وراء الستار. وبعد ذلك لم أخرج من وراء الموقد.

اقتيد في الشارع رجلٌ ببزَّةٍ عسكريةٍ محترقةٍ حافي القدمين ورُبطت يداه بسلك. وكان جسد الرجل كلُّه يغشاه السواد... فيما بعد رأيتُ الرجل مشنوقاً بالقرب من مبنى مجلس الإدارة الريفية. وقيل لنا إنه أحد طيّارينا. وفي الليل راودني حلمٌ رأيتُه فيه معلَّقاً من مشنقة في باحة بيتنا...

إنني أتذكَّر كلَّ شيء بالأسود والأبيض - الدبّابات سوداء، والدرّاجات النارية سوداء، والجنود الألمان ببزّاتٍ سوداء. أنا لست واثقاً من أنها كانت جميعاً سوداء، لكنها بقيت في ذاكرتي بهذه الصورة. إنه شريطٌ سينمائيٌّ بالأسود والأبيض.

لفُّوني بغطاءٍ ما ونحن نتخفَّى في المستنقع، طوال النهار وطوال الليل. الليل بارد. طيورٌ غريبةٌ تُطلق صراخاً بصوتٍ رهيب، ويبدو القمر شديد التألُّق. رعب! ماذا لو رأتنا أو سمعتنا الكلاب البوليسية الألمانية؟ ويتَّفق أحياناً أن نسمع نباحها الأجش. في الصباح - إلى البيت! أريد أن أعود إلى البيت! الجميع يريدون العودة إلى البيت، حيث الدفء. لكن لم يعد وجودٌ للبيت، فهناك فقط الأطلال التي ينبعث منها الدخان. المكان محترق، بعد حريق كبير... ونجد وسط الرماد حفنةً من الملح الذي كان يوجد دوماً بالقرب من الموقد في بيتنا. جمعنا الملح بعناية، ومن ثمَّ الطين الممزوج بالملح، وسكبناه في إناء من الفخار. هذا كلُّ ما تبقَّى من بيتنا...

وقفتْ جدَّتي صامتة، وفي الليل راحت تبكي بصوتٍ عالٍ وتقول:

«آه، يا بيتي! آه أنت يا بيتي! هنا تجوَّلتُ حين كنت صبيَّة... وإلى هنا جـ...ـا...ء الخطَّاب لطلب يدي... وهنا وَلد..د..د..ت أبنائي...».

وجابت باحتنا السوداء كالشبح.

في الصباح فتحت عيني - نحن ننام على الأرض. في البستان الملحق ببيتنا.

قبّلت جميع الصور في الكتاب المدرسي...

زينا شيمانسكايا – 11 عاماً

الآن – أمينة صندوق.

أنا أراجع ذكريات الماضي بابتسامة... بدهشة. هل جرى هذا كلُّه لي حقّاً؟

ذهبنا إلى السيرك في اليوم الذي اندلعت فيه الحرب. ذهبنا جميعاً في صفّنا، في العرض الصباحي، ولم يدُرْ في خلدنا أيُّ شيء... أيُّ شيء. كان الكبار قد سمعوا بالنبأ، أمّا نحن فلم نعرف. صفّقنا بأيدينا، وضحكنا. كان هناك فيل كبير الحجم، إنها أنثى فيل! ورقصت القردة... وها نحن، ننطلق إلى الشارع بمرح – بينما كان الناس يبكون: «الحرب». جميع الأطفال: «هورا– را!». لقد فرحنا. كنا نتصوّر الحرب كالتالي: الرجال بقبّعات مدبّبةٍ ويركبون الجياد. سنصبح أبطالاً. كنت أحبُّ الكتب التي عن الحرب أكثر من أيِّ شيء آخر. عن المعارك، عن المآثر، وشتّى الأحلام عنها... وكيف أنحني على مقاتل جريح، وكيف أحمله من وسط الدخان، ومن النار. وفي بيتنا لصقت على الجدران كافّةً فوق الطاولة الصور العسكرية المقصوصة من الصحف. فهناك فوروشيلوف[1]، وهنا بوديوني[2]...

وذهبت مع صديقتي إلى الحرب الفنلندية، والصبية من معارفنا ذهبوا

1 – أحد أهم القادة العسكريين السوفييت في الحرب العالمية الثانية. (المترجم).
2 – ضابط روسي، وعضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. (المترجم).

إلى الحرب الإسبانية. واعتقدنا أن الحرب من أكبر الأحداث الشيِّقة في الحياة، ومن أكبر المغامرات. أطفالٌ طيِّبون! كانت صديقتي تضع على رأسها دائماً قبَّعةً عسكريةً قديمةً من طراز "بوديونوفكا"، من أين حصلت عليها؟ لقد نسيت، لكنها كانت قبَّعتها المفضَّلة. وكيف انطلقنا إلى الحرب؟ أنا حتى لا أذكر أيَّ حرب، وأظن أنها الإسبانية. وسأروي الآن كيف حدث ذلك... فقد بقيت عندي للمبيت، وجرى ذلك، طبعاً، عندنا، وفي الفجر تسلَّلنا بهدوءٍ من البيت. مشينا على أطراف أصابع أقدامنا... تس -تس... أخذنا معنا بعض المأكولات. ويبدو أن أخي الأكبر كان يتابع كيف كنا في الأيام الأخيرة نتهامس، وندسُّ بحاجيَّاتٍ ما في أكياس. ولحق بنا في الباحة ثمَّ عاد، شتمنا وهدَّد بأن يرمي من مكتبتي كتب الحرب كافَّة. وطفقت أبكي طوال النهار. تلك كانت أحوالنا!

وإذ بنا نواجه حرباً حقيقية...

بعد أسبوع دخلت القوَّات الألمانية إلى مينسك. وأنا لم أتذكَّر الألمان أنفسهم فوراً، بل بقيت في ذاكرتي معدَّاتهم الحربية، والدرَّاجات النارية الكبيرة. لم يكن لدينا منها، ولم نرَ مثيلاً لها. ذُهل الناس وفقدوا القدرة على الكلام والسمع. كانوا يمشون بعيونٍ ممتلئةٍ رعباً... وظهرت على الأسيجة والأعمدة لافتاتٌ ومنشوراتٌ غريبة، أوامرُ غريبة، وبدأ تطبيق "النظام الجديد". وبعد فترة قصيرة افتُتحت المدارس مجدَّداً، وقرَّرت ماما أن الحرب هي الحرب، ويجب عدم التوقُّف عن الدراسة، ويجب عليَّ أن أتعلَّم في الأحوال كافَّة. وفي أوَّل درس صارت معلِّمة الجغرافيا ذاتها التي كانت تدرِّسنا قبل الحرب تتحدَّث ضدَّ السلطة السوفيتية، ضدَّ لينين. وقلتُ في دخيلة نفسي: لن أتعلَّم في مثل هذه المدرسة. لا، لا، لا... لا أريد! رجعتُ إلى البيت وقبَّلتُ جميع الصور في كتابي المدرسي... جميع صور زعمائنا المحبوبين.

كان الألمان يقتحمون الشقق بحثاً عن أحدٍ ما طوال الوقت. تارةً يبحثون عن اليهود وتارةً عن رجال الأنصار... وقالت ماما: «أخفي ربطة عنق أفراد الطلائع». رحتُ أُخفي الربطة في النهار وأرتديها في الليل حين أنام في الفراش. كانت ماما خائفة: ماذا لو يطرق الألمان الباب ليلاً؟ وراحت تُقنعني بعدم ارتدائه، وأخذتْ تبكي. وكنت أنتظر اللحظة التي تغفو فيها ماما، ويسود الهدوء في الشارع، فأستخرج الربطة من صوان الملابس وكذلك الكتب السوفيتية. أمّا صديقتي فكانت تنام وعلى رأسها القبعة "البوديونوفكا".

ونحن الآن أيضاً يعجبنا ما كنا عليه آنذاك...

لقد جمعتها بيدي

كانت بيضاء... بيضاء

جينيا سيلينيا – 5 أعوام.

الآن – صحفية.

في ذلك الصباح... الثاني والعشرين من شهر حزيران/ يونيو...

ذهبنا، أنا وأخي، لجميع الفطر. فقد حلَّ موسم جمع أصناف الفطر الدسمة والمكتنزة. وغابتنا ليست كبيرة، وكنا نعرف كلَّ شجيرة هناك، وكلَّ فسحةٍ في الغابة، وأين ينمو الفطر، وأين تثمر الأعناب البرية وحتى أين تتفتَّح الأزهار. أين تنبت زهرة عشب النار، وأين ينبت عشب الزفيروبوي الطبِّي... ونبات الخلنج الوردي. وفي طريق عودتنا إلى البيت سمعنا هديراً شديداً. كان الهدير ينبعث من السماء. ورفعنا رأسينا: كانت تحلِّق فوق رؤوسنا ما بين 12 إلى 15 طائرة، كانت تحلِّق عالياً، عالياً جدّاً، وفكَّرت في أن طائراتنا لم تكن تحلِّق سابقاً بمثل هذا العلو. وسمعنا الهدير المتواصل: و– – و– و!

وعندئذٍ رأينا أمَّنا.. كانت تهرول نحونا، باكية، في نشيجٍ مخنوق. بقي لديَّ هذا الانطباع عن اليوم الأوَّل للحرب، ماما لا تدعونا بحنانٍ كالعادة، بل تصرخ: «أبنائي! أبنائي!». عيناها واسعتان، وبدلاً من الوجه عينان فقط.

أظن أنه بعد يومين جاء إلى بلدتنا القوزاقية فريقٌ من رجال الجيش الأحمر. كانوا متربين ويتفصَّدون عرقاً وشفاههم مشقَّقة، وصاروا يشربون

ماء البئر بنهم، وغمرتهم الحيوية، وتلألأتْ وجوههم فرحاً حين ظهرت في السماء أربع من طائراتنا، وبدت عليها بوضوح النجوم الحمراء. هتفنا مع رجال الجيش الأحمر: «طائراتنا! طائراتنا! طائراتنا!». لكن انطلقت فجأة من مكانٍ ما طائراتٌ سوداءُ صغيرة، وصارتْ تحوم حول طائراتنا، ثمَّ سُمع صوت فرقعةٍ وهدير، ووصل الصوت الرهيب إلى الأرض... بدا كما لو أن أحدهم مزَّق القماش المشمَّع أو شريطا ماً... كان الصوت عنيفاً للغاية، ولم أكن أعرف بعد أنها قرقعة صليات المدافع الرشَّاشة التي تُسمع من بعيدٍ أو من أعالي السماء. امتدَّتْ وراء طائراتنا الساقطة ذيولٌ حمراءُ من النار والدخان. باباخ! وقف رجال الجيش الأحمر وأُجهشوا بالبكاء دون أن يخجلوا من دموعهم... في أفلام الحرب التي رأيتها في بلدتنا لم يكن جنودنا يبكون أبداً...

بعد مرور عدَّة أيَّام جاءت الخالة كاتيا شقيقة أمِّي من قرية كاباكي، سوداء السحنة ومرتعبة، وروت أنَّ الألمان اقتحموا قريتهم وجمعوا النشطاء ونقلوهم إلى أطراف القرية وأطلقوا عليهم نيران المدافع الرشَّاشة. كان بين القتلى شقيق أمِّي، النائب في المجلس الريفي، وهو شيوعيٌّ قديم.

وما زلت حتى الآن اتذكَّر أقوال الخالة كاتيا: «لقد حطَّموا رأسه، وجمعت الدماغ بيدي. إنها بيضاء... بيضاء».

عاشت في بيتنا مدَّة يومين. وكانت في كلِّ يومٍ تروي ما حدث، وتكرِّر ذلك... وفي هذين اليومين أصبح شعرها أبيض. وعندما جلستْ ماما إلى جانب خالتي كاتيا، واحتضنتها واستغرقت في البكاء، مسَّدت رأسها بيدي. لقد داهمني الخوف.

خفتُ من أن تصبح أمِّي بيضاء ذات شعر أشيب أيضاً...

أريد أن أحيا! أريد أن أحيا...

فاسيا خاريفسكي – 4 أعوام.

الآن – مهندس معماري.

تلك الصور، تلك الأنوار. ثروتي. هذه بحبوحة، الأحداث التي عشتها...

لايصدِّقني أحد، وحتى ماما لم تصدِّقني. عندما صرنا نستعرض الذكريات بعد الحرب قالت لي بدهشة: «ليس في وسعك تذكُّر ذلك، فقد كنت صغيراً. لا بد من أن أحدهم روى ذلك لك».

كلا، أنا أتذكَّر...

تتساقط القنابل، بينما أنا أتشبَّث بأخي الأكبر: «أريد أن أحيا! أريد أن أحيا!». كنت أخاف الموت، لكن ماذا كنت أعرف عن الموت؟ ماذا؟

أنا نفسي أتذكَّر...

أعطتنا ماما، أنا وأخي، آخر حبَّتَي بطاطا، بينما راحت تتطلَّع إلينا فحسب. كنا نعرف أن حبَّتَي البطاطا هاتين كانتا آخر ما لديها... أردت أن أترك لها قطعةً صغيرة، لكنني لم أستطع، وأخي لم يستطع أيضاً... وشعرنا بالخجل... بالخجل الشديد.

كلا، أنا نفسي...

رأيت أوَّل جندي من جنودنا... أظنُّ أنه كان من رجال الدبَّابات،

لكنني لا أستطيع التحديد بدقة. فهرولت نحوه: «بابا!». فرفعني بيديه نحو السماء وقال: «ولدي!».

أنا أتذكَّر كلَّ شيء...

أنا أتذكَّر قول الكبار: «إنه صغير. لا يفهم». لكنني دُهشت: «يا لَهؤلاء الكبار! كم هم أناس غرباء! لماذا قرَّروا أنني لا أفهم شيئاً؟ أنا أفهم كلَّ شيء». وحتى بدا لي أنني أفهم أكثر من الكبار، بينما هم يبكون.

الحرب هي كتابي المدرسيُّ في مادَّة التاريخ، إنها وحدتي... لقد ضيَّعت زمن الطفولة، وقد سقط من حياتي. أنا إنسان بلا طفولة، وبدلاً من الطفولة لديَّ الحرب.

ولم يؤثِّر في حياتي فيما بعد سوى الحب. عندما أحببت... وعرفت الحب.

أتطلع عبر عروة الزر...

إينا ليفكيفتش – 10 أعوام.

الآن – مهندسة بناء.

في الأيّام الأولى، منذ الصباح...

انهالت القنابل فوق رؤوسنا... وسقطت على الأرض أعمدة الكهرباء والأسلاك. الناس في فزع، الجميع يهربون من البيوت. كان الجميع يهربون من البيوت إلى الشارع، ويحذِّر بعضهم البعض: «حذارِ – سلك! حذارِ – سلك!»، بغية ألا يتعثَّر أحدٌ ما به ويسقط. كما لو أن هذا كان أفظع شيء.

في صباح يوم 26 حزيران/ يونيو سلَّمت أمِّي الأجور إلى العاملين، حيث كانت تعمل في شعبة المحاسبة في المصنع. وفي المساء أصبحنا لاجئين. وعندما غادرنا مينسك شاهدنا مدرستنا تحترق، كان اللهب يتصاعد من كلِّ نافذةٍ فيها، ساطعاً بشدَّة... يتصاعد حتى عنان السماء. وصرخنا معولين لأنَّ مدرستنا تحترق. كنا أربعة مع ماما، ثلاثة منا ساروا مشياً على الأقدام، أمَّا الصغيرة فقد "ركبت" ذراعي أمِّي. وقد ساور ماما القلق لأنها أخذتْ مفاتيح الشقَّة من دون أن تغلقها. وحاولتْ إيقاف السيَّارات وصرختْ راجية: «خذوا أطفالنا، وسنذهب للدفاع عن المدينة». لم ترد تصديق أن الألمان قد دخلوا المدينة، وأن المدينة استسلمت.

كان كلُّ ما يجري أمام سمعنا وبصرنا رهيباً وغير مفهوم، ما يجري

لنا، بالأخص الموت... تبعثرت إلى جانب القتلى غلّايات شاي وقدور، وكل شيء يحترق... وبدأنا نسير فوق جمرات ملتهبة. لقد ربطتني دوماً أواصر الصداقة مع الصبية، وشببتُ طفلةً شقية، وكنت أتطلّع باهتمامٍ إلى القنابل وهي تطير وتطلق الصفير ثمّ تتساقط. وحينما كانت ماما تصرخ: «لننبطح على الأرض!»، كنت أتطلّع عبر عروة زرّ المعطف... ماذا يحدث هناك في السماء؟ وكيف يهرول الناس؟ وثمة شيء ما معلّق من الشجرة... وحينما أدركت أنها أشلاء إنسانٍ ما معلّقة في الشجرة. صُعقت، وأغمضتُ عيني...

كانت شقيقتي إيرما في السابعة من العمر، وكانت تحمل موقد الطهو وحذاء أمّي. كان حذاءً جديداً بلونٍ ورديٍّ شاحب، وبكعبٍ مضلّع. وأخذتْه ماما بصورةٍ عفوية، وربّما لكونه أجمل شيءٍ لديها.

وسرعان ما عدنا مع المفتاح والحذاء إلى المدينة التي احترق فيها كلُّ شيء، وصرنا نتضوّر جوعاً. رحنا نجمع أعشاب الأراماس ونأكلها، كما أكلنا بعض الأزهار الجافّة! اقترب الشتاء، وأحرق الألمان بستاناً كبيراً للمزرعة الحكومية في خارج المدينة لخشيتهم من الأنصار، وصار الجميع يذهبون إلى هناك لقطع جذور الأشجار الممتدة لاستخدامها على الأقل كوقود، بغية تدفئة الموقد في البيت، ولصنع ما يشبه الكبد من الخميرة؛ فتوضع الخميرة على المقلاة وتُسخّن، فيتولّد فيها مذاق الكبد. أعطتْني ماما النقود لشراء الخبز من السوق، وهناك كانت ثمّة عجوزٌ تبيع الجداء، ودار في خلدي أنني سأنقذ العائلة كلّها إذا ما اشتريتُ جدياً؛ فسيكبر الجدي، وستكون لدينا وفرةٌ من الحليب. واشتريت الجدي ودفعت ثمناً له جميعَ النقود التي أعطتْها لي ماما. ولا أذكر كيف عنّفتني ماما، لكنني أذكر فقط أننا جلسنا عدّة أيّام جياعاً؛ فقد نفدت النقود... وطبخنا معجوناً ما وأعطيناه للجدي، وكنت آخذه للنوم معي بغية أن يتمتّع بالدفء، لكنه

كان يتجمَّد من البرد، وسرعان ما مات، وكانت تلك مأساة... بكينا كثيراً، ولم نسمح بحمله إلى خارج البيت. وبكيت أنا أكثر من الجميع، لاعتقادي بأنني مذنبة. وحملتْه ماما ليلاً بهدوءٍ ثمَّ أبلغتْنا أن الفئران أكلت الجدي.

لقد احتفلنا في فترة الاحتلال بجميع أعياد أيَّار/ مايو وتشرين الأوَّل/ أكتوبر. إنها أعيادنا... لنا! وكنا نردِّد الأغاني، فالجميع في عائلتنا يجيدون الغناء. وسعينا إلى أن نطبخ في هذا اليوم طعاماً أكثر بقليل، فلنبقَ غداً جوعى، لكننا يجب أن نحتفل بجميع الأعياد. وكنا ننشد بهمس الأغنية المفضلة لدى ماما: «نور الصباح يزهو بلونٍ نضرٍ على أسوار الكرملين...». كان هذا واجباً.

صنعت جارتنا فطائر من أجل بيعها وقالت لنا: «خذوها بالجملة من أجل بيعها بالمفرَّق، فأنتم شباب وحركتكم سهلة». وقرَّرتُ أن أقوم بذلك لعلمي بأن ماما تجد صعوبةً في إطعامنا جميعاً. جلبت الجارة الفطائر فجلست مع شقيقتي إيرما وتطلَّعنا إليها: «إيرما ألا تجدين أن هذه الفطيرة أكبر من تلك؟».

* «أعتقد أنها أكبر...».

أنت لا تتصوَّرين كيف كانت رغبتنا في تذوُّقها.

- «لنقطعْ شريحةً منها، ثمَّ نذهب لبيعها».

جلسنا بهذا الحال طوال ساعتين، ولم نحمل شيئاً إلى السوق. وبعد ذلك صارت الجارة تصنع حلوى "بادوشيتكا"، وهي صنفٌ من الحلوى لم يعد موجوداً الآن. فأعطتْنا هذه الحلوى لبيعها. ومرَّةً أخرى جلست مع إيرما أمامها: «هذه القطعة من الحلوى أكبر من الأخريات. هيَّا يا إيرما نلعقها قليلاً».

* «هيَّا بنا...».

كان لدينا معطفٌ واحدٌ لثلاثتنا، وجزمة لبَّاد واحدة. وغالباً ما كنا نجلس في البيت، ونروي الحكايات لأحدنا الآخر، ونطالع بعض الكتب. بيد أن هذا لم يكن شيِّقاً. وكان يمتِّعنا أن نحلم حول كيف ستنتهي الحرب وكيف سنحيا بعد الحرب، وسنأكل الفطائر والسكاكر فقط.

بعد الحرب ارتدت ماما قمصاناً حريرياً. كيف بقي لديها هذا القمصان؟ أنا لا أذكر. فقد بادلنا جميع الأشياء الجيِّدة بمواد غذائية. وكانت أكمام هذا القمصان سوداء، وقصَّتها ماما لكي لا يبقى أيُّ شيءٍ يبعث على الحزن، ويبقى ما هو نيِّرٌ فقط.

ذهبنا إلى المدرسة فوراً، ومنذ الأيام الأولى بدأنا بتعلُّم الأناشيد من أجل الاستعراض العسكري.

سمعت صراخ ماما فقط...

ليدا بوغورجيلسكايا – 8 أعوام.

الآن – دكتوراه في البيولوجيا.

أتذكَّر هذا اليوم طوال حياتي؛ اليوم الأوَّل من دون بابا...

أردت أن أنام. أيقظتنا ماما عند الفجر وقالت: «الحرب». أي نوم؟ أخذنا نجمع حاجيَّاتنا للنزوح. كان الجميع ينظرون إلى بابا، لكن بابا كان هادئاً، كعادته دائماً. كان موظَّفاً حزبياً. قالت ماما لكلٍّ واحدٍ منا ما يجب عليه أخذه معه، ولم أعتزم أخذ أيِّ شيء. أمَّا شقيقتي الصغرى فقد اختطفت دميتها، وحملت ماما أخانا الأصغر، ولحق بابا بنا في الطريق.

لقد نسيت أن أقول إننا كنا نقطن في مدينة كوبرينو القريبة من بريست؛ ولهذا شملتْنا الحرب منذ اليوم الأوَّل، ولم نعد إلى رشدنا بعد. لم يتحدَّث الكبار تقريباً، كانوا يسيرون ويركبون الجياد صامتين. لقد ساد جوٌّ رهيب. الناس يسيرون ويسيرون، عددٌ كبيرٌ من الناس، وكلُّهم صامتون.

عندما لحق بابا بنا، أحسسنا بشيءٍ من الطمأنينة؛ فقد كان بابا في أسرتنا صاحب الكلمة القاطعة في كلِّ شيء، لأن ماما كانت فتيَّةً جدَّاً، وتزوَّجت في السادسة عشرة من عمرها، حتى أنها لم تكن تجيد الطبخ. أما بابا فهو يتيم، وكان يحسن عمل كلِّ شيء. وأذكر مدى بهجتنا حين كان لدى بابا وقت كافٍ ليطبخ أكلةً لذيذةً ما، فهو يوم عيد للجميع. وأعتقد حتى الآن بأنه لا يوجد طعامٌ أطيب مذاقاً من عصيدة السميد التي كان يعدُّها بابا.

كم سافرنا بدونه، وكم انتظرناه! لم يكن في وسعنا تصوُّر البقاء في فترة الحرب بلا بابا. هذا كان حال أسرتنا.

كانت حمولة العربة كبيرة، فسرنا ببطء. وأحياناً كنا نتوقَّف ونتطلَّع إلى السماء. كنا نبحث عن طائراتنا، لكن عبثاً بحثنا عنها...

في منتصف النهار شاهدنا طابوراً عسكرياً. كان أفراده يركبون الجياد ويرتدون الزيَّ العسكريَّ للجيش الأحمر. الجياد شبعانة، كبيرة، ولم يخمِّن أحدٌ بأنهم من المخرِّبين الأعداء، وقرَّر الجميع أنهم من رجالنا. فرحنا، وتوجَّه بابا للقائهم، فسمعت صراخ ماما. أنا لم أسمع صوت إطلاق الرصاص، بل سمعت صراخ أمي فقط: «آ-ا-ا-..ي-ي-ي»... وأذكر أن أولئك العسكريين لم يترجَّلوا عن جيادهم حتى.. صرخت ماما، هرولت. وأخذ الجميع يهربون إلى مكانٍ ما. هربوا صامتين. وسمعت فقط صوت صراخ ماما. واصلت الهرب حتى تعثَّرت وسقطت وسط الأعشاب العالية.

وقفت جيادنا حتى المساء. كانت تنتظر. ورجعنا جميعاً إلى ذلك المكان حين حلّ الظلام. كانت ماما جالسة وحدها وتنتظر. وصرخ أحدهم: «انظروا، إنها شيباء». وأذكر كيف حفر الكبار القبر. وفيما بعد اقتادوني مع شقيقتي قائلين: «تعالا لتوديع أبيكما». قمت بخطوتين، ولم أستطع مواصلة السير أكثر. جلست على الأرض، وجلست شقيقتي إلى جانبي. أما أخي الأصغر فكان نائماً، كان صغيرا جدّاً، ولم يفهم أيَّ شيء. بينما كانت ماما مستلقية في العربة فاقدة الوعي، ولم يسمحوا لنا بالذهاب إليها.

هكذا لم يرَ أحدٌ منا أبانا ميتاً. وأنا حين أتذكَّره أراه دوماً بجاكتة بيضاء. شابّاً ووسيماً. وحتى الآن وقد أصبحت أكبر سنّاً من أبينا آنذاك.

عملتْ أمي في الكولخوز بمقاطعة ستالينغراد التي نقلنا إليها. وأصبحت ماما متفوقة في العمل ولو أنها كانت من قبل لا تجيد عمل أيِّ شيء، ولا تعرف كيف تجتثُّ الأعشاب الضارَّة في الحقل، ولا تميِّز الشوفان عن الحنطة. كنا بلا أب، وكان هناك أيضاً آخرون بلا آباء، أو أخوات، أو أجداد. لكننا لم نعتبر أنفسنا من اليتامى؛ فقد أشفق الجميع علينا وتولَّوا تربيتنا. أنا أذكر العمَّة تانيا موروزوفا. لقد استشهد اثنان من أبنائها، وعاشت وحيدة. وقد وفَّرتْ لنا كلَّ شيءٍ كما لوكانت أمَّنا. بينما كانت امرأةً غريبةً عنا تماماً، بيد أنها أصبحت قريبة بالنسبة إلينا بسبب الحرب. وقال أخي حين كبر إنه لا يوجد لنا أب بينما توجد لدينا أُمَّان: أمُّنا والعمَّة تانيا. وهكذا شببنا جميعاً، مع اثنتين وثلاث من الأُمَّهات.

وأذكر أيضاً كيف جرى قصفنا بالقنابل لدى إجلائنا. كنا نهرول للاختباء. نهرول ليس إلى ماما بل إلى الجنود. وعندما كان القصف ينتهي تبدأ ماما بلومنا لكوننا نهرب بعيداً عنها، ومع ذلك فكنا حين يبدأ القصف مجدداً نحتمي بالجنود.

عندما حُرِّرتْ مينسك قرَّرنا العودة إلى وطننا. إلى بيلاروسيا. أمُّنا من أبناء مينسك الأصليين، لكن حين خرجنا من محطَّة القطار في مينسك لم نعرف إلى أين نتَّجه. لقد كانت مدينةً أخرى؛ مجرَّد خرائب... رمل من الأحجار...

درست في الأكاديمية الزراعية في غوريتسك. وسكنت في الأقسام السكنية الطلابية، وعشنا ثمانية أشخاص في غرفة واحدة، والجميع يتامى. لم يعمد أحدٌ إلى إسكاننا على انفراد، ولم يسعنا المكان، فقد كان عددنا كبيراً. وأذكر كيف كنا نصرخ جميعاً ليلاً... كان يتَّفق أن أقفز من السرير وأطرق الباب، أردت أن أقتحمه إلى مكانٍ ما، وأمسكت الفتيات بي. عندئذ كنت أنخرط في النحيب، ويشاركني الجميع النحيب. كان العويل

يسود الغرفة كلها. وفي الصباح ينبغي الذهاب إلى الدراسة والاستماع إلى المحاضرات.

التقيت في الشارع مرَّةً رجلاً شبيهاً بأبي، فتبعته لمسافةٍ طويلة؛ فأنا لم أرَ أبي ميتاً...

كنا نلعب، والجنود يبكون...

فولوديا تشيستوكليتوف – 10 أعوام.

الآن – موسيقار.

كان الصباح نضراً جميلاً...

البحر في الصباح أزرق وهادئ. الأيَّام الأولى بعد وصولي إلى مصح الأطفال "سوفيت – كفاجه" على ساحل البحر الأسود. سمعت هدير طائرات... قفزت إلى الأمواج، لكنني سمعت الهدير هناك أيضاً تحت الماء. نحن لم نفزع، بل مارسنا لعبة "الحرب"، من دون أن يساورنا الشك في نشوب الحرب فعلاً في مكانٍ ما. ليست لعباً، ولا مناورات عسكرية، بل الحرب.

بعد عدَّة أيَّام أرسلونا إلى بيوتنا. عدتُ إلى روستوف، وكانت أولى القنابل قد سقطت على المدينة. واستعد الجميع لمعارك الشوارع؛ حُفرت الخنادق وبنيت التحصينات، وبدأ التدريب على إطلاق النار. أمَّا نحن، الأطفال، فكنا نتولَّى حراسة الصناديق التي وضعت فيها زجاجات المواد الحارقة، وحمل الرمل والماء تحسُّباً لنشوب حريق.

تحوَّلتْ جميع المدارس إلى مستشفيات. وأُعدَّ في مدرستنا رقم 70 مستشفى عسكري من أجل المصابين بجروحٍ خفيفة. وأُرسلت ماما إلى هناك، وسمح لها بأخذي معها بغية ألا أبقى وحيداً في البيت. ولدى الانسحاب كنا نرافق المستشفى إلى أيِّ مكانٍ ينتقل إليه.

وحدث مرَّةً بعد القصف الجوِّي أن عثرتُ على كومةٍ من الكتب وسط الأحجار، منها كتاب عنوانه "حياة الحيوانات". كان كتاباً كبيراً فيه صورٌ جميلة وقضيت الليل كلَّه ساهداً وأطالع ولم أستطع تركه... وأذكر أنني لم آخذ من الكومة الكتب عن الحرب لأنني لم أرغب في مطالعة كتب عنها. أمَّا الكتب عن الحيوانات والطيور فهي شيءٌ آخر...

في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1941 أمر مدير المستشفى العسكري بمنحي بزَّة عسكرية، لقد وجبت إعادة خياطتها مجدَّداً لتلائمني. كما لم يستطيعوا إيجاد جزمةٍ تناسبني طوال شهرٍ كامل. وهكذا أصبحت ربيب المستشفى، أصبحت جندياً. ما العمل؟ الضمادات وحدها يمكن أن تصيبني بالجنون، إنها لا تكفي دائماً، فوجب غسلها وتجفيفها ولفُّها. فحاولْ لفَّ ألف ضمادةٍ في يومٍ واحد! لكنني أفلحت في القيام بذلك أسرع من الكبار، وأفلحتُ في ذلك منذ المرَّة الأولى... وفي يوم عيد ميلادي الثاني عشر منحني العريف مبتسماً قبضة من التبغ بصفتي مقاتلاً كامل الحقوق، ودخَّنتُ، بدون علم أمِّي طبعاً. كنت أطلق لخيالي العنان، لكن... هذا أمرٌ يبعث على الخوف. لقد اعتدت على رؤية الدم، لكنني خفتُ من الجرحى المصابين بحروق، من ذوي الوجوه السوداء.

وعندما جرى قصف عربات القطار المحمَّلة بالملح والبارافين جرت الاستفادة منهما؛ فالملح للطبخ، والبارافين لي. فقد أتقنت حرفةً غير واردةٍ في القوائم العسكرية، هي صنع الشموع. وهذا العمل أكثر صعوبةً من الضمادات! كانت مهمَّتي متابعة أن تحترق الشموع فترةً طويلة واستخدامها حين لاتتوفَّر الكهرباء، فالأطبَّاء لم يتوقَّفوا عن إجراء العمليات تحت القصف الجوِّي والمدفعي. أمَّا في الليل، فكانت تُغلق النوافذ وتُعلَّق عليها ستائر من الشراشف أو الألحفة.

كانت أمِّي تبكي، بينما كنت مع هذا أحلم بالهرب إلى الجبهة، ولم

أصدِّق احتمال أن أُقتل. أرسلوني مرَّةً لجلب الخبز، وما كدت أسير قليلاً حتى بدأ القصف. كان القصف يجري بواسطة مدافع الهاون، فقُتل العريف وقُتل الحوذيُّ، بينما أُصبت برضٍّ دماغي، وفقدت القدرة على النطق. وعندما استعدت القدرة على الكلام بعد فترةٍ بقيت مع هذا أثأثئ في الكلام، وما زلت حتى الآن. وقد دُهش الجميع لبقائي على قيد الحياة، بينما كان لديَّ شعورٌ آخر، وهل يمكن أن أُقتل؟ كيف يمكن أن أُقتل؟ ورافقنا المستشفى العسكري في بيلاروسيا وبولندا، وتعلَّمتُ بعض الكلمات البولندية...

في وارسو، كان بين الجرحى تشيكي عازف ترومبون من أوبرا براغ، وقد سُرَّ مدير المستشفى العسكريِّ بوجوده وحين بدأ التشيكي يستعيد عافيته طلب البحث في الردهات عن موسيقيين، وتشكَّلت فرقة أوركسترا ممتازة، وعلَّموني العزف على الكمان الكبير، بينما تعلَّمت لوحدي العزف على الجيتار. كنا نعزف، والجنود يبكون. كنا نعزف ألحان الأغاني المرحة...

وهكذا حتى بلغنا ألمانيا...

رأيت في بلدةٍ ألمانية خربة دراجة أطفال مهملة، ففرحت. ركبتها وانطلقت بها. كانت تمضي بكلِّ يسر! بينما لم أرَ خلال فترة الحرب أيَّ شيء للأطفال، ونسيت أنه توجد في مكانٍ ما ألعاب الأطفال...

رقد الأموات في المقبرة فوق سطح الأرض...
كما لو أنهم قُتلوا مرَّةً أخرى

فانيا تيتوف – 5 أعوام.

الآن – خبير في استصلاح الأراضي.

سماء سوداء...

طائرات بدينة سوداء... إنها تهدر على ارتفاعٍ منخفض، فوق الأرض تماماً. إنها الحرب. كيف أتذكَّرها؟ أتذكَّر بعض مشاهدها المنفردة.

قصفونا واختبأنا في الحديقة وراء أشجار التفَّاح العتيقة، جميعنا نحن الخمسة؛ كان لديَّ أربعة أخوةٍ أكبرهم في سنِّ العاشرة، وقد علَّمنا كيف يجب الاختباء من الطائرات وراء أشجار التفَّاح الكبيرة حيث توجد أوراقٌ كثيرة. جمعتْنا ماما واقتادتْنا إلى القبو. الجوُّ رهيبٌ في القبو. كانت تعيش هناك الجرذان ذات العيون الصغيرة اللامعة التي تتألَّق في العتمة، كانت تتألَّق ببريقٍ غير طبيعي. كما أن الجرذان كانت تطلق فحيحاً في الليل، وتلعب.

عندما دخل الجنود الألمان البيت الريفيَّ اختبأنا فوق الموقد، وراء خرق عتيقة. رقدنا وعيوننا مغمضة، بسبب الخوف.

أضرموا النار في قريتنا، وقصفوا مقبرة القرية. هُرع الناس إلى هناك فوجدوا الموتى راقدين فوق سطح الأرض كما لو أنهم قُتلوا مرَّةً أخرى، وكان بينهم جدِّي الذي تُوفِّي منذ فترةٍ قريبة. وجرى دفنهم مجدَّداً...

كنا في الحرب نمارس لعبة "الحرب". وعندما سئمنا من لعبة "الحمر والبيض" و"تشابايف[1]" أخذنا نمارس لعبة "الروس والألمان". قاتلنا؛ وأسرنا أفراد العدو، ونفَّذنا الإعدام رمياً بالرصاص، ووضعنا على رؤوسنا خوذ الجنود، خوذ جنودنا والجنود الألمان، التي كانت مبعثرةً في كلِّ مكان- في الغابة والحقول. ولم يرغب أحد في أن يكون ألمانياً، ولهذا السبب كنا نتخاصم. ومارسنا لعبة الدشم والخنادق الحقيقية، وقاتلنا باستخدام العصي، وتعاركنا بالأيدي وبالسلاح الأبيض، وعنَّفتْنا أمَّهاتنا...

وقد دُهشنا لأنهن، قبل الحرب، لم يقرعننا لهذا السبب...

---

1 - أحد أبطال الثورة البلشفية. (المترجم).

لقد فهمت أنه أبي...
وارتجفت ركبتاي...

ليونا خوسينيفتش - 5 أعوام.
الآن - مصمِّم.

بقي في ذاكرتي اللون...

كنت في الخامسة من العمر لكنني أتذكَّر جيِّداً... بيت جدِّي أصفر، خشبي، وثمة جذع ملقى على العشب وراء حاجز الأغصان الجافَّة. الرمل الأبيض الذي كنا نمارس ألعابنا فيه يبدو وكأنه غُسل. أبيض - أبيض. وأذكر أيضاً كيف رافقتنا ماما، أنا وشقيقتي، إلى المصوِّر الفوتوغرافي في المدينة لالتقاط صورٍ لنا، وكيف بكت إيلونشكا، بينما أخذت أهدِّئها. وقد احتفظنا بالصورة الفوتوغرافية، وهي الصورة الوحيدة لنا في فترة ما قبل الحرب... ولسببٍ ما بقيت الصورة في ذاكرتي خضراء اللون.

وفيما بعد بقيتْ جميع الذكريات بلون قاتم... ولئن كانت الأولى جميعاً بلون فاتح - العشب أخضر - أخضر، مثل لوحةٍ مائيةٍ بألوانٍ فاتحة، والرمل أبيض - أبيض، والحاجز أصفر - أصفر... فإن الأشياء بدت فيما بعد بألوانٍ قاتمة: أنا اختنقت بسبب الدخان وحملوني إلى الخارج، إلى الشارع، مع حاجياتنا، والرزم. ولأمرٍ ما وُجد كرسيٌّ واحد فقط... الناس ينتحبون، بينما أنا أسير مع ماما طويلاً في الشوارع، وأنا أمسك بتنُّورتها. وكانت أمِّي تردِّد لدى مقابلة الجميع عبارةً واحدة: «لقد احترق بيتنا».

لجأنا للمبيت إلى مدخل مبنى ما، وأحسست بالبرد، فصرت أدفّئ يدي في جيب قميص ماما. وتحسَّستُ هناك شيئاً بارداً... إنه مفتاح بيتنا.

فجأةً لم تعد ماما موجودة هناك. لقد اختفت ماما، وبقيت جدَّتي وجدِّي. وظهر لي صديق يكبرني بعامين؛ هو جينيا سافوتشكين. إنه في السابعة من العمر، وأنا في الخامسة. بدأ تعليمي القراءة والكتابة باستخدام كتاب حكايات الأخوين جريم. وتولَّت جدَّتي تعليمي على طريقتها، حيث يمكن أن أعاقب بنقرة إصبع على جبيني: «إيه، يا خائب!». وعلَّمني جينيا أيضاً، وكان وقت قراءة الكتاب يشير بإصبعه إلى الحروف. لكنني أحببت بقدرٍ أكبر سماع الحكايات، بالأخص حينما كانت الراوية جدَّتي. كان صوتها يشبه صوت ماما. وحدث في إحدى الأمسيات أن زارتنا امرأةٌ جميلةٌ وجلبت شيئاً طيِّب المذاق جدّاً، وفهمت من كلماتها أنَّ ماما على قيد الحياة وكذلك بابا، وهما يحاربان. فصرخت بابتهاج: «ستعود ماما قريباً!». وأردت أن أخرج إلى الباحة وأنقل الخبر إلى صديقي. فتلقَّيت من جدَّتي ضربةً بالحزام، ودافع جدي عني. وعندما خلدا إلى النوم جمعت الأحزمة في البيت كافَّةً ورميتها وراء الصوان.

كنت أشعر برغبةٍ دائمة في الأكل، وكنت أذهب مع جينيا إلى حقل الشوفان وراء البيت، فنأخذ في هزّ السنابل والتهام الحبوب. لكن الحقل أصبح ألمانياً، والسنابل ألمانية... وشاهدنا سيَّارةً قادمة، فهربنا، وسحبني من بوَّابة بيتنا ضابطٌ بزيٍّ أخضرَ وكتَّافيات ساطعة، وراح يضربني بالسوط تارةً وبالحزام تارةً أخرى. وقد صُعقت من الخوف... ولم أشعر بالألم. وفجأة رأيت جدَّتي: «يا سيِّد، عزيزي، أعطني حفيدي، لخاطر الرب أعطني إيَّاه». وجثتْ جدَّتي أمام الضابط. انصرف الضابط، بينما كنت مستلقياً على الرمل. وحملتْني جدَّتي إلى البيت. وكنت أجد صعوبة في تحريك شفتي. وبعد ذلك عانيت من المرض فترةً طويلة.

وأذكر أيضاً كيف سارت في الشارع عرباتٌ تجرُّها الجياد. وفتح جدِّي وجدَّتي البوَّابة، وانضمَّ لاجئون للسكن معنا. وبعد فترةٍ أصيبوا بمرض التيفوئيد، وأخذوهم كما قيل لي إلى المستشفى. وبعد فترةٍ أخرى مرض جدِّي. أنا أنام معه. أصاب جدَّتي الهزال وصارت تمشي بصعوبةٍ في الغرفة. أنا أخرج وقت الظهر للعب مع الصبية، ولدى عودتي إلى البيت مساء لم أجد جدِّي ولا جدَّتي في البيت، وقال الجيران إنهما نُقلا إلى المستشفى أيضاً. تملَّكني الخوف... أنا وحيد. ورحت أتكهَّن بأن جدِّي وجدَّتي لن يعودا من المستشفى ذاك الذي نُقل إليه اللاجئون. كنت أشعر بالخوف لبقائي في البيت وحيداً، ليلاً في البيت الكبير والغريب. هذا مخيفٌ حتى في النهار. وأخذني إلى بيته شقيق جدِّي. لديَّ جدٌّ جديد.

تُقصف مينسك بالقنابل، ونحن نختبئ في القبو. وعندما أخرج منه إلى الشارع تصيب عينيَّ الغشاوة بسبب الشمس، كما أفقد السمع بسبب هدير المحركات. وتمضي الدبَّابات في الشوارع، فأختبئ وراء عمود الكهرباء. وفجأة رأيت على برج الدبَّابة نجمةً حمراء. إنها دبَّاباتنا! فأهرع فوراً إلى بيتنا: ما دام جنودنا قد جاءوا فمعنى ذلك أن ماما جاءت أيضاً! اقتربت من البيت فرأيت عند المدخل نسوةً ما يحملن البنادق، رفعني النساء بأيديهن وسألنني. كنت أعرف واحدةً منهنَّ، إنها تُشبه ماما. فاقتربت مني واحتضنتْني، بينما انخرطت الأخريات في البكاء. وصرخت بأعلى صوتي: «ماما».

سرعان ما جلبت أمِّي أختي الصغيرة من ملجأ الأطفال. لكنها لم تعرفني؛ لقد نسيتْني تماماً. لقد نسيتني خلال فترة الحرب، بينما كنت مسرورا جدَّاً لعودة أختي إليَّ مجدَّداً.

رجعت إلى البيت من المدرسة فوجدت أبي راقداً على الديوان بعد

عودته من الحرب. كان نائماً، فاستخرجت من حقيبته الميدانية وثائقه وقرأت ما فيها، وأدركت أنه أبي. جلست وبقيت أتطلَّع إليه لحين استيقاظه.

كانت ركبتاي ترتجفان باستمرار...

.

أغلق عينيك يا ولدي... لا تنظر

فولوديا بارابكوفتش – 12 عاماً.

الآن – متقاعد

لقد شببت من دون ماما...

لا أذكر أبداً كيف كنت صغيراً... تُوفِّيتْ أمِّي حين كنت في السابعة من العمر، وعشت عند عمَّتي. كنت أرعى الأبقار، وأقطع الحطب، وأقتاد الحصان إلى الزريبة ليلاً. كما وجب القيام بأعمالٍ كثيرةٍ في الحقل الملحق بالبيت. أمَّا في الشتاء فكنا نتزلَّج في الزحَّافات الخشبية، والقباقيب البدائية الصنع، الخشبية أيضاً، التي تُثبَّت فيها قطع الحديد وتُربط إلى الأحذية المصنوعة من القش بواسطة الحبال، كما نتزحلق على الزحَّافات المصنوعة من ألواح وقيود البراميل المفكَّكة. وكنت أصنع كلَّ شيء بنفسي.

وأذكر حتى الآن عندما لبست أوَّل مرة حذاءً اشتراه لي أبي، وتملَّكني الكرب حين خدشته بغصنٍ مقطوعٍ في الغابة. وشعرتُ بالحزن عليه، وفكَّرت في أنه كان من الأفضل أن أجرح قدمي؛ فالجرح سيندمل. وذهبت بهذا الحذاء مع أبي من أورشا حين قصفتْ طائراتُ الفاشيين المدينة.

كانت الطائرات تُطلق النيران علينا خارج المدينة بصورةٍ مباشرة. وكان الأفراد يتساقطون على الأرض، على الرمل والعشب، ورجاني أبي قائلاً: «أغمض عينيك ياولدي... لا تنظر». كما أنني كنت أخشى النظر إلى

السماء أيضاً؛ فهي سوداء بسبب الطائرات، بينما رقد القتلى على الأرض في كلِّ مكان. وحلَّقت طائرة قريباً منا... فسقط أبي أيضاً ولم ينهض. فجلست إلى جانبه: «بابا، افتح عينيك... بابا، افتح عينيك...». وصرخ بي الناس: «الألمان قادمون!». وسحبوني معهم. ولم أدركْ أن أبي لن ينهض بعد هذا أبداً، وسيبقى معفَّراً بالتراب في الطريق، ويجب عليَّ أن أتركه. ولم ينزف، بل رقد هناك فحسب. سحبوني بعيداً عنه قسراً، لكن انصرمت الأيَّام وأنا أواصل التطلُّع إلى الخلف، وأنتظر أن يلحق أبي بنا. كنت أستيقظ ليلاً، أستيقظ لدى سماع صوته... لم أستطع تصديق غياب أبي إلى الأبد. وهكذا بقيت وحيداً ببذلة صوفية واحدة.

وبعد جولاتٍ طويلة، في القطار، ومشياً على الأقدام، أدخلوني إلى ملجأ الأطفال في مدينة ميلكيس بمقاطعة كويبيشيف. حاولت عدَّة مرَّاتٍ الهرب إلى الجبهة، لكنَّ محاولاتي كانت تفشل في كلِّ مرَّة؛ إذ كانوا يُلقون القبض عليَّ ويعيدونني. وكما يُقال: رُبَّ ضارَّةٍ نافعة. فقد حدث في الغابة، لدى قطع الأشجار، أن انفلت الفأس من يدي، وأصاب إصبع يدي اليمنى بجرح. فضمَّدت المربِّية إصبعي بمنديلها وأرسلتني إلى العيادة الطبِّية في المدينة.

وفي طريق العودة إلى الملجأ مع ساشا ليابين الذي أُرسل معي ليرافقني إلى العيادة، شاهدنا بالقرب من لجنة الكومسومول بحَّاراً يرتدي قبَّعةً يتدلَّى منها شريطٌ، وانهمك في تعليق إعلانٍ على اللوحة. فاقتربنا منه ورأينا أنه يتضمَّن قواعد القبول في مدرسة فتيان الأسطول الحربي البحري في جزر سولوفكي، وكان الانتماء إلى المدرسة يتمُّ على أساس التطوُّع فقط. وتُعطى الأفضلية لدى القبول في المدرسة إلى أبناء البحَّارة ونزلاء ملاجئ الأطفال. ما زلت أتذكَّر صوته حين قال: «ما رأيكم؟ هل لديكما رغبةٌ في أن تُصبحا من البحَّارة؟».

فأجبناه: «نحن من ملجأ الأطفال».

- «تعالا إذاً إلى لجنة كمسمول المدينة وقدِّما الطلب».

لا يسعني التعبير عن مدى سرورنا في تلك اللحظة؛ فهذا يُعتبر الطريق إلى الجبهة مباشرة. ولم أصدِّقْ أنني سأستطيع الانتقام لمصرع أبي! سأجد الفرصة للذهاب إلى الحرب.

ولجنا إلى لجنة كمسمول المدينة وقدَّمنا الطلب. وبعد عدَّة أيَّامٍ أُجري لنا الفحص الطبِّيُّ أمام اللجنة المختصَّة. ونظر إليَّ أحد أعضاء اللجنة وقال: «إنه نحيل جدّاً وصغير».

وأطلق آخر يرتدي بزَّة ضابط تنهيدةً، وقال: «لا بأس، سيكبر ويشتدُّ عوده».

أُعطيت لنا البزَّات، ووجدوا صعوبةً في انتقاء المقاسات المطلوبة لي. وعندما نظرت إلى نفسي في المرآة بزيِّ البحَّار، وقبَّعة البحار، أشرق مزاجي وشعرتُ بالسعادة. وفي اليوم التالي أبحرنا في سفينة إلى جزر سولوفكي.

كلُّ شيءٍ جديد، غير مألوف. في دجنة الليل نقف على سطح السفينة، يقودنا البحَّارة إلى أماكن النوم: «اذهبوا يا أولاد إلى عنبر السفينة، فهو دافئ».

في وقتٍ مبكِّرٍ من الصباح شاهدنا الدير المتلألئ تحت نور الشمس، والغابة المذهَّبة. كانت هذه جزر سولوفكي التي افتتحت فيها أوَّل مدرسةٍ لفتيان الأسطول البحريِّ الحربيِّ في البلاد. ولكن وجب قبل أن نبدأ بالدراسة أن نبني المدرسة، أو بالأحرى الملاجئ تحت الأرض. علماً أن الأرض في جزر سولوفكي صخريةٌ كلها. كانت تنقصنا المناشير والفؤوس والمعاول، وتعلَّمنا أن نصنع كلَّ شيءٍ بأيدينا: حفر التربة الثقيلة، وقطع الأشجار العتيقة البالغ عمرها عدَّة قرون، واجتثاث الجذوع، وممارسة

أعمال النجارة. وبعد العمل كنا نذهب للاستراحة في الخيام الباردة، وكان الفراش عبارةً عن حشياتٍ ووسائد محشوَّةٍ بالتبن، وتحتها أغصان أشجار الشوح. بينما كنا نغطّي أنفسنا بالمعاطف. وكنا نقوم بالغسيل بأنفسنا، والماء هناك متجلِّد... كنا نبكي؛ فأيدينا تنوء بالألم.

في عام 1942 أدَّينا القسم العسكري، وسلَّمونا قبَّعاتٍ كُتب عليها "مدرسة فتيان الأسطول البحري الحربي"، لكن، ويا للأسف، لم تكن فيها شرائط تتدلَّى على الأكتاف. وسلَّمونا البنادق. في بداية عام 1943 أُرسلتُ لأداء الخدمة العسكرية إلى المدمِّرة "سواوبرازيتلني"، وكان كلُّ شيء بالنسبة إليَّ جديداً: ذرى الأمواج التي كانت تلتطم بمقدَّمة السفينة، والطريق "الفوسفوري" الناجم عن مروحة السفينة، فحبستُ أنفاسي من الدهشة.

سألني القائد: «هل تخاف يا بني؟».

فأجبت فوراً: «لا. إنه شيء جميل!».

فقال القائد: «كان سيكون جميلاً لولا الحرب».

ثمَّ أدار ظهره لسببٍ ما.

كنت في الرابعة عشرة من العمر...

أخي يبكي، لأنه لم يكن موجوداً عندما وُجد بابا...

لاريسا ليسوفسكايا – 6 أعوام.
الآن – موظَّفة في مكتبة.

سأورد الذكريات عن أبي، وعن أخي...

كان أبي من رجال الأنصار، وقد اعتقله الفاشيون وأعدموه. أبلغت النساء ماما أين جرى إعدامهم، بابا وعدَّة أشخاص آخرين. وقد هُرعت إلى المكان حيث كانت جثثهم ملقاة... طوال حياتها بقيتْ تتذكَّر كيف كان الجوُّ بارداً وتجمَّد الماء في البرك. كانوا راقدين بالجوارب فقط...

كانت أمِّي حبلى وتنتظر مولوداً ذكراً.

لقد وجب أن نختبئ في مكانٍ ما؛ إذ كانت عوائل رجال الأنصار مهدَّدةً بالاعتقال. وأخذوا العوائل مع الأطفال، ونقلوهم في شاحناتٍ مغطَّاةٍ بالقماش المشمَّع...

أمَّا نحن فقد بقينا فترةً طويلةً في قبو الجيران. وحلَّ موسم الربيع... كنا نرقد فوق البطاطا التي أخذت تنمو، وبينما نغفو نشعر في الليل بالبرعم ينمو ويدغدغ الأنف. وكانت الخنافس تعيش في جيوبي، وفي الجوارب، ولم أكن أخشاها – ليلاً أو نهاراً.

خرجنا من القبو، وولدتْ أمِّي أخي، وشبَّ وصار يتكلَّم، وتذكَّرنا بابا: «كان بابا طويل القامة...».

- «كان قوياً... ويقذف بي بيديه!».

هذا ما كنت أتحدَّث به مع أختي. أمَّا الأخ فيسأل: «أين كنت؟».

* «لم تكن آنذاك موجوداً...».

فيأخذ بالصراخ لأنه لم يكن موجوداً حين وجد بابا...

هذه الصبية كانت أوَّل القادمين...

نينا ياروشيفتش – 9 أعوام.
الآن – معلِّمة التربية البدنية.

شهد الجميع في البيت حدثاً كبيراً...

في المساء جاء خاطبٌ ليطلب يد أختي الكبرى، وناقش الجميع حتى وقتٍ متأخِّرٍ من الليل متى سيكون الزفاف وأين سيُسجَّل عقد القران، وكم عدد الضيوف الذين سيُدعَون. وفي وقتٍ مبكِّرٍ من الصباح استُدعي أبي إلى مكتب التجنيد، وعمَّ القرية الصخب، الحرب! أصاب ماما الارتباك: ما العمل؟ وكنت أفكِّر في أمرٍ واحدٍ: كيف نصمد أمام محنة اليوم؟ فلم يوضِّح لي أحدٌ قبل هذا أبداً ما هي الحرب... هل ستستمرُّ يوماً أو يومين؟ أم ستستمرُّ فترةً طويلة؟

ثمَّ جاء الصيف. يوم قائظ. أردت الذهاب إلى النهر، بينما تجمع ماما الحاجيَّات للنزوح. كان لدينا أخ أيضاً، وقد خرج من المستشفى لتوِّه، وأُجريت له هناك عمليةٌ جراحيةٌ في الساق، وعاد ماشياً على عكَّازين. لكن ماما قالت: «يجب أن نرحل جميعاً». إلى أين؟ لم يعرف أحد. مشينا نحو خمسة كيلومترات. كان أخي يعرج وينتحب. إلى أين معه؟ رجعنا إلى البيت حيث كان ينتظرنا بابا. لقد عاد جميع الرجال الذين ذهبوا إلى مكتب التجنيد في الصباح، فقد احتل الألمان مركز الناحية. مدينة سلوتسك.

تساقطت أولى القنابل – كنت واقفةً أتطلَّع إليها لحين بلوغها الأرض.

وقال البعض إن من الواجب فتح الفم وسدُّ الأذنين، ولكن مع ذلك كان يُسمع كيف تتساقط، وتُطلق الزعيق. كان ذلك أمراً رهيباً ممَّا يجعل الجلد يتجعَّد، ليس في الوجه فقط، بل في الجسم كلِّه. كان هناك دلوٌ معلَّقٌ في باحة بيتنا، وعندما ساد الهدوء رفعناه فوجدنا فيه ثمانية وخمسين ثقباً. كان الدلو أبيض واعتقد الألمان أن هناك من يقف بمنديل أبيض، لذا أطلقوا النار عليه... كانوا يتسلُّون بهذه الطريقة.

دخلت طليعة الألمان القرية في شاحناتٍ كبيرةٍ مغطَّاةٍ بأغصان أشجار البتولا. جرت العادة عندنا على تزيين المكان بأشجار البتولا لدى إقامة حفل زفاف، وقد أخذوا يقطعون ويقطعون أغصان أشجار البتولا... بينما نظرنا إليهم عبر شقوق الأسياج المظفورة، حيث لم توجد حينئذٍ حواجز حجرية. كنا ننظر من الداليات، وهكذا واصلنا النظر... بدا وكأنهم مثل بقية البشر العاديين، وأردت أن أرى رؤوسهم وكيف تكون، فلسببٍ ما كنت أتصوَّر أن رؤوسهم غير بشرية... وسرت إشاعات بأنهم يقتلون، ويُضرمون النيران في كلِّ مكان، بينما كانوا يمشون ويضحكون. كانوا منبسطي الأسارير، ووجوههم لوَّحتها الشمس.

في الصباح قاموا بتمارينَ رياضيةٍ في باحة المدرسة، وصبُّوا على أجسادهم الماء البارد، ورفعوا الأكمام، ثمَّ استقلُّوا الدرَّاجات النارية وانطلقوا في الدرب.

وخلال عدَّة أيَّام حفروا حفرةً كبيرةً وراء القرية، وكان يسمع من هناك صوت إطلاق النار يومياً في الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً. وعندما تُطلق النيران تكفُّ حتى الديكة عن الصياح وتختبئ. عندما نركب أنا وأبي العربة في المساء، كان أبي يوقف الحصان بالقرب من هذه الحفرة. ويقول: «سأذهب لأرى ما هناك». لقد أُعدمت ابنة عمِّه هناك رمياً بالرصاص. وتبعته حيثما كان يسير.

فجأة التفت أبي، وأغلق عينيَّ لكي لا أرى الحفرة، وقال: «ارجعي. لا يجوز لك مواصلة السير إلى هناك». لكنني رأيت فقط حين عبرت الجدول أن الماء فيه أحمر اللون... ورأيت كيف قفزت الغربان، وعددها كبير، وأخذت أصرخ... لم يتناول بابا الطعام بعد هذا خلال عدَّة أيَّام. وحينما يرى غراباً يهرب إلى داخل البيت ويرتجف بكامل جسده... كالمصاب بالحمى.

جرى في الحديقة العامة في سلوتسك شنقُ أفراد عائلتين من رجال الأنصار. كان البرد شديداً، وتجمَّد المشنوقون لدرجة أن رنيناً راح يصدر عنهم حين تهبُّ الرياح؛ ينطلق منهم رنينٌ يُشبه رنين الأشجار المتجمِّدة في الغابة. ذاك الرنين نفسه...

عندما حُرِّرت المدينة التحق بابا بالجبهة، ذهب مع الجيش. وبدونه خيط لي أوَّل فستان في زمن الحرب. خاطته أمِّي من بورتيانكا، وهو قماش لفِّ الأقدام بدلاً من الجوارب لدى الجنود، وبما أنه أبيض، فقد صبغته ماما بالحبر، ولم يكن الحبر كافياً لصبغ أحد الأكمام. وأردت أن ترى صديقاتي فستاني الجديد، وقد وقفت عند البوَّابة وقفةً جانبيةً لكي أُظهر الكمَّ الجيِّد وأُخفي الآخر باتجاه البيت، وتراءى لي أنني أنيقةٌ وجميلةٌ جدَّاً!

كانت تجلس أمامي في المدرسة الصبية آنيا. فقدت أمَّها وأباها، وعاشت في بيت جدَّتها. هما من اللاجئين النازحين من أطراف سمولينسك. اشترت المدرسة لها فستاناً وجزمتي لبَّاد وجرموقين لامعين، و جلبت المعلِّمة هذه الأشياء كلَّها ووضعتْها على الرحلة. وجلسنا صامتين حيث لم يكن لدى أيِّ أحدٍ منا مثل هذه الملابس. لقد حسدناها، ودفع أحد التلامذة آنيا وقال: «لقد حالفك الحظُّ كثيراً!». فسقطت على الأرض وانخرطت في البكاء. وواصلت البكاء خلال فترة الدروس الأربعة كلِّها.

عاد بابا من الجبهة، وجاء الجميع للنظر إلى أبينا، وإلينا أيضاً لأن أبانا عاد من الجبهة.

وكانت تلك الصبية في طليعة القادمين لرؤيته...

أنا أمُّك...

تامارا بارخوموفيتش – 7 أعوام.

الآن – سكرتيرة، كاتبة آلة طابعة.

كنت طوال فترة الحرب أفكِّر في أمِّي، فقد فقدت أمِّي منذ الأيَّام الأولى...

نام، بينما يجري قصف مخيَّمنا للطلائع. خرجنا من الخيام، ونحن نصرخ: «ماما! ماما!». وراحت المربِّية تهزُّني من كتفي بغية أن أهدأ، بينما أنا أواصل الصراخ: «ماما! أين ماما؟». حينئذٍ طفقتْ تضمُّني إليها وتقول: «أنا أمُّك...».

علَّقتْ فوق سريري تنُّورةً وقميصاً أبيضَ وربطة عنقٍ حمراء، فارتديتها، وذهبنا إلى مينسك سيراً على الأقدام. وفي الطريق استقبل كثير من الآباء والأمَّهات أطفالهم، بينما لم تكن أمِّي بينهم. وفجأةً هتفوا: «الألمان في المدينة...». وأعادونا من حيث أتينا. وقال أحدهم لي إنه رأى أمِّي قتيلة.

هنا ينقطع حبل الذاكرة...

كيف وصلنا إلى بينزا؟ لا أذكر، كيف نُقلنا إلى ملجأ الأطفال؟ لا أذكر. صفحات بيضاء في الذاكرة... وأذكر فقط أن عددنا كان كبيراً، وكنا ننام اثنين في سريرٍ واحد. وإذا بكت واحدة بكت الثانية أيضاً: «ماما! أين أنت يا ماما؟». كنت صغيرة وأرادت إحدى المربِّيات أن تتبنَّاني. لكنني كنت أفكِّر في أمِّي...

نحن نمضي إلى صالة المطعم فيصرخ جميع الأطفال: «جاءت أمُّك!». ويتردَّد في أذني: «أم..م..ك! أم..م..ك!». وكنت أرى أمِّي في الحلم في كلِّ ليلة، أمِّي الحقيقية، وفجأة أراها في اليقظة، لكنني تصوَّرت أنني في حلم. أرى ماما! ولا أصدِّق! صاروا خلال عدَّة أيَّامٍ يقنعونني بأنها أمِّي، بينما أفكِّر: لربَّما هذا حلم؟ حلم! بينما كانت أمِّي تبكي، وأنا أصرخ: «لا تقتربي! لقد قتلوا أمي...». كنت أخاف، كنت أخاف تصديق سعادتي...

وأنا الآن أيضاً... أستغرق في البكاء في اللحظات السعيدة من حياتي. تنهمر الدموع من عيني. طوال حياتي. زوجي... إننا نعيش سوية في محبَّة ووفاقٍ خلال أعوامٍ كثيرة، وعندما طلب يدي قال: «أنا أحبُّك. لنتزوَّج». أمَّا أنا فقد قابلته بالدموع. فوجف وقال: «هل أسأت إليك؟». أجبته: «لا! لا! أنا سعيدة! لكنني لا أستطيع أبداً أن أكون سعيدة تماماً. أنا أخاف السعادة. يبدو لي دائماً أنها ستزول سريعاً. ويكمن هذا الخوف في أعماقي دوماً». إنه الخوف الطفولي...

تفضّلوا، يمكن أن تلعقوا...

فيرا تاشكينا – 10 أعوام.

الآن – عاملة.

قبيل الحرب كنت غالباً ما أبكي...

تُوفِّي أبي، وتولَّت أمِّي إعالة سبعة أطفال. عانينا من شظف العيش، صعوبات. وفيما بعد في زمن الحرب بدا كما لو أنها كانت سعيدة، تلك الحياة السلمية.

الكبار يبكون، الحرب، بينما نحن لم نفزع. وكنا غالباً ما نمارس لعبة "الحرب"، وهذه الكلمة مألوفةٌ جدّاً لدينا. وقد عجبتُ لماذا تنتحب ماما طوال الليل، وتمضي بعينين محمرَّتين. وعرفت ذلك فيما بعد فقط...

كنا نأكل الماء... عندما يحين موعد الغداء تضع ماما أمامنا قدراً فيه ماءٌ ساخن، ونقوم بصبِّه في الصحون. في المساء. قدرٌ فيه ماءٌ ساخن. الماء الساخن أبيض، وفي الشتاء لا يوجد ما يصبغ به؛ لا توجد حتى الأعشاب.

راح أخي يأكل الفحم بسبب الجوع. كان يقضم ويقضم الفحم في كلِّ يوم، وعندئذ لاحظنا وجود حفرةٍ في الموقد. وتناولتْ ماما آخر ما لدينا من حاجيَّات وذهبت إلى السوق وبادلتها بالبطاطا والذرة. طبخت عندئذ عصيدة الذرة، وقسمتها فيما بيننا، بينما أخذنا نتطلَّع إلى القدر، ونسأل: هل يمكن أن نلعق؟ وأخذنا نلعقه الواحد بعد الآخر. وبعد ذلك صارت القطَّة تلعقه أيضاً، فقد كانت تتضوَّر جوعاً كذلك. أنا لا أعرف ماذا تبقَّى لها في

القدر، فلم تبقَ هناك بعدنا قطرةٌ واحدة. حتى لم تكن هناك رائحة عصيدة، فقد لعقنا الرائحة أيضاً.

كنا طوال الوقت ننتظر قدوم جنودنا...

وعندما بدأت طائراتنا القصف لم أكن أهرب وأختبئ، بل أنطلق لمشاهدة قنابلنا. ووجدت شظية.

استقبلتْني في البيت أمّي بفزع: «أين تتجوَّلين؟ ماذا تخبِّئين؟».

* «أنا لا أخبِّئ شيئاً. لقد جلبت شظية».

- «سيقتلونك وعندئذ ستعرفين».

* «ماهذا الكلام يا ماما؟! إنها شظية من قنابلنا. فهل يمكن أن تقتلني؟».

وقد احتفظت بالشظية فترةً طويلة...

هاتِ نصف ملعقة سكَّر آخر...

إيما ليفينا – 13 عاماً

الآن – عاملة في مطبعة.

في ذلك اليوم بقي لي شهرٌ واحدٌ فقط لبلوغ عامي الرابع عشر...

– «لا! لن نذهب إلى أي مكان. ها هم يبتدعون أيضاً الحرب! سوف تنتهي حالما نبدأ في الخروج من المدينة. لن نذهب! لن نذ- ذ-ه- ب!».

هذا ما قاله أبي عضو الحزب منذ عام ألف وتسعمئة وخمسة، وقد زُجَّ به مراراً في السجون القيصرية، وشارك في ثورة أكتوبر.

لكننا اضطُررنا مع ذلك إلى السفر. سكبنا الماء بعنايةٍ في أصص الزهور على رفوف النوافذ، إذ كانت لدينا زهورٌ كثيرة، وأغلقنا النوافذ والباب. وتركنا الكوَّة الصغيرة فقط مفتوحةً من أجل أن تتمكَّن القطَّة من الخروج حين تريد ذلك. أخذنا معنا كلَّ ما هو ضروري، وأكَّد بابا للجميع بأننا سنعود بعد بضعة أيَّام. بينما كانت مينسك تحترق.

لم تذهب معنا أختي الوسطى، كانت تكبرني بثلاثة أعوام، ولم نعرف شيئاً عنها خلال فترةٍ طويلةٍ. وتألَّمنا. لكن هذا حدث في مكان النزوح، في أوكرانيا. تلقَّينا رسالةً من أختي في الجبهة، وأعقبتها أخرى وأخرى.

وفي وقت لاحق وردتْ رسالة شكرٍ من قيادة الوحدة التي كانت تخدم فيها كمرشدةٍ صحية، وقد أبرزت ماما هذه الرسالة إلى الجميع افتخاراً!

أعطانا رئيس الكولخوز بهذه المناسبة كيلوغراماً من دقيق حبوب العلف، وأطعمت ماما الجميع أرغفة لذيذة.

كنا نمارس مختلف الأعمال الريفية، بالرغم من كوننا من أهالي المدينة الأصائل؛ لكننا عملنا جيِّداً، وأتقنت أختي الكبرى التي كانت قاضيةً قبل الحرب مهنة قيادة الجرَّارات. لكن سرعان ما بدأ قصف خاركوف فواصلنا النزوح إلى مكانٍ آخر.

وفي الطريق علمنا بأننا سنُنقل إلى كازاخستان. رافقتْنا في عربة القطار عائلةٌ مؤلَّفةٌ من عشرة أشخاصٍ بينهم الابنة الحامل. وبدأ قصف القطار، وانقضَّت الطائرات فوقنا، ولم يُفلحْ أحدٌ في الخروج من العربة. وعندئذ سمعنا صراخاً؛ فقد قُطعت ساق المرأة الحامل. إن هذا المشهد الفظيع بقي في ذاكرتي حتى الآن. وبدأت المرأة بالولادة...

غادرنا ضواحي خاركوف في الصيف وبلغنا المحطَّة النهائية مع حلول الشتاء. وصلنا إلى سهوب كازاخستان، ولم نستطع خلال فترةٍ طويلةٍ اعتياد عدم قصفنا وإطلاق النار علينا. لكن كان لدينا عدوٌّ آخر هو القمل. قملاتٌ كبيرةٌ ومتوسِّطةٌ وصغيرة! سوداء! رمادية! من مختلف الأصناف. لكنها جميعاً لا تعرف الشفقة ولا تتوقَّف عن تعذيبنا نهاراً أو ليلاً! كلا، أكذب! عندما كان القطار يسير، نجد أنها تكفُّ عن اللسع كثيراً، ويكون سلوكها معتدلاً إلى حدٍّ ما. لكن حالما ندخل المسكن... يا إلهي! نراها تبدأ بفعل الأفاعيل... يا إلهي! يمتلئ ظهري ويداي بالعضَّات والقروح. وعندما أخلع القميص يصبح الوضع أكثر يسراً، لكن لا يوجد لديَّ ما أرتديه غير ذاك القميص. ومع ذلك اضطُررنا إلى حرق القميص لأنه كان مليئاً بالقمل بشكل كامل، واضطُررت إلى تغطية جسمي بجريدة، وصار ملبسي الجريدة. غسلتْنا ربَّة الدار بماءٍ ساخنٍ جدّاً، لدرجة أنني لو اغتسلت به الآن لانسلخ جلدي. أمَّا آنذاك... فكنتُ في غاية السعادة – ماء دافئ... ساخن!

كانت أمّي ربّة بيتٍ ممتازة، وطبّاخةً ممتازة. وكانت وحدها تستطيع طبخ سنجاب الأرض، وهو حيوانٌ من القوارض، لكي يُمكن أكله، علماً أن لحمه لا يصلح للأكل كثيراً. سنجاب الأرض ملقى على الطاولة... وتنبعث منه رائحةٌ كريهةٌ من مسافةٍ بعيدة، إنها رائحةٌ كريهةٌ لا مثيل لها، لكن لا يوجد لحم آخر عندنا، فنأكل هذه القوارض.

كما كانت تسكن إلى جانبنا امرأةٌ لطيفةٌ جدّاً وطيّبة. وقد رأت معاناتنا كلّها وقالت لماما: «لتساعدني ابنتك في الشؤون المنزلية، لكنني كنتُ هزيلة الجسم جدّاً. وذهبت إلى الحقل وتركتْني مع حفيدها، وأرتْني أين توجد المواد اللازمة لكي أطعمه وأطعم نفسي أيضاً. وبدا لي أنني لو أخذت شيئاً ما فسيختفي كلُّ شيءٍ فوراً، وأن هذا حلم. ولكنني خشيت حتى لمس الموجود بإصبعي وليس أكله، أملاً أن يستمرَّ هذا كلُّه في الوجود. والأفضل أن أتأمله، أتأمله لفترةٍ طويلة. وكنت أنظر إلى الطعام تارةً من هذه الجهة وتارةً من الجهة الأخرى، وخفتُ أن أُغلق عيني. وهكذا بقيت ولم أتناول شيئاً طوال اليوم. وكانت لدى هذه المرأة بقرةٌ وأغنامٌ ودجاج، وتركت لي الزبدة والبيض.

عادت المرأة في المساء وسألتْني: «هل أكلت؟ إذاً اذهبي إلى البيت. وخذي هذا إلى ماما»، وأعطتْني رغيفاً، «وغداً تعالي أيضاً».

جئت إلى البيت، فتبعتْني المرأة فوراً. ففزعتُ: «هل فُقد شيءٌ ما؟». بينما راحت تقبّلني وتنتحب: «ما لكِ يا حمقاء لم تأكلي شيئاً؟ لماذا أبقيت كل شيء في مكانه؟».

وصارت تُمسّد وتُمسّد رأسي.

الشتاء قاسٍ في كازاخستان، ولا يوجد حطبٌ للتدفئة في الموقد. أنقذتْنا جلّة روث البقر. كنا نستيقظ في وقتٍ مبكّرٍ صباحاً وننتظر حين تخرج الأبقار من الباحة، ونضع الدلو خلفها. ونعدو من بقرةٍ إلى أخرى.

ولم أكن الوحيدة، فالجميع هناك من النازحين. وعندما يمتلئ الدلو، أسكب ما فيه بالقرب من البيت، ثمَّ أعود بسرعة إلى البقر. وبعد ذلك يُخلط كلُّ ذلك مع التبن، ويُجفَّف، فنحصل على أقراص سوداء، جلات، وكنا نستخدمها في التدفئة.

مات أبي. في أغلب الظنِّ كان قلبه يطفح بشعورٍ من الحزن والشفقة علينا. كان يعاني من مرض القلب منذ وقتٍ بعيد.

أُلحقت بالمدرسة المهنية، ومُنحت بزَّة عمل؛ معطفاً وحذاءً وبطاقة تموين لاستلام الخبز. كنت سابقاً بتسريحة شعرٍ قصيرة، وعندئذ طال شعري، وجدلته في ضفيرة. سلَّموني بطاقة العضوية في الكومسومول، والتُقطت صورتي لنشرها في الصحيفة. حملتُ البطاقة بيدي، ولم أضعها في جيبي. إنها شيءٌ ثمين... كنت أخشى أن أضعها في جيبي لكي لا تضيع. وأحسست بتردُّد نبضات قلبي: توك-توك-توك، حبَّذا لو رآني أبي الآن، لزخرت نفسه بالسعادة...

الآن أفكِّر: «كان ذلك الزمن رهيباً، لكنَّ الناس كانوا رائعين». وأُعجب لحالنا أيامذاك. كيف كنا نصدِّق كلَّ شيء! أنا لا أريد أن أنسى هذا... إنني لم أعد أصدِّق ستالين والأفكار الشيوعية منذ وقتٍ بعيد، وأودُّ نسيان هذه الحقبة من حياتي، لكنني أحتفظ في قلبي بتلك المعاناة، وبذلك السموِّ الروحي. إنني لا أريد نسيان مشاعري الثمينة...

في ذلك المساء أعدَّتْ ماما لنا شاياً حقيقياً، ثقيلاً. ولمَ لا؟ فاليوم عيد! وأعطتْني - أنا صاحبة العيد - نصف ملعقة سُكَّر... زيادة...

يا بيت، لا تحترق! يا بيت، لا تحترق!

نينا راتشيتسكايا – 7 أعوام.

الآن – عاملة.

أحياناً تتألَّق الذاكرة بشدَّة... كلُّ شيءٍ يُعاود الكَرَّة...

جاء الألمان بدرَّاجات نارية، ويحمل كلُّ واحدٍ منهم دلواً، ويُقرقع بهذا الدلو. نحن اختبأنا... كان لدي أخوان صغيران – الأول يبلغ أربعة أعوام، والثاني عامين. وقد اختبأت معهما تحت السرير وبقينا هناك طوال اليوم.

دُهشتُ كثيراً حين رأيت الضابط الفاشي الذي سكن في بيتنا يضع النظَّارات، بينما كنت أعتقد أن المعلِّمين فقط يضعون النظَّارات. وكان الضابط يسكن مع الجنديِّ الذي يرافقه في قسم من البيت، بينما نسكن نحن في القسم الآخر. وأُصيب أصغر أخوتي بالبرد وراح يسعل بشدَّة، وارتفعت درجة حرارته كثيراً، وطفق يحترق من السخونة، ويبكي في الليالي. وفي الصباح جاء الضابط إلينا وقال لماما إذا ما استمر ألكيندر في البكاء، فإنه سيطلق عليه النار: «بوف– بوف»، وأشار إلى مسدسه. وأخذتْ أمِّي تلفُّ أخي باللحاف حالما يبدأ بالبكاء ليلاً، وتخرج إلى الشارع وتهزُّه هناك، حتى يغفو أو يهدأ. بوف– بوف...

لقد سلبونا كلَّ ما عندنا، وبدأ نعاني من الجوع. ولم يُسمح لنا بدخول المطبخ؛ فكانوا يطبخون لأنفسهم فقط هناك. وكان أخي الصغير حالما

يشمُّ رائحة الطعام يزحف على الأربع نحو مصدر الرائحة. كانوا يطبخون في كلِّ يومٍ حساء البازلّاء، وتبلغ أنوفَنا بقوَّةٍ رائحةُ هذا الحساء. وبعد خمس دقائق أطلق أخي الصغير عقيرته بالبكاء، بزعيق شديدٍ؛ فقد صبُّوا الماء الفائر عليه في المطبخ حين طلب أن يُعطى ما يؤكل. كان جائعا جدّاً، وطلب من ماما قائلاً: «دعينا نطهوا بطَّتنا الصغيرة». علماً أن هذه البطَّة الصغيرة كانت لعبته المفضلة، ولم يسمح لأحدٍ سابقاً بأن يمسكها بيده. وينام معها.

أحاديث طفولتنا...

كنا نجلس ونتجادل: إذا ما اصطدنا فأراً، وكان عددها في زمن الحرب كثيراً في البيت وفي الحقل، فهل يمكن أكله؟ وهل تؤكل طيور الزمير؟ وهل يؤكل طير العقعق؟ لماذا لا تطبخ ماما حساء الخنافس الدسمة؟

لم نكن ندع البطاطا تنمو، وكنا نمد أيدينا في التربة ونتحسَّسها: هل أصبحت كبيرة أم ما زالت صغيرة؟ ولماذا تنمو الذرة وعبَّاد الشمس بهذا البطء؟

في اليوم الأخير، وقُبيل الانسحاب، أضرم الألمان النار في بيتنا. وقفتْ ماما تنظر إلى النار، بينما لم تذرف دمعةً واحدة. بينما كنا نحن الثلاثة نهرول ونصرخ: «البيت يحترق! البيت يحترق!». ولم نُفلح في إخراج أيِّ شيء من البيت، وأخذت فقط كتاب تعليم الأبجدية. كنت طوال الحرب أنقذه، وأحافظ عليه، وأنام معه، ويوجد دوماً تحت وسادتي. لقد كانت لديَّ رغبةٌ شديدةٌ في التعلُّم. وفيما بعد، حين التحقنا بالمدرسة في عام 1944، كان كتابي هذا الوحيد لتعليم ثلاثين تلميذاً... جميع تلامذة الصف.

بقيت في ذاكرتي أوَّل حفلةٍ موسيقيةٍ غنائيةٍ في مدرستنا بعد الحرب، وكيف واصلنا الغناء والرقص. صفَّقتُ حتى أوجعت يديَّ... واصلت

التصفيق والتصفيق. وطفح قلبي بشعور من المرح، لحين صعود أحد التلامذة خشبة المسرح وتلاوته الشعر. ألقى الشعر بصوتٍ عالٍ، وكانت القصيدة طويلة، لكنني سمعت كلمة واحدة: «الحرب». تطلّعتُ خلفي فوجدتُ الجميع جالسين بهدوء، بينما غمرني الخوف - فالحرب قد انتهت لتوِّها، لماذا يدور الحديث عن الحرب مرَّةً أخرى؟ أنا لم أستطع سماع هذه الكلمة، فقمتُ وعدوتُ إلى البيت، ووجدتُ في البيت أمِّي منهمكةً بإعداد الطعام في المطبخ: إذاً لا توجد أيُّ حرب هناك. وعندئذٍ رجعت إلى المدرسة، إلى الحفل، وطفقت أُصفِّق مجدَّداً.

لم يرجعْ بابا من الحرب، واستلمتْ ماما ورقةً تُفيد بأنه فُقد. إنها تذهب إلى العمل، ونتجمَّع نحن الثلاثة ونبكي لغياب أبينا. قلبنا البيت رأساً على عقب، وبحثنا عن الورقة. واعتقدنا: لا يَرِدُ فيها أن بابا قتيل، بل أنه مفقود. لنمزِّقْ هذه الورقة، سيأتي خبرٌ حول مكان وجود أبينا. لكننا لم نجد الورقة. وعندما عادت ماما من العمل لم تستطعْ أن تفهم سبب هذه الفوضى في البيت. وسألتْني: «ماذا فعلتم هنا؟». وأجاب أخي الأصغر بدلاً عني: «كنا نبحث عن بابا...».

كنت قبل الحرب أحب أن يروي لنا بابا حكاية، وكان يعرف كثيراً من الحكايات ويجيد روايتها. وبعد الحرب لم تعد لديَّ رغبةٌ في قراءة الحكايات...

جاءت مرتديةً صداراً أبيض مثل أمّي...

ساشا سويتين – 4 أعوام.

الآن – عامل برّاد.

أتذكّر ماما فقط...

اللوحة الأولى...

ماما ترتدي صداراً أبيض دائماً... بابا ضابط، وماما تعمل في المستشفى العسكري. هذا ما حدَّثني به أخي الأكبر فيما بعد. إنني لا أتذكَّر حتى وجهها، بل الصدار الأبيض فحسب، وكذلك القبَّعة البيضاء. إنها تنتصب دوماً فوق الطاولة الصغيرة، تنتصب بالذات، لأنها منشّاة.

اللوحة الثانية...

لم تعد ماما... لقد اعتدتُ غياب بابا فترةً طويلة، أمَّا ماما فكانت تعود إلى البيت دائماً. جلست مع أخي في الشقَّة عدَّة أيَّام، ولم نخرجْ: فلربَّما ستأتي ماما فجأة... طرق الباب أناسٌ غرباء، ألبسونا ملابسنا، ونقلونا إلى مكانٍ ما. فبكيت: «ماما! أين ماما؟».

وطمأنني أخي وهو أكبر مني بثلاثة أعوام: «لا تبكِ، فستجدنا ماما».

وجدنا أنفسنا في مبنى ما طويل، يشبه العنبر وفيه مصاطبُ خشبية. شعرت بالجوع طوال الوقت، وطفقت أمصُّ الأزرار في القميص؛ إنها تشبه القند الذي كان بابا يجلبه لدى عودته من رحلات العمل. أنا أنتظر ماما.

اللوحة الثالثة...

يحملنا رجلٌ ما أنا وأخي، ويدسُّنا في الركن، ويغطِّينا باللحاف، وفوقه خرقٌ ما. أبدأ بالبكاء، ويمسِّد الرجل رأسي، فأركن إلى الهدوء.

وهكذا تكرَّر ذلك يومياً. وحدث مرَّةً أن سئمت من الرقاد طويلاً تحت اللحاف، وصرت أنتحب بنشيج ومن ثمَّ بصوتٍ عال. وراح أحدٌ ما يرفع الخرق عني وعن أخي ويعدل اللحاف. وفتحت عيني – كانت تقف بالقرب منا امرأةٌ بصدار أبيض... زحفت نحوها صائحاً:

– «ماما!».

لقد مسَّدتْني أيضاً. في البداية مسَّدتْ رأسي... ثمَّ يدي... وبعد ذلك أخذت شيئاً من علبة معدنية، لكنني لم ألقِ بالاً إلى هذا كلِّه، وأرى فقط الصدار الأبيض والقبَّعة البيضاء.

وفجأة شعرتُ بوخزةٍ حادَّةٍ في ذراعي؛ ثمَّة إبرةٌ تحت جلدي. وقبل أن أُفلح في الصراخ، فقدت الوعي. عندما ثُبتُ إلى رشدي رأيتُ الرجل الذي أخفانا جالساً بالقرب مني، بينما يرقد أخي إلى جانبه.

وكرَّر الرجل: «لا تخفْ. إنه ليس ميتاً بل نائماً».

* «إنها ليست ماما؟».

– «كلا...».

بينما طفقت أكرِّر وأكرِّر: «لقد كانت بصدار أبيض مثل ماما...».

ومدَّ الرجل كرةً من القماش وقال: «سأصنع لك لعبة».

أخذتُ اللعبة وتوقَّفتُ عن البكاء.

بعد ذلك لا أذكر أيَّ شيء: كيف ومن أنقذنا من معسكر الاعتقال الألماني؟ كان يُؤخذ هناك دم الأطفال من أجل الجنود الجرحى الألمان، وكان جميع الأطفال يموتون هناك. كيف أصبحنا أنا وأخي في ملجأ

الأطفال؟ وكيف تلقَّيتُ في نهاية الحرب تبليغاً بأن والديَّ قد استُشهدا في الجبهة؟ لقد حدث شيءٌ ما لذاكرتي. أنا لا أتذكَّر الوجوه، ولا أتذكَّر الكلمات...

انتهت الحرب. والتحقتُ بالصفِّ الأوَّل في المدرسة. الآخرون يتلون القصيدة مرَّتين أو ثلاث مرَّاتٍ فتبقى في ذاكرتهم، أمَّا أنا فأتلوها عشرات المرَّات لكنها لا تبقى في ذاكرتي. لكن لسببٍ ما لم يكن المعلِّمون يعطونني درجة رسوب؛ كانوا يعطونها للآخرين، ولكن ليس لي.

هذه هي قصَّتي...

يا عمّتي خذيني في أحضانك...

مارينا كاريانوفا – 4 أعوام.

الآن – تعمل في مجال السينما.

أنا لا أحبُّ استعادة الذكريات... لا أحبُّ ذلك... لا أحبُّه.

لو سألت الجميع: ما هي الطفولة؟ سيروي كلُّ واحدٍ ما يخصُّه. أما أنا فالطفولة بالنسبة إليَّ هي ماما والحلوى. وطوال فترة طفولتي كنت أريد ماما وبابا والحلوى، وخلال فترة الحرب كلِّها لم أعرف مذاقها، بل حتى لم أرها. أكلت أوَّل حلوى بعد عدَّة أعوامٍ من الحرب... بعد ثلاثة أعوام. كنتُ قد أصبحت صبيَّةً كبيرة؛ في العاشرة من العمر.

لم أفهم أبداً كيف يرغب أحدٌ ما في قطعة شوكولاتة. كيف هذا؟ مستحيل!

لكنني لم أجدْ ماما وبابا. ولا أعرف حتى لقبي الحقيقي. فقد أخذوني في محطَّة القطار الشمالية بموسكو.

سألني في ملجأ الأطفال: «اسمك؟».

* «مارينوتشكا».

– «لقبك؟».

* «لا أعرف...».

فكتبوا مارينا سيفيرنايا.

تملَّكتْني رغبة شديدةٌ في الأكل طوال الوقت، كما رغبت أكثر في

أن يحتضنني ويلاطفني أحدٌ ما. لكن الملاطفات كانت قليلة، فالحرب في كلِّ مكان، والمصيبة عمَّت الجميع. أنا أمشي في الشارع، أمامي أمٌّ تقود أطفالها، وتحمل أحدهم بيديها وتمضي به، ثمَّ تضعه وتحمل الآخر. ثمَّ جلسوا على مصطبة، فأجلستْ أصغرهم في أحضانها. وأنا وقفت، ووقفت. وتطلَّعت ثمَّ تطلَّعت. واقتربت منها وقلت: «يا عمَّتي خذيني في أحضانكِ». فدُهشت لذلك.

ورجوتُها مرَّةً أخرى: «عمَّتي، من فضلكِ...».

أخذت تهدهده كاللعبة

ديما سوفرانكوف- 5 أعوام.

الآن – مهندس ميكانيكي.

قبل هذا كنت أخاف الفئران فقط. وإذ بي أقابل عدداً كبيراً من المخاوف! آلاف المخاوف... لم تصدم إدراكي الطفولي كلمة "الحرب" قدر ما صدمته كلمة "الطائرات". "الطائرات قادمة" – فتأخذنا أمُّنا من الموقد. ونحن نخاف الخروج من الموقد، وعندما تُخرج أحدنا، يبدأ الآخر في الدخول. نحن نخاف الخروج من الموقد، ونخاف الخروج من البيت، وعندما تُخرج أحدنا، يعود الآخر داخله. وعددنا خمسة، وتُضاف إلينا قطَّتنا المفضلة.

تُطلق الطائرات النار...

تربط ماما الأخوة الأصغر سنّاً إلى جسدها بالمنشفة المطرَّزة، أمَّا نحن الأكبر سنّاً فكنا نجري بأنفسنا. عندما يكون المرء صغيراً فإنه يعيش في عالمٍ آخر، ولا ينظر من علو، بل يحيا قريباً من الأرض. والطائرات هناك أكثر هولاً، والقنابل هناك أكثر رعباً. وأذكر أنني حسدت الخنافس لأنها صغيرةٌ جدّاً وتستطيع اللجوء إلى أيِّ مكان، وتندسُّ في الأرض... وكنت أتصوَّر أنني حين أموت أتحوَّل إلى وحشٍ ما، وأهرب إلى الغابة.

الطائرات تُطلق النار علينا...

كانت ابنة عمِّي، وعمرها آنذاك عشرة أعوام، تحمل أخانا البالغ من

العمر ثلاثة أعوام. وهرولت وهرولت، وخانتْها قواها، فسقطت. وبقيا راقدين فوق الثلج طوال الليل، فتجمَّد، بينما بقيتْ هي على قيد الحياة. وعندما بدأوا بحفر القبر لدفنه كانت تمنعهم: «ميشنكا، لا تمتْ! لماذا تموت؟».

هربنا من الألمان وعشنا في المستنقعات، فوق الجزر. بنينا الأكواخ وعشنا فيها. إنها أكواخ من جذوع الأشجار العارية وفي الأعلى ثقب، من أجل خروج الدخان. وفي الأسفل الأرض... الماء. عشنا هناك في الشتاء وفي الصيف. ونمنا فوق أغصان أشجار الشوح. أتيت مع أمِّي مرَّةً من الغابة إلى القرية لكي نأخذ من بيتنا بعض الحاجيَّات، وهناك الألمان. لقد اقتادوا كلَّ من جاء إلى مبنى المدرسة، وأجبرونا على الركوع فوق ركبنا، ووجَّهوا إلينا فوَّهات المدافع الرشَّاشة. علماً أن طول قامتنا نحن الأطفال بارتفاع المدافع الرشَّاشة.

وسمعنا من يطلق النار في الغابة. فصاح الألمان: «الأنصار! الأنصار!»، وهُرعوا لركوب السيَّارات وانصرفوا بسرعة. بينما هربنا نحن إلى الغابة.

بعد الحرب صرت أخاف الحديد. ثمَّة شظيةٌ حديدية، وأنا في رعب، وأخشى أن تنفجر مرَّةً أخرى. طفلة الجيران، وعمرها ثلاثة أعوام وشهران، وبقيت في ذاكرتي، كانت أمُّها تبكي فوق النعش وتردِّد: «ثلاثة أعوام وشهران... ثلاثة أعوام وشهران...». لقد وجدت الطفلةُ قنبلةً يدوية، وصارت تُهدهدها كلعبة، ولفَّتْها بالخرق... القنبلة اليدوية صغيرةٌ كلعبةٍ، لكنها ثقيلة، ولم تتمكَّن الأم من أخذها منها...

بعد عامين من انتهاء الحرب واصلوا دفن الأطفال في قريتنا "ستاريه غولوفتشيتسي". والقطع الحربية ملقاةٌ في كلِّ مكان، والدبَّابات السوداء المحترقة، والمصفَّحات المدمَّرة، وشظايا الألغام والقنابل... ولم يكن

لدينا ما نلعب به. وفيما بعد بدأ جمعها ونقلها إلى المصانع، وأوضحتْ أمّي قائلةً إنهم سيصنعون جرَّاراتٍ من قطع الحديد هذه، وكذلك ماكينات خراطة وماكينات خياطة. وكنت حين أرى جرَّاراً جديداً لا أقترب منه، وأنتظر حتى ينفجر، ويصبح أسودَ كالدبَّابة...

كنت أعرف من أيِّ حديدٍ صُنع...

لقد اشتروا لي كتاب تعليم الأبجدية...

ليليا ميلنيكوفا – 7 أعوام.
الآن – معلِّمة.

كان من المقرَّر أن ألتحق بالصفِّ الأوَّل في المدرسة...

وقد اشتروا لي كتاب تعليم الأبجدية والحقيبة. أنا أكبر الأطفال في العائلة؛ فأختي رايا كانت في الخامسة من العمر، وأخي توموتشكا في الثالثة من العمر. كنا نعيش في روسوني، وأبونا يعمل في هيئة زراعة وصيانة الغابات، لكنه تُوفِّي قبل عامٍ من اندلاع الحرب، وعشنا مع أمِّي. في ذلك اليوم حين زحفت الحرب إلينا، كنا ثلاثتنا في روضة الأطفال، وأصغرنا أيضاً. وأخذ الأهالي جميع الأطفال وبقينا نحن الثلاثة. لم يأتِ أحدٌ لأخذنا، وأُصبنا بالرعب. وجاءت ماما أخيراً مسرعة. كانت تعمل في هيئة زراعة وصيانة الغابات، فانهمك العاملون في إحراق بعض الأوراق أو دفنها، ولهذا تأخَّرتْ في المجيء.

قالت ماما إننا سنغادر المكان، وأُعطيت لنا عربة. كان يجب علينا أن نأخذ معنا كلَّ ما هو ضروريٌّ جدّاً، وأذكر أنه وُضعت في الممرِّ سلَّةٌ ووضعنا هذه السلَّة في العربة وأخذت أختي دميتها... كانت الدمية كبيرة، وصارت أختي تبكي وتصيح: «لن أتركها!». انطلقنا من روسوني فانقلبت عربتنا، وفُتحت السلَّة، وتناثرت منها الأحذية، وتبيَّن أننا لم نأخذْ أيَّ شيءٍ معنا؛ لا الطعام ولا الملابس البديلة. فقد ارتبكتْ ماما وأخطأتْ في أخذ

السلَّة المطلوبة، وبدلاً منها أخذتُ تلك التي احتوت على الأحذية الواجب إصلاحها.

وما كدنا نجمع هذه الأحذية حتى انقضَّتْ علينا الطائرات وألقتْ علينا القنابل، وأطلقت نيران المدافع الرشَّاشة. أصاب الرصاص دميتنا ومزَّقها، أمَّا أختي فلم تُصبْ بأيِّ خدش، لكنها بكتْ وقالت: «مع ذلك لن أتركها».

رجعنا وأخذنا نعيش تحت رحمة الألمان، وأخذتْ ماما تبيع حاجيَّات أبي، وأذكر أنها في أوَّل مرَّةٍ استبدلت بذلته بالبازلاء. وأكلنا حساء البازلاء طيلة شهرٍ كاملٍ. انتهى الحساء. وكان لدينا لحافٌ قطنيٌّ كبير، فصنعتْ ماما منه معاطفَ للراغبين فيها، ودفع الزبائن لها كلٌّ حسب قدرته. وفي أيَّام العسر كانت لدينا بيضةٌ واحدةٌ للجميع... وغالباً ما لا نجد ما نأكله، فتعمد ماما إلى احتضاننا وملاطفتنا بتمسيدنا.

لم تقلْ ماما إنها تساعد رجال الأنصار، وكانت غالباً ما تخرج وتذهب إلى مكانٍ ما من دون أن تفصح إلى أين. وعندما كانت تذهب لمبادلة الحاجيَّات كنا نعرف، أمَّا في تلك الحالات فكانت تخرج - وبلا سؤالٍ وجواب. كنت أفتخر بماما وأقول لأختي: «عمَّا قريب سيأتي رجالنا. سيأتي العُم فانيا، شقيق أبي». كان يقاتل في صفوف الأنصار.

في ذلك اليوم صبَّتْ ماما الحليب في قنِّينة، وقبَّلتْنا، ثمَّ أغلقت الباب بالمفتاح. بينما اندسسنا تحت الطاولة ذات الغطاء الكبير، وثمَّة دفءٌ تحتها، وصرنا نمارس لعبة "البنات - الأمَّهات". وفجأةً سمعنا قرقعة الدرَّاجات النارية، ثمَّ طرقاً عنيفاً على الباب، وذكر رجلٌ بلكنةٍ معوجةٍ لقب ماما، وذكره بلفظٍ غير صحيحٍ. أحسستُ بأن مصيبةً ما داهمتنا... كانت لدينا سلالمُ من جهة البقة فتسلَّلنا منها دون أن يلاحظنا أحد، بسرعة. فأمسكت بيد إحدى الأختين، وأجلست الثانية على عنقي، وخرجنا إلى الشارع.

تحشَّد هناك جمعٌ غفيرٌ من الناس والأطفال. ولم يعرفنا ولم يجدنا من جاء لاعتقال ماما... ورأيت أمِّي قادمةً في الطريق، صغيرة الحجم وهزيلة الجسد. ورآها الألمان، فهربت إلى أعلى الدرب، فأمسكوا بها وانهالوا عليها بالضرب. بينما هرولنا ونحن ثلاثتنا نصرخ بكلِّ قوانا: «ماما! ماما!». لكنهم أجلسوها في مقعد الدرَّاجة النارية، ولم تحظَ بوقتٍ كافٍ إلا لمخاطبة جارتنا: «فينيا، عزيزتي، تولَّي رعاية أطفالي». أبعدنا الجيران عن الطريق، وكان كلُّ واحدٍ منهم يخشى أن يأتي الألمان لأخذنا فجأة. أمَّا نحن فقد جلسنا في حفرةٍ وواصلنا البكاء. لم نجرؤ على الذهاب إلى البيت، فقد قيل إنه قد أُلقي القبض في القرية المجاورة على الأبوين، وجرى حرق الأطفال بإغلاق الباب عليهم في البيت وإضرام النار فيه. كنا نخاف الدخول إلى البيت... وبقينا في هذا الحال ثلاثة أيَّام تقريباً. وكنا نجلس في حظيرة الدجاج تارة، وتارةً أخرى نذهب إلى الحديقة الملحقة بالبيت. كنا جوعى، ونريد أن نأكل، لكننا لم نمسَّ شيئاً في الحديقة، لأن ماما كانت تعنِّفنا إذا ما قطفنا الجزر قبل الأوان، وجمعنا البازلَّاء، فلا نأخذ شيئاً ونقول لأحدنا الآخر إن ماما تتألَّم لأننا سندمِّر كلَّ شيء في الحديقة. طبعاً هي لا تعتقد ذلك. إنها لا تعلم بأننا لا نمسُّ أيّاً من المزروعات. وكان الكبار يرسلون إلينا مع الأطفال اللفت السويديَّ المغليَّ، أو البطاطا، أو الشمندر...

فيما بعد آوتْنا في بيتها العمَّةُ أرينا، وقد بقي معها صبيٌّ واحد، إذ فقدت اثنين من أبنائها لدى نزوحها مع اللاجئين. وكنا نتذكَّر ماما دوماً، وأخذتْنا العمَّة أرينا إلى مدير السجن وطلبت منه إذناً لمقابلتها. وقال مدير السجن إنه لا يجوز التحدُّث مع ماما، والشيء الوحيد الذي يسمح به هو أن نمرَّ بمحاذاة نافذتها.

مشينا بمحاذاة النافذة، ورأيت ماما وحدي، أمَّا شقيقتاي فلم تستطيعا

ذلك. كان وجه ماما أحمر، وأدركت أنهم ضربوها بقسوة. كما أنها رأتنا وصاحت فقط: «أطفالي! يا بناتي!». ولم تظهر في النافذة بعد هذا أكثر. وقيل لنا فيما بعد إنها رأتنا وفقدت الوعي...

بعد عدَّة أيَّامٍ علمنا بأن ماما قد أُعدمت رمياً بالرصاص، وأدركتُ وأختي رايا أننا لن نرى أمَّنا بعد هذا، أمَّا الصغيرة توموتشكا فقالت إنها ستقول لماما كلَّ شيءٍ عندما سترجع إذا ما أسأنا إليها ولم نحملها لدى السير. وعندما كان يُجلب إلينا الطعام صرتُ أُعطيها أفضل قطعة. هكذا كانت تفعل ماما كما أذكر.

في اليوم التالي لإعدام ماما جاءت سيَّارةٌ إلى بيتنا، وصار رجال الشرطة يجمعون الحاجيَّات فيه. وقال لنا الجيران: «اذهبوا واطلبوا أحذيتكم الشتوية ومعاطفكم الدافئة. سيحلُّ الشتاء قريباً بينما ملابسكم صيفية». كنا نقف ثلاثتنا وتوموتشكا تجلس على كتفي وقلت: «يا عم، أعطِها حذاء اللبَّاد». وكان رجل الشرطة في تلك اللحظة يحملها. وقبل أن أكمل جملتي ضربني بقدمه فسقطت أختي الصغيرة واصطدم رأسها بحجر... وفي اليوم التالي انبجس في ذلك الموضع ورمٌ أخذ يكبر، وكان لدى العمَّة إرينا منديلٌ سميكٌ لفَّتْ به رأس أختي الصغيرة. ولكن الورم بقي مع ذلك. احتضنت أختي في الليل وصار رأسها يكبر ويكبر، وتولَّد لديَّ الخوف من أنها ستموت.

علم رجال الأنصار بذلك فأخذونا إلى مواقعهم. وفي فصيلة الأنصار عملوا على تهدئتنا قدر المستطاع، وأحبُّونا، حتى إننا قد نسينا لبعض الوقت غياب أمِّنا وأبينا. وعندما تمزَّق قميص أحدهم، قُصَّتْ الأكمام ولُفَّتْ ورُسم فوقها عينان وأنف، وأهدونا الدمى. وعلَّمونا القراءة، وحتى نظموا الشعر عني، وكيف أنني لا أحبُّ الاغتسال بالماء البارد. وظروف الحياة في الغابة، ما هي؟ كنا نغتسل في الشتاء بواسطة الثلج...

ليليا جالسة في الحمَّام
ليليا تصرخ بسقم
أوي، يا للمصيبة! يا للمصيبة! يا للمصيبة!
الماء شديد البرودة

وعندما أصبح الوضع خطراً أعادونا إلى العمَّة أرينا. وسأل القائد، كان قائد الفصيلة بيوتر ميرونوفيتش ماشيروف شخصية أسطورية: «ماذا تحتجن؟ ما هي رغباتكنَّ؟». وكانت رغباتنا كثيرةً جدًّا، وفي المقدَّمة كنا نحتاج إلى قمصانٍ عسكرية. فخيطتْ فساتينُ لنا من القماش الذي تُصنع منه القمصان العسكرية نفسه. إنها فساتينُ ضاربةٌ إلى الخضرة فيها جيوبٌ بارزة. وصُنعت أحذية لبَّاد لثلاثتنا، وكذلك المعاطف لثلاثتنا، وصُنعت القفازات. وأذكر أنهم أتوا بنا إلى العمَّة أرينا في عربةٍ سويةً مع أكياسٍ فيها الدقيق والحبوب... وحتى قطع جلدية من أجل أن تصنع لنا أحذية.

وعندما أتى الألمان إلى العمَّة أرينا للتحرِّي في بيتها كانت تقول إننا من أبنائها. وكانوا يلحُّون عليها بالأسئلة عن السبب في كوننا من الشقر بينما ابنها أسود الشعر. كانوا يعرفون شيئاً ما... فنقلونا في سيَّارةٍ مع العمَّة إلى معسكر الاعتقال في إيغريتسك. كان ذلك في الشتاء ونمنا جميعاً على الأرض فوق ألواحٍ يُغطِّيها التبن فقط. ورقدنا للنوم كالآتي: أنا ثمَّ الصغيرة توما، وإلى جانبها رايا، ثمَّ العمَّة أرينا وصبيُّها. أمَّا أنا فرقدت في الطرف الأبعد، وكان الأشخاص غالباً ما يتغيَّرون في جانبي. وأمسُّ اليد الباردة فأدرك أن الشخص الراقد إلى جانبي ميت. وفي الصباح نظرت إليه فبدا لي وكأنه حي، لكنه بارد. وفي إحدى المرَّات ارتعبت... لقد شاهدت كيف قضمت الجرذان شفتي ووجنتي الميت. كانت الفئران مكتنزةً ووقحة... لقد التأم الورم في رأس أختي الصغيرة حين كنا في فصيلة الأنصار، لكنه ظهر مجدَّداً في معسكر الاعتقال. وقد عمدت العمَّة أرينا باستمرارٍ إلى

إخفاء هذا الورم، لأنها تعلم أن الألمان حين يرون أن الطفلة مريضةٌ يُطلقون عليها النار. ولفَّتْ رأس أختي بمناديلَ سميكة. سمعت في الليل كيف كانت تُصلِّي: «يا إلهي، لئن أخذت أمهنَّ إلى جوارك فاحفظْ الأطفال». وأنا تلوت الصلوات أيضاً... ورجوت أن تبقى الصغيرة تومونشكا على الأقل، إنها صغيرة جدّاً، ولا يجوز أن تموت.

نقلونا من معسكر الاعتقال إلى مكانٍ ما... في عربات القطار المخصَّصة للماشية، وتوجد في الأرضية بقايا روث البقر الجاف. وأذكر أننا وصلنا إلى لاتفيا فقط، وهناك جرى توزيعنا على الأهالي المحلِّيين. وأُخذت تومونشكا أوَّلاً، وحملتها العمَّة إرينا إلى لاتفي مسنّ، وجثتْ على ركبتيها أمامه: «أنقذْها فحسب. أنقذْها فحسب». فقال: «إذا أخذتها إلى البيت فستحيا. بينما يجب عليَّ السير مسافة كيلومترين، عبر النهر، ومن ثمَّ عبر المقبرة...». وتوزَّعنا جميعاً على مختلف الأشخاص، وأُخذت العمَّة أرينا أيضاً بعيداً عناً...

وسمعنا... قالوا لنا: النصر. وجئت إلى الناس الذين كانت رايا عندهم وقلت:

- «فقدنا ماما... لنذهبْ ونأخذْ توما. ويجب البحث عن العمَّة إرينا».

هكذا دار الحديث بيننا وتوجَّهنا للبحث عن العمَّة إرينا؛ ووجدناها بمعجزة! وجدناها بفضل مهارتها في الخياطة؛ فقد ولجنا أحد البيوت لشرب الماء، وسألونا: «إلى أين أنتن ذاهبات؟». فأجبنا إننا نذهب للبحث عن العمَّة إرينا. فقالت ابنة صاحبة البيت فورا: «تعالين... سأريكنَّ أين تعيش العمَّة». وفغرت العمَّة إرينا فاهها عجباً لدى رؤيتنا. كانت هزيلة القوام كاللوح. كان ذلك في شهر حزيران/ يونيو، وهو من أصعب الأوقات؛ فقد جرى استهلاك المحصول السابق، بينما لم ينضج

بعد المحصول الجديد. وكنا نأكل السنابل التي ما زالت خضراء ونلتهم الحبوب دون مضغها، إذ كنا في أشدِّ الحاجة إلى الأكل.

كانت مدينة كراسلاف قريبةً من المكان الذي نقطن فيه. وقالت العمَّة إرينا إن من الواجب الذهاب إلى هذه المدينة حيث يوجد ملجأ للأطفال. علماً أن مرضها قد استفحل، فرجت آخرين أخذنا إلى هناك. ووصلنا إلى المدينة عند الفجر، وكانت البوَّابة ما زالت مغلقة، فأجلسونا عند نوافذ الملجأ وانصرفوا. وطلعت الشمس في الصباح... وخرج من الملجأ الأطفال وجميعهم بأحذية حمراء وسراويل تحتية قصيرة وبلا فانيلات وبأيديهم المناشف. انطلقوا نحو النهر ضاحكين. أمَّا نحن فقد نظرنا إليهم، ولم نصدِّقْ أن تكون الحياة بهذه الصورة... انتبه الأطفال إلى وجودنا، بينما جلسنا نحن بملابسَ ممزَّقةٍ وقذرة، وصاحوا: «جاء أطفال جدد!». استُدعيت المربِّيات. لم يطلب أحدٌ منا أية وثائق، وأعطونا على الفور الخبز والمعلَّبات، لكننا لم نأكل، كنا خائفين من أن تنتهي هذه السعادة الآن... إنها سعادة مستحيلة. فطمأنوننا: «يا بنات، اجلسن إلى حين، ونحن سنذهب لتسخين الماء في الحمَّام، وبعد الاغتسال سنريكنَّ أين مكان السكن».

في المساء جاءت المديرة ونظرتْ إلينا، ثمَّ قالت إن الملجأ ممتلئٌ بساكنيه ويجب أخذنا إلى ملجأ استقبال الأطفال في مينسك، وهناك سنُنسب إلى ملجأ ما للأطفال. وحالما سمعنا بأنه يجب علينا الذهاب إلى مكانٍ آخر أخذنا نبكي ونرجو إبقاءنا هناك. وقالت المديرة راجية: «يا أطفال، لا حاجة إلى البكاء. أنا لا أستطيع رؤية دموعكنَّ أكثر». واتَّصلت المديرة بالهاتف مع جهةٍ ما فأبقونا في ذلك الملجأ. إنه ملجأ رائعٌ ومدهش، وفيه مربِّياتٌ أعتقد أنه لا يوجد مثيلٌ لهنَّ الآن. أية قلوب! كيف بقيتْ لديهنَّ مشاعر بهذا الحنان بعد الحرب؟

لقد أحبَّتنا وعلَّمتْنا المربِّيات كيف يجب أن نعامل أحدنا الآخر، وحدَّثننا بأنه إذا ما أردت أن تقدِّم الحلوى إلى طفلٍ آخر فيجب ألا تخرج قطعةً منها من الكيس، بل أن تقدِّم الكيس كلَّه. كما أن الطفل الذي يأخذ الحلوى يجب أن يتناول قطعةً واحدةً منها فقط، وليس الكيس كلَّه. ولدى إجراء هذا الحديث غاب أحد الصبية. وجاءت شقيقة إحدى الصبايا ومعها علبة سكاكر لها. وجلبت الصبية، إحدى ساكنات الملجأ، العلبة وقدَّمتْها إلى الصبي، فأخذ العلبة كلَّها. أمَّا نحن فقد ضحكنا. بينما ارتبك الصبيُّ وسأل: «ماذا يجب عمله؟». وأجابوه بأنه يجب أخذ قطعةٍ واحدةٍ من السكاكر. وعندئذ أدرك ما يجب عمله وقال: «حسناً، فهمت. يجب تقاسم كلِّ شيءٍ دائماً. ويجب ألا أحصل على الجيِّد وحدي والآخرون على السيِّئ». حقّاً، لقد علَّمونا أن يكون سلوكنا هو أن يكون الخير للجميع وليس لفردٍ واحد، وكنا نتعلَّم بيسر، لأننا عانينا الكثير.

وعملت الصبيَّات الأكبر سنّاً في صنع الحقائب، وصُنعت حتى من التنُّورات القديمة. وكانت مديرة الملجأ تمدُّ من العجين النيِّء فطيرةً رقيقةً كبيرةً كشرشف السرير؛ وعندئذٍ يأخذ كلُّ واحدٍ منا قطعةً منها ويبدأ كما يريد بصنع فطيرةٍ محشوَّةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ أو مدوَّرةٍ أو مثلَّثة...

حينما يكون عددنا كبيراً وسويَّةً نادراً ما نتذكَّر الأمَّهات والآباء. أمَّا في حجرة العزل لدى المرض فنرقد بلا أيِّ نشاط، لا يشغل بالنا سوى الحديث عنهم وعن كيف جاء كلٌّ منا إلى الملجأ. وروى لي أحد الصبية كيف جرى إحراق جميع أفراد عائلته، وكان يومئذ قد ذهب راكباً الحصان إلى القرية المجاورة. وقال إنه حزين جدّاً على أمِّه، لكنه يحزن أكثر على الصغيرة نادينكا؛ فقد كانت نادينكا ترقد في القماط الأبيض، لكنهم أضرموا فيها النار. أو راح يحدِّث أحدنا الآخر، حين نجتمع في فسحة الغابة في حلقة، عن بيته وعن كيف عشنا قبل الحرب.

لقد جلبوا إلى ملجأ الأطفال طفلةً صغيرة. وسألوها: «ما هو لقبك؟».

* «ماريا إيفانوفنا».

– «ما اسمك؟».

* «ماريا إيفانونفا».

– «ما هو اسم أمِّك؟».

* «ماريا إيفانوفنا».

لقد صارت تردُّ فقط بالقول «مارينا إيفانوفنا». كانت معلِّمتنا ماريا ايفانوفنا، واسم هذه الصبية ماريا إيفانوفنا أيضاً.

في عيد رأس السنة تلت الطفلة في الحفل قصيدة الشاعر مارشاك: «كانت تعيش عندنا دجاجةٌ جميلة». وفيما بعد أطلق عليها الأطفال تسمية "الدجاجة". الأطفال هم الأطفال، وقد سئموا من دعوتها باسم ماريا إيفانوفنا. وحدث أن ذهب أحد الصبية عندنا إلى صديقه في المدرسة المهنية التي كانت تشرف على ملجئنا، وطلب منه شيئاً ما، ودعا صديقه بلقب الدجاجة. فاستاء هذا وقال: «لماذا تدعوني بالدجاجة؟ هل أنا أشبه الدجاجة؟». فقال صبيُّنا إنه توجد في الملجأ صبيَّةٌ باسم الدجاجة تشبهك كثيراً، لديها الأنف نفسه والعينان نفسهما، ونحن ندعوها بالدجاجة، وروى له السبب.

وقد تبيَّن أن الصبية هي شقيقة ذلك الصبي. وعندما التقيا تذكَّرا كيف رحلا في عربة، وكيف سخَّنت جدَّتهما شيئاً ما في صفيحة المعلَّبات، وكيف لقيت الجدَّة حتفها لدى القصف الجوِّي... وكيف إن الجارة العجوز صديقة الجدَّة قالت لها وهي ميتة: «ماريا إيفانوفنا، انهضي، لقد بقي لديك اثنان من الأحفاد. كيف يمكن أن تموتي، ماريا إيفانوفنا؟ لماذا فارقت الحياة، يا ماريا إيفانونفا؟». وتبيَّن أن الصبية تذكَّرت هذا كلَّه، لكنها

لم تكن واثقة من أن هذا الحادث كلّه وقع لها، وبقيت في أذنيها كلمتان فقط: ماريا إيفانوفنا.

فرحنا جميعا لكونها وجدت أخيها، إذ أنه بقي لكلٍّ واحدٍ منا جميعاً قريبٌ ما، بينما لم يكن لديها أحد. فمثلاً كانت لديَّ شقيقتان، ولدى أحدٍ ما أخٌ أو أبناء وبنات أعمامٍ وخالات. بينما لم يوجد لدى البعض الآخر أيُّ قريبٍ، فيقول: كن أخاً لي أو كوني أختاً لي. وعندئذ صاروا يعتني أحدهم بالآخر ويهتمُّ به. وُجدت في الملجأ خمس بناتٍ باسم تمارا... أمَّا ألقابهن فهي: تمارا نيازفستنايا، وتمارا نيزناكومايا، وتمارا بيزاميانانيا، وتمارا بولشاراي، وتمارا مالنكايا.

ماذا أتذكَّر أيضاً؟ أتذكَّر أننا نادراً ما كنا نلقى التوبيخ في الملجأ، ولم نُقرَّع أبداً. كنا نتزلَّج مع الأطفال الآخرين من البيوت المجاورة، ورأيت إحدى الأمَّهات تعنِّف بل وتضرب طفلها إذا ما لبس حذاء اللبَّاد بلا جوارب. أمَّا نحن فحين نركض حفاة الأقدام لا يعنِّفنا أحد، وأنا لبست حذاء اللبَّاد هكذا لكن لم يعنِّفني أحد، وكان بودِّي كثيراً أن يعنِّفني أحدٌ ما...

كنتُ أتعلَّم جيِّداً، وطلبوا مني أن أساعد أحد الأولاد في استيعاب درس الرياضيَّات. إنه من القرية، وكنا ندرس سوية أطفال الملجأ وأبناء القرية المحلِّيون. ووجب عليَّ أن أذهب إليه في بيت عائلته. ساورني شعور الخوف، وفكَّرت: ما هي الأشياء المرتَّبة هناك، وكيف يجب أن يكون سلوكي؟ البيت، كان هذا بمنأى عن إدراكنا، وكلَّ مبتغانا.

طرقتُ باب البيت، فوجف قلبي...

لا عرسان، ولا جنود...

فيرا نوفيكوفا – 13 عاماً.

الآن – منظِّمة حركة النقل في مرآب الترام.

لقد مضت أعوام كثيرة، ومع هذا ما زلتُ أشعر بالرعب...

يحضرني في الذاكرة ذلك اليوم المشمس والرياح تلاعب خيوط العنكبوت... ثريَّتنا تحترق، وبيتنا يحترق. خرجنا من الغابة، وصاح الأطفال الصغار: «نار! نار! نار! ما أجملها!». أمَّا الباقون فكانوا يبكون، وأمِّي تنتحب وترسم علامة الصليب.

احترق البيت، وأخذنا ننثر الرماد فلم نجد فيه شيئاً، فهناك فقط الشوكات المحترقة، والموقد بقي على حاله وفي مكانه – فطائر تجعَّدت، ومزق البطاطا. أخرجت ماما المقلاة بيديها: «كلوا يا أطفال». لكن من المستحيل تناول الفطائر، لأن رائحة الدخان تفوح منها، لكننا أكلناها لأنه لم يوجد لدينا شيءٌ آخر يؤكل باستثناء الحشيش. بقي الحشيش والتراب.

كم من الأعوام مضت! ومع هذا ما زلت أشعر بالرعب...

لقد شنق الغزاةُ ابنة عمِّي... كان زوجها قائد فصيلٍ من الأنصار، بينما هي حامل. وشى أحدهم بهم لدى الألمان فجاؤوا، وأرغموا الجميع على التحشُّد في الميدان، وأمروا بأن لا يبكي أيُّ أحد. ثمَّة شجرةٌ عاليةٌ بالقرب من مبنى المجلس الريفي، اقتادوا الحصان إلى هناك. كانت ابنة عمِّي تقف فوق الزحَّافة... وضفيرتها طويلة... فوضعوا الأنشوطة في عنقها وسحبوا

ضفيرتها منها، وانطلق الحصان بالزحّافة بينما تدلّت المرأة من الحبل وجسدها يدور... صرخت النساء.. صرخن بلا دموع، وبالصوت فقط. فلم يُسمح لهنَّ بالبكاء. يمكنهنَّ الصراخ ولكن ليس البكاء وإبداء الشفقة. صاروا يُطلقون النار على من يبكي؛ أطلقوا النار على يافعين في سنٍّ ستة عشر وسبعة عشر عاماً. لأنهم بكوا.

كانوا ما زالوا في ريعان الصبا... وليسوا عرساناً ولا جنوداً.

لماذا رويت لك هذا؟ الآن أشعر برعبٍ أكبر من ذلك الوقت. ولهذا أنا لا أستعيد الذكريات...

لو بقي ابنٌ واحدٌ على الأقل...

ساشا كافروس – 10 أعوام.

الآن – دكتور في علوم اللغة.

كنت أتعلَّم في المدرسة...

خرجنا إلى الشارع، وبدأنا باللعب كالعادة. وفي هذه اللحظة انقضَّت الطائرات الفاشية وألقت القنابل على قريتنا. كنا قد سمعنا الأحاديث عن المعارك في إسبانيا، ومصير الأطفال الإسبان. والآن تسقط القنابل علينا أيضاً... انبطحت العجائز على الأرض وطفقن يردِّدن الصلوات... وهكذا... بقي في ذاكرتي طول حياتي صوت المذيع ليفيتان معلناً نشوب الحرب. أنا لا أذكر خطب ستالين، كان الناس يقفون طوال الأيَّام عند مكبِّر الصوت في الكولخوز[1] وينتظرون أمراً ما، وأنا أيضاً وقفت إلى جانب أبي...

كانت مفرزة التنكيل أوَّل من اقتحم قريتنا بروسي في منطقة مياديلسكي؛ فأطلقوا النار على جميع القطط والكلاب، ثمَّ صاروا يتحرَّون عن بيوت النشطاء. وكان بيتنا قبل الحرب مقرُّ المجلس الريفي، لكن لم يخبرْ أيُّ أحدٍ من الناس عن أبي. هكذا... لم يشوا به. وفي الليل راودني حلمٌ بأنني أُعدمت رمياً بالرصاص، وأنا راقدٌ وأفكِّر لمَ لا أموت...

يحضرني في الذاكرة مشهد الألمان وهم يطاردون الدجاج. يقبض

1 – الجمعية التعاونية الزراعية.

أحدهم على الدجاجة ويلوي عنقها حتى يصبح الرأس المقطوع في راحة يده، وتراه يقهقه. بينما تراءى لي أن دجاجاتنا تصرخ، كالبشر، بأصوات بشرية... وكذلك القطط والكلاب التي أطلقوا عليها النار. وأنا قبل هذا لم أرَ أيَّ موت، سواء البشري أو غيره. وحدث مرَّةً أن رأيت في الغابة فراخاً ميتة، وفقط. ولم أرَ غير هذا الموت...

أُضرمت النيران في قريتنا في عام 1943. كنا في ذلك اليوم ننبش البطاطا في الحقل. قال جارنا فاسيلي الذي شارك في الحرب العالمية الأولى ويعرف شيئاً من اللغة الألمانية: «سأذهب وأرجو الألمان ألا يُحرقوا القرية؛ ففيها أطفال». وعندما ذهب إليهم أحرقوه نفسه. أحرقوا المدرسة، جميع الكتب، واندلعت النار في حقولنا وفي حدائقنا.

إلى أين المفر؟ قادني أبي إلى رجال الأنصار في غابات كوزين. وفي طريقنا كنا نلتقي أناساً من قريةٍ أخرى أُحرقت أيضاً، ويقولون إن الألمان ينتشرون في الجوار القريب... لجأنا إلى حفرة: أنا وأخي فولوديا وأمِّي مع أختي الصغيرة وأبي. أمسك أبي بقنبلةٍ يدويةٍ واتَّفقنا على أن يسحب صمَّام الأمان فيها إذا عثر الألمان علينا. طفقنا نودِّع بعضنا البعض، ونزعت وأخي حزامينا وصنعنا منهما أنشطوتين، وقمنا بلفِّهما على رقبتينا من أجل أن نُشنق. قبَّلتْ أمِّي الجميع، وسمعتها تقول لأبي: «دعهما يهربا، فهما فتيان ويمكن أن يُنقذا نفسيهما». وقد أشفقت على أمِّي كثيراً لأنني لم أهربْ... لم أهربْ...

سمعنا نباح الكلاب، وسمعنا الأوامر بلغةٍ غريبةٍ، وسمعنا صوت إطلاق النار. أمَّا الغابة فكانت أشجارها متساقطة، وأشجار الشوح منقلبة ولا يرى شيء لمسافة عشرة أمتار. وأخذت الأصوات تبتعد عنا شيئاً فشيئاً، وعندما ساد الهدوء لم تستطع ماما النهوض؛ فقد شُلَّتْ ساقاها. حملها أبي على ظهره.

بعد بضعة أيّام التقينا رجال الأنصار، وتعرَّفوا على أبي. مشينا ونحن نتضوَّر جوعاً، وسيقاننا مشلولة. وبينما نحن نسير سألني أحد الأنصار: «ماذا تودُّ أن تجد تحت شجرة الصنوبر، قطعة حلوى أم بسكويتة؟ أم قطعة خبز؟». فأجبته: «أريد إيجاد قبضة من الرصاص». وبعد ذلك ظلُّوا خلال فترة طويلة يتذكَّرون قولي هذا. إنني أكره الألمان بسبب معاناة الجميع... وماما أيضاً...

أذكر أنه كان لدينا بعد الحرب كتاب ألفباء واحد، وأوَّل كتابٍ وجدته وقرأته كان مجموعة مسائل في الرياضيَّات.

وكنت أطالعها كما لو كانت شعراً...

يمسح الدموع بأكمامه...

أوليغ بولديريف – 8 أعوام.

الآن – عامل حرفي.

ثمّة سؤال... ما هو الأفضل، أن يتذكَّر المرء أم ينسى؟ ربَّما الأفضل أن يلتزم الصمت؟ إنني نسيت الكثير خلال الأعوام الطويلة...

واصلنا السفر إلى طشقند خلال شهر كامل. شهر! وكانت هذه المدينة تُعتبر في الأعماق البعيدة للجبهة. أُرسل أبي إلى هناك بصفته اختصاصياً، إذ أُجليت المصانع والمعامل إلى هناك، ونزحت البلاد كلُّها بعيداً عن خطِّ الجبهة... إلى العمق. حسناً أن تكون البلاد مترامية الأطراف.

عرفت هناك أن أخي الأكبر استُشهد في ستالينغراد، وكنت مندفعاً للذهاب إلى الجبهة، بينما لم يأخذوني حتى للعمل في المصنع لأنني صغير السن. وهزَّت أمي رأسها وقالت: «أنت ستبلغ سنَّ العاشرة بعد نصف عام. أخرجْ من رأسك هذه الأفكار الطفولية». كما عبس أبي وقال: «لا مكان للأطفال في المصنع؛ فهو ليس روضة أطفال، فيجب أن يعمل المرء هناك اثنتي عشرة ساعةً في اليوم. أوتعرف كيف يعمل؟!».

كان المصنع يُنتج الألغام والذخائر وقنابل الطيران. وسُمح لليافعين بالعمل هناك في قسم التجليخ... كان يجري تجليخ الكتل المصبوبة من المعدن يدوياً، والطريقة بسيطة: يُوجَّه بواسطة خرطوم تحت الضغط العالي سيلٌ من الرمل بدرجة حرارة تصل إلى 150 درجة مئوية، وعندما

يرتدُّ الرمل من المعدن يُحرق الرئتين ويضرب الوجه والعيون. قلائلُ فقط يتحمَّلون ذلك لفترةٍ تربو على أسبوع، ولا بد من توفُّر شيمة خاصَّة.

لكن في عام 1943 بلغت سن العاشرة... فأخذني أبي مع هذا إلى المصنع معه، وقادني إلى الورشة الثالثة التي عمل فيها في القسم الخاص بلحم الصواعق من أجل القنابل.

كنا نعمل ثلاثتنا: أنا وأوليغ وفانيوشكا، وهما أكبر مني بعامين فقط. كنا نجمع جهاز التفجير بينما يقوم بلحامه ياكوف ميرونوفتش سابوجنيكوف (لقد نُقش لقبه في ذاكرتي)، وهو صانعٌ حرفي ممتاز. ووجب الوقوف على صندوقٍ من أجل بلوغ الملزمات وضغط قابضة جهاز التفجير وتحديد مقاسات لولبة التجويف الداخلي للقابضة بتدوير آلة القياس. وقد أتقنا هذه العملية بسرعة، وما يليها أسهل: وضع السدادة في الصندوق، وعندما يمتلئ نضعه في المكان المخصَّص له من أجل شحنه لاحقاً. حقَّاً إنه ثقيلٌ ويصل وزنه إلى خمسين كيلوغراماً، لكننا كنا نستطيع حمله بجهود اثنين منا. ولم نشغل ياكوف ميرونوفتش عن عمله؛ فقد كان يمارس أدقَّ الأعمال وأكثرها مسؤولية وهي اللحام!

لكن أكثر ما يزعج هو لهب اللحام الكهربائي. إن المرء يسعى إلى عدم النظر إلى الشرارات الزرق، لكنه بعد اثنتي عشرة ساعة من العمل يبدأ برؤية "بقع من الأشعَّة" أمامه، ويبدو كما لو أن الرمل قد رُشَّ في عينيه. والمرء يمسحهما لكن بلا فائدة. ويودُّ المرء في أحيانٍ كثيرةٍ أن ينام، إمَّا بسبب ذلك وإمَّا بسبب هدير الماكينة – الدينامو الرتيب والتي تولِّد التيار الكهربائي من أجل جهاز اللحام، وربَّما بسبب الإجهاد فحسب؛ بالأخصِّ في ساعات الليل... النوم! النوم!

وعندما يرى ياكوف ميرونوفتش وجود أدنى فرصة لكي يُعطينا فترة استراحة كان يأمر: «هيَّا، سيروا إلى الأمام إلى قسم الإلكترودات».

ولم تكن ثمَّة حاجةٌ إلى إقناعنا، إذ لم يوجد في المصنع كلِّه ركنٌ أكثر هدوءاً ودفئاً من القسم الذي كان يجري فيه تجفيف الإلكترودات بالهواء الساخن. فيستلقي المرء فوق المصطبة الخشبية الدافئة ويغفو في لحظة خاطفة. وبعد مرور ربع ساعة كان ياكوف ميرونوفتش يأتي إلى قسم الإلكترودات لإيقاظنا.

وحدث مرَّةً أن استيقظت قبل أن يبدأ بإيقاظنا، وإذا بالعمِّ ياشا يتطلَّع إلينا... فمدَّد الوقت، ومسح الدموع بأكمامه.

كانت تتدلى من الحبل كطفل...

لوبا ألكسندروفتش – ١١ عاماً.

الآن – عاملة.

لا أريد... إنني لا أريد حتى تكرار هذه الكلمة – "الحرب".

زحفت الحرب إلينا بسرعة. وفي التاسع من تمُوز/ يوليو، أي بعد عدَّة أسابيع، كانت المعركة تدور دفاعاً عن سينو مركز منطقتنا. وظهر عدد كبير من اللاجئين، ونظراً لكثرتهم لم يوجد مكانٌ لإيوائهم، فلم تكن البيوت كافية. فسكن عندنا مثلاً أفراد ستِّ عوائل مع أطفالهم. وكذا كانت الحال في كلِّ بيت.

في البداية نزح الناس، ومن ثمَّ بدأ إجلاء الماشية. وقد بقي ذلك في ذاكرتي جيِّداً جدَّاً لأنه كان شيئاً مخيفاً... صور فظيعة. محطَّة بوغدان، وهي من أقرب المحطَّات إلينا، ما زالت الآن موجودة، وتقع بين أورشا وليبيل. لقد أُجليت الماشية إلى هناك، في هذا الاتِّجاه، ليس فقط من مجلسنا الريفي، بل ومن جميع مقاطعة فيتبسك. وكان الصيف حارَّاً، واقتيدت الماشية بقطعان كبيرة: أبقار وضأن وخنازير وعجول. واقتيدت الأحصنة بصورةٍ منفردة. أصاب الإجهاد الرعاة الذين كانوا يقتادونها لدرجة أنهم أصبحوا لا يبالون بالأمر... فالأبقار بقيت من دون حلبها، وكانت تدخل إلى الباحة وتبقى هناك حتى يتم إخراجها ويجري حلبها في الطريق، في العراء... وعانت ما عانت بصورةٍ خاصَّةٍ الخنازيرُ التي لا

تحتمل الحرَّ والمشي مسافاتٍ طويلة. كانت تسير وتتساقط في الطريق. وازداد عدد الجثث بسبب الحرِّ، وقد أخافني ذلك لدرجة أنني كنت أخشى الخروج من البيت في المساء، فقد انتشرت في كلِّ مكانٍ الخيول والأغنام والأبقار الميتة، ولم يتوفَّر الوقت لدفنها، وكان عددها يزداد يومياً بسبب الحر.. كان يزداد، وتنتفِّخ جثثها...

الفلَّاحون يعرفون معنى تربية البقرة الواحدة، والجهد والوقت اللازمان لذلك، فصاروا يبكون لدى رؤية هلاك الحيوانات. إنها ليست كالأشجار التي تسقط وتصمت، فالحيوانات تصرخ وتصهل وتثغو وتقبع، وتطلق الأنين.

إنني أتذكَّر قول جدِّي: «هذه الحيوانات البريئة، لمَ تهلك؟ إنها حتى لا تستطيع قول أيِّ شيء». كان جدِّي من هواة المطالعة، وكان يقرأ دوماً في المساء.

كانت أختي الكبرى تعمل قبل الحرب في اللجنة الحزبية للمنطقة، وأُبقيتْ لممارسة العمل السرِّي. لقد جلبت الكثير من الكتب من مكتبة اللجنة الحزبية، وكذلك الصور والرايات الحمراء، فقمنا بدفنها تحت شجرة التفَّاح في الحديقة. وكذلك بطاقتها الحزبية، قمنا بدفنها ليلاً. وكان لديَّ إحساس بأن اللون الأحمر سيرى منبجساً من تحت الأرض.

أنا لا أذكر كيف جاء الألمان، لسببٍ ما لا أذكر... وأذكر أنهم جاؤوا وذلك منذ وقتٍ بعيد، وحشدونا جميعاً، القرية كلَّها، في الساحة. ونصبوا المدافع الرشَّاشة أمامنا: «أين رجال الأنصار؟ من زاروا؟». الجميع صامتون. وعندئذٍ اقتادوا واحداً من كل ثلاثة إلى ساحة الإعدام رمياً بالرصاص. لقد أعدموا ستَّة أشخاص: رجلين وامرأتين واثنين من اليافعين، ثمَّ انصرفوا.

في الليل سقط الثلج الطري، وحلَّ العام الجديد ورقد هؤلاء الموتى

تحت الثلج الطري. لم يكن هناك من يتولّى دفنهم وصنع النعوش لهم؛ فقد هرب الرجال للاختباء في الغابة. وعمدت العجائز إلى إحراق جذوع الأشجار المقطوعة بغية تدفئة الأرض إلى حدٍّ ما ليسهل حفر القبور، وعملن طويلاً في الطرق بالمجارف في التربة المتجمّدة شتاء.

وسرعان ما عاد الألمان بعد بضعة أيّام، وجمعواالأطفال كافّةً، وكان عددنا ثلاثة عشر طفلاً، وجعلونا نسير أمامهم لخوفهم من ألغام الأنصار. كنا نسير في المقدّمة وهم وراءنا، وإذا ما وجب التوقّف لأخذ الماء من البئر مثلاً، كانوا يُرسلوننا إلى البئر. وهكذا واصلنا السير مسافة خمسة عشر كيلومتراً، لم يخف الصبية، لكن الفتيات واصلن البكاء. كانوا يتبعوننا في السيّارات، فلا مجال للهرب. وأذكر أننا كنا نمشي حفاة القدمين، بينما حلَّ الربيع لتوهّ، الأيّام الأولى منه.

أريد أن أنسى... أنا أريد أن أنسى.

ولج الألمان بيوت الفلاحين، وجمعوا من التحق أبناؤهم بصفوف الأنصار كافّة، وقطعوا رؤوسهم في وسط القرية... أمرونا: انظروا. وفي أحد البيوت لم يجدوا أحداً فقبضوا على القطة وشنقوها. لقد ظلّتْ معلّقةً بالحبل وكأنها طفل.

أريد أن أنسى كل شيء...

الآن ستصبحون أولادي...

نينا شونتو – 6 أعوام.

الآن – طبَّاخة.

«آخ! آخ! آخ!». صار قلبي يؤلمني بغتة.

قبل الحرب عشنا مع بابا وحده؛ فقد تُوفِّيتْ ماما. وعندما ذهب بابا إلى الجبهة بقينا مع عمَّتنا. وكانت العمَّة تعيش في قرية زادوري بمنطقة ليبيلسكي. حالما أوصلنا بابا إليها عثرتْ ووقعتْ على طرف غصن جاف، وفقدت البصر بإحدى عينيها. أُصيبتْ بتلوُّث الدم وفارقت الحياة. كانت عمَّتنا الوحيدة، فبقيتُ مع أخي الصغير لوحدنا. أخذنا نبحث عن رجال الأنصار، وقرَّرنا لسبب ما أن بابا معهم هناك. صرنا نُمضي ليلتنا في أيِّ مكان. وأذكر بأنه في أثناء العاصفة الرعدية بتنا في داخل كدسة التبن، فأخرجنا بعض التبن وتكوَّنت فتحةٌ اختبأنا في داخلها. كان هناك عدد كبير من الأطفال أمثالنا، وجميعهم خرجوا للبحث عن آبائهم وأمَّهاتهم، وحتى إذا ما عرفوا أنهم قُتلوا، كانوا يقولون لنا إنهم يبحثون عن بابا وماما أيضاً، أو يبحثون عن أحد الأقارب.

مشينا ومشينا... وفي إحدى القرى شاهدنا كوخاً بنافذةٍ مفتوحة، ويبدو أنه جرى فيه منذ فترة وجيزة صنع فطائر البطاطا. وعندما اقتربنا تشمَّم أخي رائحة هذه الفطائر، فسقط فاقد الوعي. دخلت الكوخ وأردت أن أطلب قطعة من أجل أخي، لأنه لن يقف على رجليه بدونها. وكنت سأحمله،

ولكن لم تسعفْني قواي الضعيفة. لم أجد أحداً في الكوخ، ولم أتمالك نفسي من قَطع جزءٍ من الفطيرة. ثمَّ جلسنا بانتظار مجيء أصحاب الكوخ لكي لا يتصوَّروا بأننا نسرق. جاءت صاحبة الكوخ، وكانت تعيش وحيدة. ولم تدعنا ننصرف وقالت: «الآن ستصبحون أولادي...». وحالما قالت ذلك استسلمنا أنا وأخي إلى النوم وراء الطاولة، وغمرنا شعور بالارتياح؛ فقد صار لنا بيت نأوي إليه.

سرعان ما أُضرمت النار في القرية، وفي البشر أيضاً، وخالتنا الجديدة. لكننا بقينا على قيد الحياة لأننا غادرنا القرية عند الفجر من أجل جمع الثمار البرية في الغابة. جلسنا على التل وراقبنا النيران، وأدركنا كل شيء. لم نعرف إلى أين نتَّجه، وكيف نجد خالة أخرى، وقد أحببنا تلك فقط. وحتى أننا قرَّرنا لدى تبادل الأحاديث بيننا أننا سندعو الخالة الجديدة بماما. لقد كانت طيِّبة للغاية، وتقبِّلنا في الليل.

التقطنا رجال الأنصار وأرسلونا في طائرة من فصيلتهم إلى ما وراء خطِّ الجبهة.

ماذا بقي لديَّ من الحرب؟ أنا لا أفهم معنى الناس الغرباء لأننا شببنا، أنا وأخي، بين الناس الغرباء، وأنقذنا الناس الغرباء. فأيُّ غرباء هم؟ إن جميع الناس هم أهلنا. إنني أحيا بهذا الشعور، ولو أنني أُصاب بخيبة الأمل في غالب الأحيان. إن حياة السلام هي حياة أخرى...

لقد قبَّلنا أيديهم...

دافيد غولدبرغ – 14 عاماً.

الآن – موسيقي.

كنا نستعد للاحتفال بالعيد...

كان من المقرَّر في ذلك اليوم أن يجري الافتتاح الرسمي لمخيَّمنا للطلائع "تالكا". وانتظرنا مجيء الضيوف من رجال حرس الحدود. وفي الصباح ذهبنا إلى الغابة لقطف الأزهار، وأصدرنا الجريدة الحائطية المخصَّصة للعيد، وزيَّنَّا طوق المدخل. كان المكان مدهشاً والجوُّ رائعاً؛ فلدينا عطلة! وحتى أن سماع هدير الطائرات الذي تردَّد طوال الصباح لم يقلقنا، إذ كنا نشعر بالسعادة.

وفجأة دعونا للاصطفاف، وقالوا إن هتلر هاجم بلادنا في الصباح حين كنا نائمين. وقد اقترنت الحرب في ذهني بأحداث "خالخين – غول[1]" التي جرت في مكانٍ بعيدٍ ولم تدمْ فترة طويلة. ولم يخامرنا الشكُّ في أن جيشنا لا يُقهر ولا يُهزم، ولدينا أفضل الدبَّابات والطائرات. هذا كلُّه قيل لنا في المدرسة، وفي البيت. أبدى الصبية ثقتهم بذلك، لكن الكثير من الفتيات بكين وجزعن. كُلِّف الأكبر سنّاً من بيننا بأن يتولَّى تهدئة الصفوف، بالأخص حيث الأطفال الصغار. وفي المساء سُلِّمتْ إلى الصبية في سن

1 – معركة دارت بين السوفييت واليابانيين لعدة أشهر، انتهت بانتصار السوفيت وتوقيع اتفاقية هدنة.

14 – 15 عاماً بنادقُ ذوات عيار صغير. ياللروعة! وعموماً شعرنا بالفخر. وكانت في المخيَّم أربع بنادق، وقفنا لحراسة المخيَّم في مجموعات مؤلَّفة من ثلاثة أفراد، وقد أعجبني ذلك. ذهبت حاملاً البندقية إلى الغابة، وأردت التأكُّد، هل أخاف أم لا؟ فلم أُردْ أن أبدو جباناً.

انتظرنا عدَّة أيَّام أن يأتوا من أجل نقلنا من المخيَّم. لم يأتِ أحدٌ فذهبنا بأنفسنا إلى محطَّة القطار بوخوفيتش، وجلسنا في المحطة فترة طويلة. قال ناظر المحطَّة إن أيَّ قطار لن يأتي من مينسك، فقد انقطع الاتِّصال معها. وفجأةً جاء أحد الأطفال وصرخ قائلاً إن قطاراً ثقيلاً آتٍ، فوقفنا على خط السكك. في البداية لوَّحنا بأيدينا، ومن ثمَّ نزعنا ربطة العنق الحمراء بغية إيقاف القطار. وعندما رآنا سائق القطار لوَّح بذراعيه بيأسٍ، بمعنى أنه لا يستطيع إيقاف القطار؛ إذ لن يتحرَّك من مكانه بعد ذلك. وصاح: «إذا استطعتم ألقوا بالأطفال فوق العربة المكشوفة!». وكان يجلس فوقها أفراد صاحوا فينا أيضاً: «أنقذوا الأطفال! أنقذوا الأطفال!».

صار القطار يسير ببطءٍ قليلاً فحسب. وامتدَّت من العربة المكشوفة أيادي الجرحى الموجودين فيها والتقطت الأطفال. حُمِّل الجميع في هذا القطار، وقد كان آخر قطار غادر مينسك...

واصلنا السفر فترة طويلة، وكان القطار يمضي بطيئاً فرأينا جيِّداً جثث القتلى فوق الأكمَّة وقد صُفَّتْ بعنايةٍ مثل أخشاب خط سكك الحديد. بقي ذلك في ذاكرتي... وكذلك كيف جرى قصفنا بالقنابل وصراخنا وزعيق شظايا القنابل. كما أذكر كيف كانت النساء تقدِّم لنا الطعام في المحطَّات، وكنَّ يعرفن من أحدٍ ما أن قطاراً يحمل الأطفال في طريقه إلى المحطَّة، ونحن قبَّلنا أياديهنَّ.

كان بيننا طفلٌ رضيعٌ قُتلت أُمُّه في أثناء القصف، وحالما رأته امرأة في المحطَّة نزعت المنديل من رأسها وأعطته لاستخدامه كقماط...

كفى! كفى! إنني أُصاب بالجزع البالغ، ولا يجوز لي أن أجزع لأنني مصاب بمرض القلب. وأقول لك إن من كانوا أطفالاً في زمن الحرب غالباً ما يموتون قبل آبائهم الذين قاتلوا في الجبهة. قبل الجنود القدامى. قبلهم...

وما أكثر الأصدقاء الذين ودَّعتهم إلى القبر...

نظرتُ إليهم بعينَي صبيَّةٍ صغيرة...

زينا غورسكايا – 7 أعوام.

الآن – عاملة تجليخ.

كنت أنظر إليهم بعينَي صبيَّةٍ صغيرة، صبيَّةٍ رقيقةٍ صغيرة، بعينين مبحلقتين واسعتين...

رأيت أوَّل ألماني من كثب. كان طويل القامة، بعينين تشوبهما زرقة. فدُهشت: «رجلٌ وسيمٌ كهذا ويقتل!». ربَّما كان ذلك أوَّل انطباع شديد لديَّ، أوَّل انطباع عن الحرب...

كنا نعيش معاً: ماما والأختان والأخ والدجاجة. بقيت لدينا دجاجةٌ واحدة، وعاشت ونامت معنا في الكوخ، واختبأت معنا لدى قصف القنابل. واعتادت أن تمشي معنا مثل الكلب. ومهما تضوَّرنا جوعاً، فإننا أنقذنا الدجاجة. علماً أن الجوع بلغ بنا درجة جعلت ماما تطبخ في الشتاء معطف فرو الغنم والأسواط لأن رائحتها تشبه رائحة اللحم المغلي. كان أخي ما زال رضيعاً، فعمدنا إلى غلي بيضة وأعطيناه هذا الماء بدلاً من الحليب، وكان عندئذ يكفُّ عن البكاء ولا يموت.

كان القتل جارياً على قدم وساق حولنا. قتل، قتل... قُتل البشر وقُتلت الخيول والكلاب. وفي فترة الحرب قُتلت كلُّ الخيول عندنا، وجميع الكلاب. حقاً، لقد بقيت القطط على قيد الحياة.

عند الظهر يأتي الألمان: «ماتكا، أعطنا بيضاً. ماتكا، أعطنا دهن

الخنزير». ثم يطلقون النار. وفي الليل يأتي رجال الأنصار. لقد وجب أن يصمد الأنصار في الغابة، ولاسيما في الشتاء. كانوا يطرقون النافذة ليلاً، فيأخذون ما يُؤكل طوعاً، وأحياناً قسراً... اقتادوا بقرتنا، وبكت ماما، ورجال الأنصار بكوا أيضاً... لايمكن وصف ذلك، لايمكن وصف ذلك، عزيزتي. كلا! كلا!

كانت أمِّي وجدَّتي تحرثان الحقل كالآتي: في البداية تضع أمِّي النير على عنقها، بينما تسير جدَّتي وراء المحراث. وبعد ذلك يتبادلان الوضع، فتحلُّ الأخرى محلَّ الحصان. كنت أحلم بأن أكبر عاجلاً؛ فقد غمرتني الشفقة على أمِّي وجدَّتي.

بعد الحرب وُجد كلبٌ واحدٌ في القرية كلِّها (غريب عن المنطقة) ودجاجةٌ واحدةٌ هي دجاجتنا. ولم نأكل البيض، بل كنا نجمعه في انتظار أن يفقس عن فراخ.

التحقت بالمدرسة. قطعت من ورق الجدران القديم شريحة ورق أصبحت كرَّاسةً لي. وبدلاً من الممحاة استخدمت فلِّين القناني. في الخريف نضج الشوندر ففرحنا كثيراً؛ إذ أننا سنبرشه ونصنع منه حبراً. عادةً تُترك هذه العصيدة يوماً أو يومين فتتحوَّل إلى حبر. وتوفَّرتْ لدينا أدوات الكتابة.

وأذكر أيضاً أنني وماما كنا نحبُّ التطريز، بشكل أزهار مرحة حتماً. أنا لم أحب الأزهار السود.

الآن أيضاً لا أحبُّ اللون الأسود.

أمُّنا لا تبتسم...

كيما كورزيتش – 12 عاماً.

الآن – عاملة ضبط أجهزة اللاسلكي.

عائلتنا...

كنا ثلاثة؛ ريما ومايا وكيما. والأسماء اختصار لألفاظ، فريما مختصر الكهرباء والسلام، ومايا: أوَّل أيار/مايو، وكيما: الأممية الشيوعية للشباب. أعطانا أبونا هذه الأسماء. كان شيوعياً، وانضمَّ إلى الحزب مبكِّراً. وتولَّى تربيتنا كالتالي: كان لدينا الكثير من الكتب في البيت، وصور لينين وستالين. وفي الأيَّام الأولى للحرب دفنَّاها في العنبر، وأبقيت لنفسي فقط كتاب "أبناء القبطان غرانت" تأليف جول فيرن. إنه كتابي المفضل الوحيد، وطالعته مراراً في زمن الحرب.

كانت ماما تذهب إلى القرى في ضواحي مينسك وتُبادل المناديل بالمواد الغذائية. وكان لديها زوج من الأحذية الجديدة، وحملت إلى هناك حتى فستانها الوحيد من نوع كريبديشونوفه. وكنا أنا ومايا نجلس في انتظار عودة ماما: هل ستعود أم لن تعود؟ وسعينا إلى إلهاء إحدانا الأخرى عن هذه الأفكار بتذكُّر كيف كنا قبل الحرب نذهب إلى البحيرة ونستحمُّ ونستلقي هناك لكي تلوِّحنا الشمس، وكيف كنا نرقص في حفلات المدرسة، وأي ممرٍّ طويلٍ تظلِّله الأشجار ويؤدِّي إلى المدرسة، ورائحة مربَّى الكرز التي كانت أمُّنا تطهوه في الباحة... هذه كلُّها ذكريات بعيدة

جدّاً، وكلُّها ذكرياتٌ طيِّبة. وتحدَّثنا عن ريما أختنا الكبرى، وكنا خلال فترة الحرب كلِّها نعتقد أنها لقت حتفها؛ فقد خرجت في 23 حزيران/ يونيو إلى العمل في المصنع ولم تعدْ إلى البيت...

وعندما وضعت الحرب أوزارها أرسلت ماما الاستفسارات إلى الجهات كافَّةً وبحثت عن ريما. كان يوجد مكتبٌ خاصٌّ بالعناوين ويزدحم بالناس دوماً، وعن طريقه يبحث الأفراد عن بعضهم البعض. وكنت أحمل إلى هناك رسائل أمي، بينما لم تردْ رسائل إلينا. وحلَّ يوم الإجازة، وجلست ماما عند النافذة في انتظار مجيء ساعي البريد، وقد كان يمرُّ دائماً بمحاذاة النافذة.

وحدث مرَّةً أن عادت ماما من العمل، وجاءت إليها جارتنا وقالت لماما: «ارقصي». وكانت تمسك بشيء ما وراء ظهرها. ماما حزرت أية رسالة هي؛ لم ترقصْ، بل جلست على المصطبة ولم تستطع النهوض، ولم تقلْ شيئاً.

وهكذا عثرنا على أختي. كانت ضمن النازحين. وابتسمت. لم تبتسم ماما أبداً طوال فترة الحرب... حتى عثرنا على أختي.

لم أستطع أن أعتاد على اسمي...

لينا كرافتشينكو – 7 أعوام.

الآن – محاسبة.

طبعاً أنا لم أعرفْ شيئاً عن الموت... لم يتسنَّ الوقت لأحدٍ لكي يوضح لي الأمر، ورأيته فوراً...

عندما تطلق المدافع الرشاشة نيرانها من الطائرات يتراءى لي أنها كلَّها موجَّهةٌ إليَّ، وفي اتجاهي. ورجوت أمي قائلة: «ماموتشكا، انبطحي فوقي». وكانت تنبطح، وعندئذ لا أرى ولا أسمع شيئاً.

وكان أفظع شيء بالنسبة إليَّ أن أفقد ماما. لقد رأيت امرأة شابة قتيلة، ورضيعها يمصُّ الحليب من ثديها. كان واضحاً أنها قُتلت قبل لحظات. والطفل لم يصرخ حتى، بينما كنت أجلس إلى جانبها...

كانت أمنيتي ألا أفقد أمِّي... كانت أمِّي تمسك بيدي دائماً وتُمسِّد رأسي وتقول: «سيكون كلُّ شيء على ما يرام. سيكون كلُّ شيء على ما يرام».

كنا نتنقَّل في شاحنة ما، ووُضعت الدلاء فوق رؤوس جميع الأطفال، لكنني عصيت أمِّي.

وبعد ذلك اقتادونا في طابور. وهناك أبعدوا أمِّي عني. وقد تمسَّكتُ بيديها، ورحت أقبل فستانها المصنوع سن قماش الماركيزيت، فقد كان زيُّها لا يناسب زمن الحرب، كان أنيقاً جدّاً... ولم أدعها تفارقني، وبكيت.

فأبعدني أحد الفاشيين عنها بقبضة الرشّاش أوّلاً، ومن ثمّ ضربني وأنا على الأرض بجزمته. فأخذتني امرأة ما، ووجدت نفسي معها في عربة قطار، ونحن نسافر. إلى أين؟ ودعتني باسم آنيتشكا. كنت أعتقد أن اسمي غير هذا؛ أذكر بأنه كان لدي اسم آخر، ولكن ما هو؟ لقد نسيت، بسبب الرعب، من الرعب أنهم انتزعوا أمّي مني... إلى أين نسافر؟ وفهمت من حديث الكبار أنهم ينقلوننا إلى ألمانيا. وأتذكّر أفكاري: ما حاجتهم إلى صبية صغيرة مثلي؟ ماذا سأفعل هناك؟ وعندما احلولك الليل دفعتني النساء إلى خارج العربة: «اهربي! ولربما سيحالفك الحظ في النجاة!».

سقطت في حفرة ما، وهناك غفوت. كان الجوُّ بارداً، وراودني حلمٌ بأن أمّي تلفُّني بغطاء دافئ وتحدثني بحنان. ويتكرَّر هذا الحلم طوال حياتي...

بعد مضيٍّ عشرين عاماً من الحرب عثرت على خالتي فقط. وقد ذكرت اسمي الحقيقي ولم أستطع اعتياده لفترة طويلة.

لم أكن أردُّ حين يدعوني أحدٌ به...

كان قميصه العسكري مبلَّلاً

فاليا ماتيوشكوفا – 5 أعوام.

الآن – مهندسة.

ستصيبك الدهشة! أنا أردت تذكُّر شيء مضحك، مرح؛ فأنا أحبُّ الضحك، ولا أريد أن أبكي. أو-و-و... هأنذا أبكي...

اقتادني أبي إلى أمِّي في دار الولادة، وقال إننا سنشتري قريباً صبياً. وأردت أن أتخيَّل كيف سيكون شكل أخي. وسألت أبي: «أيُّ صبي؟». فأجاب: «صبيٌّ صغير».

وبغتةً وجدنا أنفسنا في مكانٍ عالٍ ما، والدخان يتصاعد من النافذة. كان والدي يحملني بيديه، بينما أطالبه بأن نعود لأخذ حقيبتي الصغيرة، وبدأت بالتذمر. أمَّا أبي فقد التزم الصمت واحتضنني بقوَّةٍ، لدرجة أنني لم أعدْ أستطيع التنفُّس. وسرعان ما فقدت أبي، ومشيت في الشارع مع امرأة ما. كنا نمشي بمحاذاة الأسلاك الشائكة التي وقف الأسرى خلفها. الجوُّ قائظ، وكانوا يطلبون الماء للشرب. ولم يكن في جيبي سوى قطعتَي حلوى، فرميتهما إلى ما وراء الأسلاك الشائكة. لكن من أين جاءت قطعتا الحلوى؟ لم أعدْ أذكر. ورمى البعض إليهم الخبز والخيار... أطلق الحارس النار، فهربنا...

أمرٌ عجيب! إنني أتذكَّر هذا كلَّه، بكلِّ التفاصيل...

ثمَّ أتذكَّر معسكر تجميع الأطفال الذي كان محاطاً بالأسلاك الشائكة.

وكان يتولّى حراستنا الجنود الألمان والكلاب البوليسية الألمانية. كما وُجد أطفالٌ لم يتعلَّموا المشي بعد، ويزحفون. وعندما كانوا يريدون الأكل تراهم يلحسون الأرض ويأكلون الأوساخ. لكنهم ماتوا بسرعة. كان طعامنا سيّئاً يتألَّف من خبزٍ يسبِّب ورماً في اللسان، حتى أننا لم نستطعْ حتى الكلام، ولم نفكِّر سوى بالطعام. نتناول طعام الفطور ونفكِّر في ما سنأكله في وجبة الغداء. ونتناول وجبة الغداء ونفكِّر في ما سنأكله في وجبة العشاء. كنا نتسلَّل من تحت الأسلاك الشائكة ونذهب إلى المدينة، وهدفنا البحث عن القمامة. كانت بهجتنا غامرةً حين نعثر على جلد سمكةٍ أو قشور بطاطا، وكنا نأكل القشور نيِّئة.

وأذكر كيف أمسك بي رجل عند صندوق القمامة. ففزعت: «من هم أهلك؟»

* «لا أهل لي. أنا من ملجأ الأطفال».

فاقتادني إلى بيته وأطعمني. كانت لديهم في البيت البطاطا فقط، فطبخوها وأكلت قدراً كاملاً من البطاطا.

نُقلنا من المعسكر إلى ملجأ الأطفال الكائن مقابل معهد الطبِّ، حيث كان يوجد مستشفى عسكري ألماني. أنا أذكر النوافذ الواطئة والأقفال الثقيلة التي تُغلق ليلاً.

كان الطعام هناك جيِّدا، وتحسَّنتْ صحَّتي. وقد أحبَّتْني كثيراً عاملة التنظيف هناك. كانت تُشفق على الجميع، ولاسيِّما عليَّ. وعندما كانوا يأتون إلينا لأخذ الدم منا، كان الجميع يختبئون ويصيحون: «الأطبَّاء قادمون». فتُخفيني الخادمة في إحدى الزوايا. وكانت تكرِّر دوماً أنني شبيهة بابنتها. أمَّا الآخرون فكانوا يتخفَّون تحت الأسِرَّة، فيُخرجون من هناك. وعندما يخرجونهم يعطونهم قطعة خبز أو يقدِّمون لهم لعبةً ما. وأنا أذكر الكرة الحمراء...

ولدى انصراف الأطبَّاء أعود إلى الغرفة. وأذكر: صبيٌّ صغيرٌ راقدٌ على السرير ويده تتدلّى من هناك والدم ينزف منها. أمَّا الأطفال الآخرون فيبكون. بعد أسبوعين أو ثلاثة جرى تبديل الأطفال، ونُقل بعضهم إلى مكانٍ ما بعد أن أصابهم الشحوب والهزال. جلبوا غيرهم، وأطعموهم.

اعتقد الأطبَّاء الألمان بأن دم الأطفال في سن ما دون الخامسة يساعد في علاج الجرحى، ويتَّسم بخصائص إعادة عافية الشباب. لقد عرفت ذلك فيما بعد... طبعاً، فيما بعد...

أمَّا آنذاك، فقد أردت الحصول على لعبة جميلة. كرة حمراء.

عندما بدأ الألمان بالانسحاب هاربين من مينسك، وقد انسحبوا، اقتادتْنا تلك المرأة إلى البوَّابة: «ابحثوا إن كان لديكم أحدٌ ما هنا. اما من لا يوجد لديه أحد فليذهبْ إلى إحدى القرى، وسينقذكم أهلها هناك».

وقد ذهبت للبحث، وعشت عند امرأة عجوز. أنا لا أذكر لقبها ولا اسم القرية. وأذكر أن ابنتها اعتقلها الألمان وبقينا وحدنا، هي العجوز وأنا الصغيرة. كان لدينا رغيفٌ واحدٌ لمدَّة أسبوع كامل.

وكنت آخر من عرف بأن جنودنا في القرية. كنت مريضة، فسمعت ونهضت وأسرعت إلى المدرسة. وحالما رأيت أوَّل جنديٍّ هُرعت إليه. وأذكر أن قميصه العسكري كان مبلَّلاً.

وصار الجميع يحتضنونه ويقبلونه ويبكون.

كما لو أنها أنقذت ابنته...

جينيا زافوينر– 7 أعوام.

الآن – عاملة ضبط أجهزة اللاسلكي.

ماذا بقي في الذاكرة أكثر من غيره من تلك الأيَّام؟

أذكر كيف اقتادوا أبي... كان يرتدي المعطف المحشوَّ بالقطن. ولا أتذكَّر وجهه، فقد اختفى من ذاكرتي كلِّياً. أذكر يديه، لكنني لا أتذكَّر من جاء لاعتقاله مهما بذلت من جهد لشحذ ذاكرتي. كانوا عدَّة أشخاص...

لم تذرفْ أمِّي الدموع. ووقفت طوال اليوم عند النافذة.

اعتُقل أبي، وجرى إسكاننا في حي منعزل لليهود (غيتو) وراء الأسلاك الشائكة. كان بيتنا يقع عند الطريق، وفي كل يوم تتطاير العصيُّ في باحة البيت. ورأيت أحد الفاشيين عند بوَّابتنا حين اقتادوا مجموعة من الرجال إلى الإعدام، وكان ينهال بالضرب بالعصيِّ على هؤلاء الرجال. وعندما كانت العصيُّ تنكسر يرمي بها إلى الخلف وراء ظهره، فتسقط في باحة بيتنا. وأردت النظر في وجهه بشكل أفضل، وليس في ظهره فقط، فرأيت في إحدى المرَّات رجلاً قصير القامة وأصلع، كان يشخر ويلهث. وصُعقت بخيالي الطفولي لكونه رجلاً عادياً.

عثرنا على جدَّتنا قتيلة في الشقَّة. قمنا بدفنها. جدَّتنا المرحة والحكيمة التي أحبَّت الموسيقى الألمانية والأدب الألماني.

ذهبت ماما لاستبدال الحاجيات بمواد غذائية. وبدأت مذبحة ونهب

وسلب في الغيتو. كنا عادة نختبئ في القبو، لكننا في هذا المرَّة صعدنا إلى علِّيَّة البيت، وقد كانت مدمَّرةً كُلِّياً من أحد الجوانب، وهذا بالذات ما أنقذنا؛ فقد دخل الألمان البيت وطعنوا السقف بالحراب. ولم يصعدوا إلى علية البيت فقط لكونها مهدَّمة... بينما ألقوا قنبلة يدوية في القبو.

استمرَّت المذبحة ثلاثة أيَّام، وجلسنا في علِّية البيت طوال الأيَّام الثلاثة. أمَّا أمِّي فلم تكن معنا. وكنا نفكِّر فيها فقط. انتهت المذبحة. وقفنا عند البوَّابة في انتظارها: هل ما زالت على قيد الحياة أم لا؟ وفجأة ظهر وراء البوَّابة جارنا السابق، ومرَّ بالبوَّابة من دون أن يتوقَّف، لكننا سمعنا فقط: «أمُّكم ما زالتْ حيَّةً تُرزق». عندما عادت ماما نظرنا إليها، نحن الثلاثة، ولم يبكِ أحد، لم تكن هناك دموع، وأصابنا نوعٌ من الطمأنينة... وحتى أننا لم نشعرْ بالجوع.

وقفنا مع ماما بالقرب من الأسلاك الشائكة، فمرَّتْ بنا امرأةٌ جميلة. وقفتْ أمامنا من الجانب الآخر وقالت: «لكَم أُشفق عليكم!». فأجابتها ماما: «إذا شعرتِ بالشفقة فخذي ابنتي». وبعد فترة تأمُّلٍ قالت المرأة: «حسناً». أمَّا بشأن البقية فقد اتَّفقتا همساً.

في اليوم التالي أخذتني ماما إلى بوَّابة الغيتو: «جينيتشكا، خذي العربة التي فيها الدمية واذهبي إلى الخالة ماروسا، جارتنا».

أذكر كيف ألبستْني أمِّي: قميصاً أزرق، وجاكتة صوفية ذات خصلات بيض. كان هذا أفضل ما لدينا، كما في العيد.

دفعتْني أمِّي إلى خارج بوَّابة الغيتو، بينما تمسَّكتُ بها. كانت تدفعني، بينما أنا أذرف الدموع من عينيَّ. أذكر كيف ذهبت... أذكر مكان البوَّابة ونقطة الحراسة...

هكذا دفعت العربة وفيها الدمية إلى حيث أمرتْني ماما، وهناك ألبسوني

معطفاً من فرو الضأن وأجلسوني في عربة. وفيما كنت في العربة واصلتُ النحيب وأنا أردِّد: «أينما تكونين أنت يا ماما، أنا معك. أين تكونين أنت...».

أخذوني إلى القرية، وأجلسوني فوق مصطبة. كان في تلك العائلة التي أصبحتُ في كنفها أربعة أطفال. أخذوني أنا أيضاً. أريد أن يعرف الجميع اسم المرأة التي أنقذتْني: أوليمبيا بوجاريتسكايا من قرية غينيفتش بمنطقة فولوجينسكي. وساد الرعب في هذه العائلة طوال الوقت الذي كنت أعيش فيه معها؛ إذ كان من المحتمل أن يُعدَموا بالرصاص في أية لحظة... العائلة كلُّها، والأطفال الأربعة، لأنهم أخفوا طفلةً يهودية من الغيتو. كنت سأغدو سبب هلاكهم. كان لا بدَّ من أن يتمتَّع المرء بقلب كبير لكي يُقدم على هذه الخطوة! قلب إنساني يتفوَّق على قلوب البشر. وعندما كان الألمان يأتون إلى القرية كانوا يُخفونني في مكانٍ ما في الغابة المجاورة. لقد أنقذتْني الغابة، وقد غمرتني تلك المرأة بالرعاية والحنان كرعايتها لأطفالها الأربعة. وإذا ما قدَّمتْ شيئاً كانت تُقدِّمه للجميع، وإذا ما قبَّلتْ قبَّلت الجميع، ومسَّدت بيدها الجميع على حد سواء. وكنت أدعوها "ماموسيا". كانت أمِّي في مكان ما، وهذه ماموسيا...

عندما اقتربت الدبَّابات من القرية كنت أرعى الأبقار، وحالما رأيت الدبَّابات اختبأت؛ فلم أصدِّقْ أنها دبَّاباتنا. ولكن عندما ميَّزتُ النجوم الحمراء عليها خرجت إلى الطريق. خرج من الدبَّابة الأولى ضابطٌ، فأمسكني بيديه وصار يقذف بي عالياً... عالياً. وعندئذ جاءت صاحبة البيت من القرية وبدت سعيدة جدَّاً وجميلة جدَّاً، وأرادت قول شيء ما عن فعل الخير وأنهم عملوا أيضاً شيئاً ما من أجل هذا النصر. وروت كيف أنقذتْني، أنا الطفلة اليهودية، فاحتضنني العسكريُّ بشدَّةٍ كما لو أنها أنقذت ابنته. قال إن جميع أفراد عائلته قُتلوا، وعندما ستنتهي الحرب سيأتي

ويأخذني إلى موسكو. بينما أنا لم أوافق، بالرغم من أنني لم أعرف بعد هل كانت أمّي على قيد الحياة أم لا.

وجاء أناس آخرون واحتضنوني أيضاً. لقد كان الجميع في القرية من الذين تمَّ إخفاؤهم فيها.

بعد ذلك جاءت إليَّ أمّي. لقد جاءت إلى تلك الباحة وجثت على ركبتيها أمام تلك المرأة وأطفالها...

حملوني إلى الفصيلة على أيديهم...
كان جسدي كلُّه تُغطِّيه الرضوض والجروح
من مقدمة الرأس وحتى إصبع القدم

فولوديا امبيلوغوف – 10 أعوام.

الآن – عامل براد.

كنت في العاشرة، في العاشرة تماماً... الحرب. تلك اللئيمة؛ الحرب.

مارس الصبية في الباحة لعبة «دق العصي». فتوقَّفتْ شاحنةٌ كبيرةٌ وخرج منها الجنود الألمان، وصاروا يمسكون بنا ويرموننا في داخل الشاحنة تحت الغطاء المشمَّع. نقلونا إلى محطَّة القطار، واقتربت الشاحنة من عربة القطار من جهة الخلف وألقوا بنا فيها مثل الأكياس، فوق التبن.

ازدحمت عربة القطار بنا كثيراً ممَّا جعلنا نبقى واقفين في الوهلة الأولى. لم يكن هناك أحد من الكبار بيننا؛ أطفال وأحداث فقط. سار القطار بنا طوال نهارين وليلتين والأبواب مغلقة، فلم نرَ شيئاً، وسمعنا فقط قرقعة العجلات فوق القضبان.

وفي النهار كان بصيص نور يتسلَّل عبر الشقوق، أمَّا في الليل فكان الرعب يستبدُّ بنا لدرجة أننا كنا نبكي: إنهم ينقلوننا بعيداً إلى مكان ما، ولا يعرف آباؤنا وأمَّهاتنا أين نحن. في اليوم الثالث فُتح الباب، ورمى جنديٌّ بعدَّة قوالب من الخبز. أفلح القريبون في الاستحواذ عليها، والتهموا الخبز في لحظة خاطفة. أمَّا أنا فقد كنت في الجهة المقابلة للباب ولم أرَ الخبز،

وفقط تراءى لي في لحظة ما أنني شممت رائحته، عندما سمعت الصراخ: «خبز!». الرائحة فقط.

لا أذكر عدد الأيَّام التي انصرمت في الطريق، لكن الجوَّ في العربة أصبح لا يُطاق؛ حيث لم يوجد في العربة مرحاضٌ لقضاء الحاجة، سواء للبول أو التغوُّط. وبدأ قصف القطار، واقتُلع سقف العربة التي كنت فيها. لم أكن وحيداً، بل مع صديقي جريشكا، وهو مثلي في العاشرة من العمر، وتعلَّمنا قبل الحرب في صفٍّ واحدٍ في المدرسة. ومنذ اللحظات الأولى لبدء القصف بالقنابل أمسكنا بيد بعضنا البعض، بغية ألا يفقد أحدنا الآخر. وعندما اقتُلع السقف قرَّرنا الخروج من العربة والهرب. الهرب! لقد بات واضحاً لدينا أنهم ينقلوننا باتجاه الغرب، إلى ألمانيا.

سادت العتمة في الغابة، وتطلَّعنا إلى الخلف؛ كانت النيران تلتهم عربات قطارنا كلَّها، وأصبح شعلة نار واحدة واللهب يتصاعد عالياً منه. سرنا طوال الليل، وعند حلول الفجر وصلنا إلى قرية ما، لكن لم يكن فيها أحد، وبدلاً من البيوت – وهذا ما رأيته للوهلة الأولى – تنبجس المداخن السوداء فقط. وساد الضباب في المكان. سرنا كما في مقبرة، وسط الآثار السوداء، وبحثنا عن شيء يؤكل. المواقد فارغة وباردة، فواصلنا السير أبعد. ولدى حلول المساء بلغنا حريقاً خمد ومواقد فارغة. ومشينا ومشينا... وفجأة سقط جريشا وفارق الحياة؛ لقد توقَّف قلبه عن الخفقان، فجلست بالقرب منه طوال لليل في انتظار حلول الصباح. في الصباح حفرت قبراً في الرمل بيدي ودفنت جريشا. أردت أن أتذكَّر المكان، لكن كيف يستطيع المرء التذكُّر في مكانٍ غريب؟

كنت أمشي ورأسي يدور من الجوع. وفجأة سمعت الأمر: «قفْ! أيُّها الصبي، إلى أين أنت ذاهب؟». سألت: «من أنتم؟». فأجابوني: «نحن من الأنصار».

وعلمت منهم أنني في مقاطعة فيتبسك، ومع مجموعة أنصار أليكسييف.

عندما استعدت قواي طلبت السماح لي بالقتال، فسخروا مني وأرسلوني للمساعدة في المطبخ. لكن وقع حدث، ذاك الحدث، فقد أُرسلت مفرزة استطلاع ثلاث مرَّات إلى المحطَّة لكنها لم ترجعْ. وبعد المرَّة الثالثة أمر قائد الفصيل الجميع بالاصطفاف وقال: «إنني لا أستطيع إرسال زمرة استطلاع للمرة الرابعة. سيذهب المتطوِّعون فقط».

كنتُ أقف في الصف الثاني وسمعت قوله: «من يذهب من المتطوِّعين؟».

فرفعت يدي كما في المدرسة. لكن قميصي كان طويلاً، والأكمام تتدلَّى حتى الأرض. رفعت يدي لكنها لا تُرى، فالاكمام متدلِّية بينما أنا لا أستطيع إخراجها منها.

وأمر القائد: «المتطوِّعون إلى الأمام».

فقمت بخطوة إلى الأمام.

وقال لي القائد: «يا ولدي... يا ولدي...».

أعطوني معطفاً من فرو الضأن وقبَّعة فرو عتيقة تمزَّق أحد طرفيها.

حالما خرجت إلى الطريق العام شعرت أن هناك من يتتبَّع أثري. التفتُّ فلم أجد أحداً. ولفت انتباهي وجود ثلاث أشجار صنوبر كثيفة الأغصان. نظرت بحذر حولي فلاحظت وجود قنَّاصة ألمان هناك. كانوا يُطلقون النار على كلِّ من يخرج من الغابة. ولم يمسّوا الصبيَّ الذي خرج إلى طرف الغابة، زدْ على كونه في معطفٍ ممزَّقٍ من فرو الضأن.

رجعت إلى الفصيلة وأبلغت القائد بوجود قنَّاصة ألمان فوق أشجار الصنوبر. وفي الليل ألقينا القبض عليهم من دون إطلاق رصاصة واحدة

وجلبناهم أحياء إلى موقع الفصيلة. وكانت تلك أوَّل عملية استطلاع أقوم بها.

في أواخر عام 1943، في قرية ستاريه تشيلنيشكي في منطقة بيشينكوفيتش، ألقى القبض عليَّ رجال الـS.S، وانهالوا عليَّ بالضرب بالقضبان، وضربوني بالعقب الحديدية لجزمهم. إن جزمهم كالحجر! وبعد التعذيب سحبوني إلى الشارع وصبُّوا عليَّ الماء. كان ذلك في الشتاء، فغمرتني طبقةٌ داميةٌ من الجليد. لم أدركْ ما هي الدقَّات التي تناهت إلى سمعي؛ كان يجري إعداد مشنقةٍ، ورأيتها عندما أوقفوني على رجلي ووضعوني على البرميل. وما هو آخر ما تذكَّرته؟ إنها رائحة الخشب الطري... إنها رائحةٌ حيَّة.

شُدَّت الأنشوطة، لكن جاء من قطعها... لقد نصب رجال الأنصار كميناً هناك. وعندما ثُبت إلى رشدي عرفت طبيبنا. وقال: «لو تأخَّرنا ثانيتين أخريين، لانتهى كلُّ شيء، ولما استطعت إنقاذك. إذاً أنت ذو حظٍّ سعيد، يا ولدي، لأنك حيٌّ ترزق!».

لقد أبدى رجال الفصيلة عنايةً كبيرةً بي عندما كان جسدي كلُّه تغطِّيه الرضوض والجروح، من مقدمة الرأس وحتى أخمص القدم...

لماذا أنا قصير القامة هكذا؟

ساشا ستريلتسوف – 4 أعوام.
الآن – طيّار

أبي لم يرَني قط.

لقد وُلدتُ في غيابه. كان قد قاتل في حربين: عندما عاد من الحرب الفنلندية، نشبت الحرب الوطنية[1]. فغادر البيت مرَّةً أخرى.

وبقيت في الذاكرة عن أمِّي كيف كنت أسير معها في الغابة، وهي تلقِّنني: «لا تسرعْ. أصغِ إلى الأوراق كيف تتساقط، وكيف يتردَّد الضجيج في الغابة». نحن نجلس معها في الطريق، وهي ترسم الطيور على الرمل بغصنٍ في يدها.

وأذكر أيضاً أنني أردت أن أكون طويل القامة، فكنت أسأل ماما: «هل أبي طويل القامة؟».

فأجابت ماما: «كان طويل القامة ووسيماً جدَّاً. لكنه لم يتفاخرْ بذلك أبداً».

– «إذاً لمَ أنا قصير القامة هكذا؟».

لقد بدأت للتوِّ بالنموِّ والكبر. ولم تتبقَّ لدينا صورةٌ فوتوغرافيةٌ واحدةٌ لأبي، وكنت في حاجة إلى إثبات أنني كنت شبيهاً به.

وطمأنتني ماما: «أنت تشبهه كثيراً... كثيرا جدَّاً».

1 – يقصد بها الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

في عام 1945 علمنا أن أبي استُشهد. كانت أمّي تحبُّه بشدَّةٍ لحدٍّ أنها أُصيبت بالجنون، ولم تعدْ تعرف أحداً، وحتى لم تعرفني. وبقدر ما أتذكَّر فقد عشت دوماً مع جدَّتي. كان اسم جدَّتي شورا، وقد اتَّفقتُ معها، لكي لا يحدث اختلاط في الأسماء، أن اسمي سيكون شوريك، واسمها الجدَّة ساشا.

لم تكن جدَّتي تروي الحكايات؛ لأنها مشغولة منذ الصباح وحتى وقت متأخِّرٍ من الليل في الغسيل والطبخ والأعمال المنزلية الأخرى، وكانت ترعى البقرة. كانت في أيَّام الأعياد تحبُّ استعادة الذكريات حول كيف ولدت. أنا أروي لك ذلك ويتردَّد في أذني صوت جدتي: «كان يوماً دافئاً. ووُلد عجلٌ لبقرة العمِّ إيغنات، بينما تسلَّل اللصوص إلى حديقة العجوز ياكيمشوك. وأنت ظهرت إلى النور...».

كانت الطائرات تحلِّق دوماً فوق البيت، طائراتنا. وفي الصفِّ الثاني قرَّرت بشكل قاطعٍ أن أصبح طيَّاراً.

ذهبت جدَّتي إلى مركز التجنيد، وطلبوا منها جلب وثائقي، بينما لم تكن لديها وثائقي، لكنها أخذت معها التبليغ بشأن وفاة أبي. وعادت إلى البيت وقالت: «سننبش البطاطا، وستسافر إلى مينسك للالتحاق بكلِّية سوفوروف العسكرية».

وقُبيل سفري استدانت دقيقاً وصنعت لي الفطائر. أجلسني القومندان في السيَّارة وقال: «هذا تكريمٌ لك من أجل والدك».

وسافرت في السيَّارة لأوَّل مرَّةٍ في حياتي.

وبعد عدَّة أشهر جاءت جدَّتي إلى الكلِّية وجلبت لي هديةً، تفَّاحة. وطلبت مني راجية: «كُلْ».

لكنني لم أرغبْ في التخلِّي عن الهدية فوراً...

إنها تنجذب إلى رائحة البشر...

ناديا سافيتسكايا – 12 عاماً.

الآن – عاملة.

انتظرت عودة أخي من الجيش. لقد بعث برسالة ذكر فيها أنه سيأتي في شهر حزيران/ يونيو...

وفرحنا؛ سيعود أخي وسنبني بيتاً له. وكان أبي قد جلب جذوع الأشجار بواسطة الخيول، وفي المساء جلسنا جميعاً فوق هذه الجذوع. وأذكر أن أمّي قالت لأبي إن من الواجب بناء بيتٍ كبير، وسيكون لديه عدد كبير من الأحفاد.

نشبت الحرب، وطبعاً لم يعدْ أخي من الجيش. نحن خمس أخوات وأخ واحد، وكان هذا الأخ أكبر الأطفال. راحت ماما تبكي طوال فترة الحرب، وانتظرتْ أخي طوال فترة الحرب. وكما أتذكَّر فإننا كنا ننتظره في كلِّ يوم.

عندما نسمع أن أسرانا يُنقلون إلى مكانٍ ما كنا نُهرع إلى ذلك المكان، وتطهو ماما عشر حبَّات بطاطا، وتلُفها في حزمةٍ وتنطلق بها. وفي إحدى المرَّات لم يكن لديها ما تأخذه معها، بينما كانت الحبوب قد نضجت في الحقول؛ فقطعنا السنابل وفركنا الحبوب بأيدينا. وصادفتْنا دوريةٌ ألمانيةٌ تتولَّى حراسة الحقول، فنثروا ما لدينا من حبوب وأشاروا إلينا: «قفوا! سنطلق النار عليكم». وصرخت ماما باكية وقبَّلت أقدامهم وتضرَّعتْ

قائلة: «يا سادة! أرجوكم... يا سادة هؤلاء جميعاً أطفالي. أنتم ترون إنهن فتيات جميعاً». وإذ بهم يغيِّرون رأيهم في إعدامنا رمياً بالرصاص وانصرفوا.

وحال انصرافهم أخذت أضحك. أضحك ثمَّ أضحك، ومضت عشر دقائق وأنا أضحك... وعشرون دقيقة وأنا أنفجر من الضحك. عنَّفتْني أمِّي بلا فائدة، ثمَّ ناشدتْني عدم الضحك، بلا فائدة أيضاً. كنت أضحك طوال سيرنا في الطريق، وأدسُّ وجهي في الوسادة، لكنني لا أستطيع التوقُّف عن الضحك. وهكذا بقيت خلال اليوم كلِّه أواصل الضحك. لقد اعتقدوا بأنني... أنت تفهمين ماذا اعتقدوا. أُصيب الجميع بالجزع؛ فقد خافوا من احتمال أنني فقدت عقلي.

وحتى الوقت الحاضر تراني أبدأ بالضحك عندما أرتعب. إنني أضحك بصوتٍ عالٍ... عالٍ.

عام 1944 تم تحريرنا. وعندئذ تلقَّينا رسالةً تبلغنا باستشهاد أخينا. صارت أمِّي تبكي وتبكي حتى أُصيبت بالعمى. وكنا نعيش خارج القرية في الدشم الألمانية لأن القرية كلَّها أُحرقت، واحترق بيتنا القديم وجذوع الأشجار من أجل بناء بيت جديد. لم يبقَ لدينا أيُّ شيء، ووجدنا في الغابة خوذ الجنود وصرنا نطبخ فيها الطعام. إن الخوذ الألمانية كبيرةٌ مثل القدور المصنوعة من الحديد الزهر. كنا نطعم أنفسنا بما يتوفَّر في الغابة، وكنا نخاف الذهاب لجمع الثمار والفطر، إذ بقيت هناك كلاب بوليسية ألمانية كثيرة كانت تهاجم البشر، وتقتل الأطفال الصغار لأكل لحمهم؛ فقد اعتادت على أكل لحم البشر ولعق دمائهم. لهذا كنا حين نخرج إلى الغابة نتجمهر في مجموعاتٍ كبيرة، تتألَّف من نحو عشرين شخصاً. وعلَّمتْنا أمَّهاتنا أنه يجب السير في الغابة والصراخ، وعندئذ تهرب الكلاب خائفة.

وبغية جمع سلَّة كاملة من الثمار تُبحُّ أصواتنا، وتتورَّم حلوقنا. علماً أن الكلاب كبيرة الحجم كالذئاب.

إنها تنجذب إلى رائحة البشر...

لماذا أطلقوا النار على الوجه؟
كانت أمّي آيةً في الجمال...

فولوديا كورشوك - 7 أعوام.
الآن - بروفيسور، دكتور في التاريخ.

كنا نعيش في مدينة بريست الواقعة على الحدود مباشرة...

في المساء ذهبنا إلى السينما نحن الثلاثة؛ ماما وبابا وأنا. علماً أن هذا نادراً ما يحدث، أن نذهب ثلاثتنا إلى مكان ما، لأن بابا كان مشغولاً دائماً؛ فهو مدير دائرة التعليم الشعبي والعلوم في المقاطعة، وغالباً ما يسافر في مهمّات عمله.

آخر مساء من دون حرب، وآخر ليلة...

عندما أيقظتْني ماما وهي تهزُّني، قعقع وهدر وطقطق كلُّ شيءٍ حولنا فجأة. لقد حدث ذلك في وقت مبكّر جدّاً، وكما أتذكَّر، كانت العتمة ما زالت تسود وراء النوافذ. تململت أمّي وأبي، وأعدَّا الحقيبة، ولسببٍ ما كانا لا يجدان ما يجب وضعه فيها.

كان لدينا بيتٌ وحديقةٌ كبيرة. وخرج أبي إلى مكان ما، بينما وقفنا أنا وماما نتطلَّع من النافذة... وقف في الحديقة عسكريون يتحدَّثون بلغة روسية ركيكة، وهم يرتدون البزّات العسكرية لجنودنا. قالت ماما إنهم من رجال التخريب، ولم أدركْ كيف يوجد في حديقتنا، التي بقي فيها السماور منذ مساء أمس، مخربون! فأين رجالنا من فصائل حرس الحدود؟

غادرنا المدينة مشياً على الأقدام. وانهار أمام عينيَّ وبصري مبنى حجري، وطار جهاز هاتف من النافذة. وجدت في وسط الشارع سريراً عليه جثَّة فتاةٍ قتيلةٍ تحت اللحاف، وبدا كما لو أن أحدهم حمل السرير ووضعه هناك. كان كلُّ شيء سليماً سوى إصابة اللحاف بحروق قليلة. امتد وراء المدينة فوراً حقل الشوفان، وكانت الطائرات تُطلق علينا نيران المدافع الرشَّاشة. صار الجميع يسيرون، ليس في الطريق، بل عبر هذا الحقل.

لجأنا إلى الغابة، ولم نعدْ نشعر بالخوف كثيراً. رأيت من الغابة شاحناتٍ كبيرةً كان الألمان فيها، وكانوا يُطلقون الضحكات. وتناهى إلى سمعنا كلام غريب، فيه الكثير من ر- ر- ر...

كان أبي وأمِّي يسأل أحدهما الآخر باستمرار: أين جنودنا؟ أين جيشنا؟ وتصوَّرت في خيالي كيف ينطلق بوديوني على صهوة جواده الجامح، والألمان يهربون رعباً؛ فلا يوجد مثيلٌ لفرساننا. هذا ما كان يؤكِّده لي أبي حتى وقتٍ قريب.

مشينا فترةً طويلة. كنا في الليل نلج القرى حيث يطعموننا ويمنحوننا الدفء. وكان كثيرون يعرفون أبي، كما أن أبي كان يعرف الكثيرين. وأتينا إلى إحدى القرى، وأذكر حتى الآن لقب المعلِّم الذي عاش في تلك القرية: باوك. وكان لديهم بيتان؛ بيت قديم وإلى جانبه جديد. وعرضوا علينا البقاء، وأعطونا أحد البيتين. لكن أبي رفض. رافقنا المعلِّم إلى الطريق العام، وحاولتْ أمِّي إعطاءه نقوداً، لكنه هزَّ رأسه وقال إن النقود لا تُدفع لقاء الصداقة في وقت المحنة. بلغنا مدينة أوزدي مسقط رأس أبي، واستقرَّ بنا المقام لدى جدِّي في قرية مروتشكي.

رأيت رجال الأنصار في بيتنا أوَّل مرَّةٍ في الشتاء، وما زلت أحتفظ في

ذاكرتي بهيئتهم وهم يرتدون أزياء التمويه البيضاء. وسرعان ما التحق أبي بهم في الغابة، بينما بقيتُ مع أمِّي في بيت جدِّي.

كانت ماما تخيط. كلا... كانت جالسةً وراء الطاولة الكبيرة وتطرِّز، بينما كنت أرقد فوق سطح الموقد. دخل الألمانُ البيتَ بمرافقة المختار، أشار المختار إلى أمِّي قائلاً: «هذه هي». وصدر الأمر إلى ماما بالتهيُّؤ للخروج معهم. عندئذ أصابني رعبٌ شديد. اقتادوا ماما إلى الباحة فدعتْني لتودِّعني، لكنني اختبأتُ تحت المصطبة، ولم يستطعْ أحدٌ إخراجي من هناك.

أُلحقت أمِّي بامرأتين أخريين كان زوجاهما مع رجال الأنصار أيضاً، ونقلوهنَّ في سيَّارة. لم يعرفْ أحدٌ إلى أين، أو إلى أيِّ اتِّجاه. في الغداة عُثر على جثثهن فوق الثلج بالقرب من القرية... لقد تساقط الثلج طوال الليل. كلُّ ما أتذكَّره حين جلْب جثمان أمِّي أنهم أطلقوا النار على وجهها، وكانت هناك في خدِّها عدَّة ثقوبٍ سوداء ناجمةٌ عن الرصاص. ورحت أسأل جدِّي: «لماذا أطلقوا النار على وجهها؟ أمِّي كانت آية في الجمال...». دفنت ماما، وسار وراء النعش جدِّي وجدَّتي وأنا. كان الناس خائفين. وجاؤوا للتعزية في الليل... بقي باب بيتنا مفتوحاً طوال الليل، أمَّا في النهار فكنا وحدنا. لم أفهم سبب قتل أمِّي، حيث إنها لم ترتكب أية جريرة؛ كانت تجلس وتطرِّز...

وحدث مرَّةً أن جاء أبي في الليل وقال إنه سيأخذني معه، وكنت سعيداً. حياتي في الفترة الأولى من وجودي مع الأنصار لم تختلفْ كثيراً عن حياتي في بيت جدي. كان أبي يذهب في مهمَّة بينما أبقى أنا لدى أحد ما في القرية. وأذكر مرَّةً أنهم جلبوا زوج صاحبة البيت الذي كنت فيه قتيلاً على زحَّافة، وصارت تدقُّ رأسها بالطاولة التي وُضع عليها النعش وتكرِّر كلمةً واحدةً هي "الطغاة".

غاب أبي فترةً طويلة، وكنت أنتظره وأفكِّر: «توجد ماما وجدَّتي وجدِّي في مكان ما بعيد، فهل سأبقى وحيداً أنا الصغير إذا ما جُلب أبي قتيلاً فوق زحَّافة؟». وعندما رجع أبي تراءى لي أنه غاب فترة أبدية. وبينما كنت أنتظره عاهدت نفسي بأن أدعوه فقط بلفظة الجمع للاحترام "أنتم"؛ لقد أردتُ بذلك تأكيد مدى محبَّتي واشتياقي إليه، وبأنه الوحيد لديَّ. ويبدو أن أبي لم يلاحظْ في البداية كيف كنت أخاطبه، ثمَّ سألني: «لماذا تخاطبني بـ"أنتم"؟». فأوضحتُ له لماذا قطعت عهداً على نفسي والسبب. وقال لي: «أنت أيضاً الوحيد لديَّ، ولهذا يجب أن نخاطب أحدنا بلفظة المفرد؛ فنحن من أقرب الناس إلى أحدنا الآخر في هذه الدنيا». كما رجوته ألا نفترق أبداً، فأكَّد لي قائلاً: «أنت أصبحت ولداً كبيراً، أنت رجل».

بقي في ذاكرتي حنان أبي عليَّ، وكيف جرى إطلاق النار علينا فانبطحنا على الأرض الباردة في شهر نيسان/ إبريل، إذ لم ينبت العشب بعد. ووجد أبي حفرةً عميقةً قريبةً وقال لي: «انبطح في الأسفل، أمَّا أنا فسأبقى في الأعلى، وإذا ما قُتلتُ فستبقى أنت حيَّاً». كما رعاني الجميع في الفصيلة. وأذكر كيف اقترب مني رجلٌ مسنٌّ من الأنصار، ورفع قبَّعتي وراح يمسِّد رأسي طويلاً، وقال لأبي إن لديه أيضاً ولداً يحيا في مكان ما. وعندما سرنا في المستنقع حيث المياه تصل إلى الحزام، جرَّب أن يحملني، لكنه أُصيب بالتعب بسرعة. وعندئذٍ أخذ رجال الأنصار يحملونني بالتناوب. أنا لن أنسى ذلك أبداً، ولن أنسى كيف وجد رجالنا القليل من نبات الحميض فأعطوني إيَّاه، بينما ناموا هم جياعاً.

في ملجأ الأطفال في غوميل، الذي نقلوني إليه مع عدَّة أطفال آخرين من أبناء الأنصار في الطائرة، وذلك فور تحرير المدينة، سلَّمني أحدهم نقوداً أرسلها إليَّ أبي، ورقة نقدية حمراء كبيرة. فذهبت مع أقراني الصبية إلى السوق واشترينا الحلوى بالمبلغ كلِّه، وكانت كميَّتها كبيرة جدَّاً،

فوُزِّعتْ على الجميع بكفاية. وسألتني المربِّية: «ماذا فعلت بالنقود التي أرسلها أبوك؟». فاعترفت لها بأنني اشتريت الحلوى، فدُهشت: «بالمبلغ كلِّه؟».

حُرِّرتْ مينسك، وجاء رجل ما وقال إنه سيأخذني إلى أبي. كان دخول عربة القطار صعباً بسبب الازدحام، فسلَّموني إليه عبر النافذة.

التقيت بأبي، ورجوته مجدَّداً ألا نفترق أبداً، لأن بقائي وحيداً يؤلمني. وأذكر أنه استقبلني ليس وحيداً، بل مع أمِّي الجديدة. فاحتضنت رأسي، وكنت قد اشتقت كثيراً إلى حنان أمِّي وسُررت كثيراً لملامستي لها، لذا غفوت في السيَّارة فوراً ورأسي على كتفها.

في سن العاشرة التحقت بالصفِّ الأوَّل، لكنني كنت كبيراً وأُجيد القراءة. وبعد نصف عام نقلوني إلى الصف الثاني، وكنت أحسن القراءة وليس الكتابة، بينما كنت أُجيد إطلاق النار.

في أحد الأيَّام لم أجدْ في صوان الملابس مسدَّس أبي، وقلبت الصوان كلَّه رأساً على عقب ولم أجد المسدَّس.

وسألت أبي لدى عودته من مكان عمله: ما العمل؟ ماذا ستفعل الآن؟

فأجابني: سأعلِّم الأطفال.

ارتبكت... وكنت أعتقد أن العمل هو الحرب فقط...

أنت تطلب أن أطلق النار عليك...

فاسيا بايكانشيف – 12 عاماً.

الآن – أستاذ في مجال التعليم الصناعي.

إنني غالبا ما أتذكَّر ذلك. كان ذلك في الأيَّام الأخيرة لطفولتي...

لقد شاركتُ مدرستنا كلُّها في الألعاب العسكرية في فترة العطلة الشتوية. وقبل ذلك تدرَّبنا على الاصطفاف وصنعنا البنادق الخشبية، وصنعنا معاطف التمويه وأزياء المرشدين الصحيِّين. وجاء المشرفون علينا من الوحدة العسكرية في طائرة صغيرة، وغمرنا الفرح الشديد!

وفي حزيران/يونيو حلَّقت فوقنا الطائرات الألمانية وأنزلت الجواسيس. كانوا شبَّاناً يرتدون جاكتات مقلَّمة رمادية وعلى رؤوسهم قبَّعات "كيبي". وقد ألقينا مع الكبار القبض على عدد منهم وسلَّمناهم إلى المجلس الريفي وافتخرنا كثيراً بمشاركتنا في عملية عسكرية، ذكَّرتْنا بالألعاب العسكرية الشتوية. لكن سرعان ما ظهر آخرون... ولم يكونوا بجاكتات مقلَّمة وقبَّعات "كيبي"، بل في زيٍّ عسكريٍّ أخضرَ وبأكمامٍ مرفوعةٍ، وبجزمٍ عاليةٍ ذات أعقاب حديدية، ويحملون على ظهورهم حقائب من جلد العجول، وفي الجانب تتدلَّى الصفائح الطويلة للأقنعة الواقية من الغازات، وتتعلَّق في أكتافهم الرشَّاشات. كانوا شبعين وأجسادهم ثقيلة. كانوا يغنُّون ويصيحون: «تسفاي مونات – موسكو كابوت». وأوضح لي أبي قائلاً: «"تسفاي مونات" تعني شهرين». شهران

فقط؟ فقط؟ إن هذه الحرب لم تكن شبيهة بالحروب التي مارسنا ألعابها منذ فترة قريبة وحظيت بإعجابي.

في الأيَّام الأولى لم يتوقَّف الألمان في قريتنا، ماليفيتشي، وزحفوا نحو محطَّة جلوبين. كان أبي يعمل هناك، لكنه لم يذهبْ إلى المحطَّة، وانتظر عودة قوَّاتنا بعد فترة قريبة من أجل طرد الألمان إلى الحدود. ونحن وثقنا بأبي وانتظرنا مجيء جنودنا أيضاً. كنا ننتظر وصولهم بين يوم وآخر، لكنهم، جنودنا، كانوا راقدين صرعى حولنا: في الطرق والغابة والترع والحقول، وفي الحدائق البيتية، وفي حفر استخراج الفحم... كانوا راقدين صرعى سوية مع بنادقهم، ومع قنابلهم اليدوية. وازداد عددهم يوماً بعد يوم، جيش كامل، ولم يدفنهم أحد.

أعد أبي الحصان وذهبنا إلى الحقل. أخذنا نجمع جثث القتلى، وحفرنا حفرة وصففنا الجثث فيها بمعدَّل عشر واثنتي عشر جثَّة... امتلأت حقيبتي المدرسية بالوثائق. وكما أذكر فإن العناوين تشير إلى أنهم من مدينة أوليانوفسك في مقاطعة كويبيشيف.

بعد عدَّة أيَّام وجدتُ أبي قتيلاً في الغابة مع صديقه المقرَّب فاسيا شيفتسوف البالغ من العمر أربعة عشر عاماً. جئت إلى المكان مع جدِّي، فبدأ القصف الجوِّي. دفنَّا فاسيا لكننا لم نستطع دفن أبي؛ فبعد القصف لم نجد لأشلائه أثراً. وضعنا في المقبرة صليباً فحسب، صليباً منفرداً، ودفنَّا تحته بذلة أبي التي كان يرتديها في الاحتفالات.

بعد مرور أسبوع أصبح من غير الممكن تجميع جثث الجنود، وغدا صعباً رفعُها؛ إذ كانت المياه تُثقل الزي العسكري... فجمعنا بنادقهم، ووثائق الجنود.

لقي جدِّي حتفه في أثناء القصف...

كيف سأحيا بعد ذلك؟ كيف أحيا بلا أب؟ وبلا جد؟ فبكت ماما وبكيت. ما العمل بالسلاح الذي جمعناه ودفنَّاه في مكانٍ أمين؟ لمن سنعطيه؟ لم يكن هناك من نستشيره. وماما تبكي.

في الشتاء أجريت اتصالاً مع رجال المقاومة السرِّية، وقد فرحوا كثيراً لاستلام هديَّتي، ونقلوا الأسلحة إلى رجال الأنصار.

مضت فترة من الزمن، وانا لا أذكر كم، ربَّما أربعة أشهر. أذكر أنني في ذلك اليوم كنت أجمع البطاطا المتجمِّدة في الحقل من محصول العام الماضي، ورجعت إلى البيت مبلَّلاً وجائعاً، ولكن معي ملء دلوٍ من البطاطا. وحالما نزعت حذائي تردَّد طرقٌ على سقف القبو الذي كنا نعيش فيه. وسأل أحدهم: «هل بويكاتشيف هنا؟». عندما نظرت من فجوة القبو أمروني بالخروج، ووضعت قبَّعة الفرو على رأسي بسرعة، وعلى الفور انهالوا عليَّ بالضرب بالسوط.

كانت تقف بالقرب من القبو ثلاثة جياد يمتطيها ألمانيان وشرطي. ترجَّل الشرطي عن الحصان، وربطني بحزامٍ من رقبتي إلى السرج. وراحت أمِّي ترجوهم: «دعوني أطعمْه». وذهبت إلى القبو لجلب رغيفٍ من البطاطا المتجمِّدة، لكنهم انطلقوا بسرعة على الجياد، ونقلوني مسافة خمسة كيلومترات تقريباً إلى قرية فيسيولي.

في الاستجواب الأوَّل وجَّه إليَّ الضابط الفاشي أسئلة عادية: لقبي واسمي وسنة ميلادي. من أبي وأمِّي؟ وتولَّى الترجمة شرطيٌّ شاب. في نهاية الاستجواب قال: «ستذهب الآن وتنظِّف حجرة التعذيب. انظرْ هناك إلى المصطبة جيِّداً». أعطوني دلو ماء ومكنسةً وقطعة قماش، واقتادوني إلى الحجرة.

هناك رأيت مشهداً فظيعاً: توجد في وسط الحجرة مصطبة واسعة

تُثبَّت فيها أحزمة... ثلاثة أحزمة لربط الإنسان من رقبته وخصره وقدميه. ووجدت في ركن الحجرة عصى غليظة من أشجار البتولا ودلو ماء، والماء أحمر اللون. وعلى الأرض برك من الدم... وبول... وبراز.

كنت أجلب وأجلب الماء. وتحوَّلت قطعة القماش التي كنت أغسل بها إلى حمراء بالرغم من كلِّ شيء.

في الصباح استدعاني الضابط وأمطرني بالأسئلة: «أين السلاح؟ مع من تتَّصل من رجال المقاومة السرِّية؟ ما هي المهمَّات التي كُلِّفتَ بها؟».

لكنني أنكرت كل شيء، وأخبرتهم أنني لا أعرف شيئاً، وأنني ما زلت صغيراً، وكنت أجمع في الحقل البطاطا المتجمِّدة وليس السلاح.

ووجَّه الضابط الأمر إلى الجندي: «خذه إلى القبو».

أدخلوني إلى قبو فيه ماء بارد. وقبل ذلك أروني أحد رجال الأنصار الذي أخرجوه من هناك. إنه لم يتحمَّل التعذيب، وغرق... والآن ترقد جثَّته في الشارع.

كان منسوب الماء يصل حتى الرقبة. وشعرت كيف ينبض قلبي والدم في عروقي، وكيف يدفئ الدم الماء حول جسدي. كنت أخشى أن أفقد الوعي وأن أختنق... وأغرق.

في الاستجواب الثاني: وُضعتْ فوَّهة المسدَّس بالقرب من أذني، وأُطلق الرصاص؛ فتهشَّمت اللوحة الخشبية في الأرض. كان إطلاق النار نحو الأرض. ثمَّ ضُربت على فقرة الرقبة فسقطتُ. كان يقف فوقي رجلٌ ضخم الجثَّة وثقيل، وتنبعث منه رائحة النقانق والخمر البيتي الصنع. أُصبت بالغثيان، لكن لم يخرج شيء من فمي. وسمعت من يقول: «ستلحس الآن بلسانك ما يسقط منك على الأرض... بلسانك، مفهوم؟ مفهوم أيُّها الجرو الأحمر؟!».

في الزنزانة لم أستسلمْ للنوم، وفقدت الوعي من الألم. وبدا لي تارة أنني أقف في صفّ التلامذة في المدرسة وتقول معلّمتي لوبوف ايفانوفنا لاشكيفتش: «في الخريف ستأتون إلى الصفّ الخامس، والآن إلى اللقاء، يا أولاد. وخلال الصيف ستكبرون. وفاسيا بويكاتشيف أصغركم الآن، وسيصبح أكبركم». إن لوبوف ايفانوفنا لا تبتسم...

وتارة أخرى تراءى لي أنني أسير مع أبي في الحقل للبحث عن الجنود القتلى. وسار أبي أمامي، ووجدت تحت شجرة الصنوبر شخصاً... كلا ليس شخصاً، بل بقاياه. لا توجد يدان ولا ساقان. كان ما زال حيّاً، وصار يصرخ: «أطلق عليَّ النار يا ولدي...».

أيقظني الشيخ المحتجز معي في الزنزانة وقال: «لا تصرخْ يا بنيَّ».

* «بماذا أصرخ؟».

- «أنت تطلب مني أن أطلق النار عليك».

انصرمت عشرة أعوّام، وأنا أعجب: هل أنا حيٌّ حقّاً؟!

أنا حتى بدون منديل يغطِّي الرأس..

ناديا غورباتشوفا – 7 أعوام.

الآن – موظفة تلفزيون.

يهمُّني في الحرب ما يتعذَّر إيضاحه، وأنا حتى الآن أفكِّر فيها كثيراً...

لا أتذكَّر كيف ذهب أبي إلى الجبهة.

لم يقولوا لنا؛ لقد أشفقوا علينا. أخذني أبي مع أختي في الصباح إلى روضة الأطفال، كالعادة دائماً. وفي المساء سألنا طبعاً لم لا يحضر أبونا، لكن أمَّنا طمأنتنا وقالت: «سيعود قريباً، بعد عدَّة أيَّام...».

بقي في ذاكرتي الطريق. انطلقت فيه شاحنات وسُمع فيها خوار الأبقار وقباع الخنازير، وفي إحدى الشاحنات أمسك صبيٌّ بيديه نبات الصبَّار وكان يتأرجح فيها يميناً وشمالاً، فضحكنا أنا وأختي لمرآه. كنا أطفالاً، وشاهدنا الحقول، ورأينا الفراشات. أعجبنا الرحيل في الشاحنات. وكانت ماما ترعانا، فنحن كنا نجلس تحت "جناحيها". وبقي في مكان ما من الذاكرة وقوع نكبة ما، لكننا ما دمنا مع ماما فسيكون كلُّ شيء على ما يُرام في المكان الذي نسافر إليه. لقد حمتْنا من القنابل، ومن أحاديث الكبار المترعة بالفزع، ومن كلِّ جائحة. وإذا ما استطعنا قراءة ما هو مكتوب على وجه أمِّنا، لقرأنا كلَّ شيء فيه. لكنني لا أتذكَّره بل أتذكَّر اليعسوب الكبير الذي حطَّ على كتف أختي، فصرخت: «طائرة!». وقفز الكبار لسبب ما من العربات وصاروا يتطلَّعون إلى السماء.

جئنا إلى جدِّنا في قرية غوروديتس بمنطقة سينينسك. عائلته كبيرة، فأقمنا في المطبخ الصيفي. وصارت تطلق علينا تسمية "أهل الداتشا"[1] ولازمتْنا هذه التسمية حتى نهاية الحرب. أنا لا أذكر ما إذا لعبنا، وعلى أي حال إننا في العام الأوَّل من الحرب لم نمارس الألعاب الصيفية. شبَّ أخي الأصغر، وكنا نعتني به، لأن ماما كانت مشغولة في تنظيف الطرق والغرس والخياطة. وعندما تتركنا لوحدنا تتوزَّع الأعمال بيننا؛ فيجب غسل الملاعق والأطباق والأرضية وإيقاد النار في الموقد وجمع الحطب ليوم غد، وجلب احتياطي الماء، ولم نكن نستطيع حمل الدلو المملوء بالماء، ونحمله ممتلئاً إلى النصف. وفي المساء كانت ماما توزِّع علينا المهمَّات: ستكونين المسؤولة في المطبخ، وأنت المسؤولة عن العناية بالأخ. وكانت كلٌّ واحدة منا تقوم بمهمَّتها.

كان ذاك زمن الجوع، ولكن ظهرت لدينا قطَّة ومن ثمَّ كلب، وكانا من أفراد الأُسرة، وكنا نتقاسم كلَّ شيء معهما. وأحياناً لا يكفي الطعام من أجل القطَّة والكلب، فكان كلٌّ واحد منا يخبِّئ سِرَّاً شيئاً ما من أجلهما. وعندما لقت القطَّة مصرعها بسبب شظايا قنبلة، كانت خسارة لا تعوَّض لم نستطع تحمُّلها؛ فبكينا طوال يومين، ودفنَّاها بمراسم وبذرف الدموع، ووضعنا صليباً وغرسنا الأزهار وكنا نسقيها.

إنني أتذكَّر حتى الآن دموعنا، وما أكثر ما بكينا، حتى أنني لا أستطيع حتى الآن اقتناء قطَّة. وأرادت ابنتي حين كانت صغيرة أن نشتري لها كلباً، ولكنني لم أستطع تلبية طلبها.

ثم حدث لنا أمر ما. فقد بدأنا لا نخاف الموت.

جاءت شاحنات ألمانية كبيرة وطُرد الجميع من البيوت، وأُرغمنا على

1- أي البيت الريفي. (المترجم).

الوقوف في صفٍّ، وبدأ العد: «أين، تسفاي، دراي...». ماما كانت التاسعة واقتيدت العاشرة للإعدام رمياً بالرصاص. كانت جارتنا... وحملت ماما أخي بيديها، فسقط من يديها.

بقيت في ذاكرتي الروائح. وعندما أرى الآن الفاشيين في السينما أشمُّ رائحة الجنود، رائحة الجلود والجوخ الممتاز والعرق...

في ذلك اليوم كانت مناوبة أختي للعناية بأخينا، أمَّا أنا فكنت أعزق التربة في الحقل. أنا أنحني على شتلات البطاطا، ولن يراني أحد، علماً أن المرء في الطفولة يرى كلَّ شيء كبيراً وعالياً. وعندها لاحظت الطائرة... كانت تحوم فوقي، ورأيت الطيَّار بوضوح، ووجهه الفتي. انطلقت زخَّة رشَّاشة قصيرة: باخ-باخ! واستدارت الطائرة مرَّةً أخرى. لم يصبُ إلى قتلي، بل كان يسلِّي نفسه. وقد أدركت ذلك بعقلي الطفولي آنذاك. بينما لم يلف رأسي حتى بمنديل، فلم يتوفَّر شيء لتغطية الرأس.

ما هذا؟ كيف يمكن تفسيره؟ إنه أمر شيِّق أن أعرف إذا ما كان هذا الطيَّار ما زال على قيد الحياة، ماذا يستعيد من ذكريات؟

لقد مضت تلك اللحظة حين كنت أقرِّر: هل سأُقتل بالرصاص أم أموت رعباً؟ وحلَّت مرحلة وسطية: لقد وقعت مصيبة واحدة، بينما لا يعرف الناس بعد ما هي الأخرى، وكان هناك الكثير من الضحك. وصاروا يتلاسنون ويسخرون من بعضهم البعض: من وأين يختبئ وكيف هربوا وكيف انطلقت الرصاصة من دون أن تصيب أحداً. أنا أتذكَّر هذا جيِّداً. وحتى نحن الأطفال كنا نجتمع ونسخر من أحدنا الآخر: من خاف ومن لم يخف. كنا نضحك ونبكي في آن واحد.

إنني أستعيد الذكريات عن الحرب لكي أدرك جلية الأمر... وإلا فما معنى ذلك؟

كانت لدينا دجاجتان. وعندما كان يقال لهما: «سكوت، الألمان

قادمون!». كانتا تلتزمان الصمت. كانتا تجلسان بهدوء سوية معنا، ولا تصدر عن إحداهما أي صوت. ما أكثر الدجاجات المدربة التي رأيتها فيما بعد في السيرك! لكنها لم تثرْ دهشتي. أمَّا دجاجتانا فكانتا تضعان بانتظام في الصندوق تحت السرير، بمعدَّل بيضتين في اليوم، وكنا نشعر بأننا أثرياء جدَّاً.

على الرغم من كل ذلك كان لدينا شجرة عيد ميلاد في العام الجديد. طبعاً ماما كانت تذكر أننا في سنِّ الطفولة. وكنا نصنع من الكتب صوراً زاهية، ونصنع كرات من الورق: أحد الجانبين أبيض والآخر أسود، كما نصنع ضفائر من الزهور من الخيوط القديمة. وفي هذا اليوم كان بعضنا البعض يتبادل الابتسامات، وبدلاً من الهدايا كنا نضع قصاصات ورق فيها رسائل تحت شجرة عيد الميلاد.

لقد كتبت في رسالتي إلى ماما ما يلي: «ماموليتشكا، إنني أحبُّكِ جدَّاً جدَّاً، جدَّاً!». كنا نتبادل الهدايا بشكل كلمات.

مضت الأعوام... وما أكثر الكتب التي قرأتها! لكنني أعرف عن الحرب منها أقل بكثير ممَّا عرفته حين كنت طفلة.

لايوجد في الشارع من ألعب معه...

فاليا نيكيتينكو، 4 أعوام.

الآن – مهندس.

ينطبع في ذاكرة الطفولة كلُّ شيء كما في الألبوم، بشكل صور منفردة...

قالت ماما راجية: «لنركض، لنركض! نهرول ونهرول!».

يداها مشغولة. بينما أنا أتدلَّل: «ساقاي تؤلمانني».

فيدفعني أخي ذو الأعوام الثلاثة: «لنغكض (لم يكن يلفظ حرف الراء)، وإلا سيلحق بنا الألمان!»

"فنغكض" سوية صامتين.

كنت أخبِّئ رأسي ودميتي لدى سقوط القنابل، والدمية أصبحت بلا ذراعين وساقين، فأبكي من أجل أن تضمِّدها أمِّي.

جلب أحدهم منشوراً إلى أمِّي، وأنا كنت أعرف ما فيه. إنها رسالة كبيرة من موسكو، رسالة طيِّبة. كان يتحدَّث مع جدَّتي، وأنا أفهم أنها من عمِّنا الذي يحارب مع الأنصار. كانت تسكن إلى جوارنا عائلة شرطي، والأطفال يتفاخرون بآبائهم. فيقول صبي: «لدى أبي رشاشّ».

وأنا أيضاً أريد التفاخر: «ونحن جلب لنا العم رسالة...».

وقد سمعت ذلك زوجة الشرطي، فجاءت إلى أمِّي محذِّرة، ستداهم أسرتنا مصيبة كبيرة اذا ما عرف ابنها أقوالي، أو قام أحد الأطفال بوشاية.

استدعتْني ماما من الشارع وقالت لي: «يا بنيَّتي، هل ستكفِّين عن الحديث؟».

* «حسناً!».

- «لا يجوز الحديث».

* «هل يمكنه أن يتحدَّث أمَّا أنا فلا؟».

عندئذ أخرجتْ عوداً من المكنسة، لكنها أشفقتْ عليَّ ولم تضربْني. اقتادتني إلى الركن وقالت: «لن تتحدَّثي، وإلا سيقتلون أمَّك».

* «سيأتي عمِّي في طائرة من الغابة وينقذك».

وهكذا غفوت في مكاني في الركن.

النيران تلتهم بيتنا، وحملوني وأنا نائمة. احترق المعطف والحذاءان. بينما أنا اسير بجاكتة أمِّي التي تصل إلى الأرض.

صرنا نعيش في القبو. خرجت من القبو وشممت رائحة عصيدة الحنطة مع الدهن، ولا يوجد حتى الآن من طعام ألذَّ من عصيدة الحنطة مع الدهن. وصاح أحدهم: «جاء جنودنا!». كانت ترابط في حديقة العمَّة فاسيليسا عربة مطبخ الجنود الميداني - هكذا تدعوها ماما - أمَّا أبناء العمَّة فاسيليسا فيدعونها "الجدَّة فاسيا". وكانت توزِّع علينا العصيدة في الأوعية. كيف أكلناها، أنا لا أعرف، إذ لم تكن لدينا ملاعق...

أعطوني قدح حليب، بينما أنا نسيته في زمن الحرب. صبُّوا الحليب في قدح فسقط مني وانسكب. فرُحت أبكي، واعتقد الجميع أنني أبكي بسبب القدح المكسور، بينما بكيت بسبب الحليب الذي انسكب. إنه طيِّب المذاق جدَّاً، وكنت أخشى ألا يعطوني المزيد منه.

بعد الحرب بدأت الأمراض، جميع الأمراض، وأُصيب جميع الأطفال بالمرض. لقد عانوا من المرض أكثر ممَّا في فترة الحرب. هذا غير مفهوم، حقَّاً!

وباء الدفتريا... الأطفال يفارقون الحياة، وقد هربت متخفِّيةً لحضور جنازة التوأمين من أبناء جيراننا الذين ربطتْني بهم أواصر الصداقة. وقفت عند النعشين بمعطف أمِّي حافية القدمين. فسحبتْني أمِّي من يدي من هناك. لقد خشيتْ، وكذلك جدَّتي، أن تصيبني عدوى الدفتريا. لا، إنني أسعل فقط.

لم يبقَ في القرية أحدٌ من الأطفال. ولم يبقَ من ألعب معه في الشارع...

فتحت النافذة في الليل...
وأعطيت الأوراق للريح...

زويا ماجاروفا – 12 عاماً.

الآن – عاملة بريد.

رأيت ملاكاً...

لقد ظهر أمامي، جاءني في الحلم عندما نقلونا إلى ألمانيا في عربة قطار. لم أرَ أيَّ شيء هناك، حتى ولوشذرة من السماء. فجاء...

ألا تخافينني؟ كلماتي؟ وكنت أسمع الأصوات تارة، وأرى الملاك تارةً أخرى، وأبدأ بالحديث، ولا يريد كلّ واحد أن يصغي إليَّ، ونادراً ما يدعوني للقيام بزيارة، ولحضور مائدة العيد. حتى الجيران. أنا أتحدَّث وأتحدَّث... ربَّما أصبحت عجوزاً؟ لا أستطيع التوقُّف...

دعني أبدأ من البداية. في العام الأوَّل للحرب كنت أعيش مع ماما وبابا، ومارست مختلف الأعمال، فقد حصدت المحصول وحرثت التربة، وقطعت الأعشاب وجرشت المحصول. وكنا نعطي كلَّ شيء للألمان: الحبوب والبطاطا والبازلّاء. كانوا يأتون في الخريف راكبين الجياد، ويرتادون البيوت ويجمعون المحاصيل... كيف ذلك؟ لقد نسيت الكلمة: "الضريبة الزراعية". وكان رجالنا من الشرطة يأتون معهم أيضاً، وكانوا جميعاً من معارفنا من القرية المجاورة. هكذا عشنا. ويمكن القول

إننا اعتدنا ذلك. وقيل لنا إن هتلر يقف على أبواب موسكو، وفي أطراف ستالينغراد.

وفي الليالي كان يأتي رجال الأنصار. وقالوا عكس ذلك تماماً: ستالين لن يخسر موسكو، ولن يخسر ستالينغراد.

أمّا نحن فكنا نواصل الحرث والحصاد. وفي أيّام العطلة مساءً، وفي الأعياد، كانت تُقام عندنا حفلات الرقص. كنا نرقص في الشارع، وتعزف آلة الهارمونيكا.

وأذكر ما حدث في عيد أحد الشعانين؛ فقد قطعنا أغصان شجرة الصفصاف وذهبنا إلى الكنيسة. احتشد الناس في الشارع، وانتظرنا مجيء عازف الهارمونيكا. وعندئذ جاء الألمان في شاحنات كبيرة مع الكلاب البوليسية، فأحاطوا بنا وأمرونا بالركوب في الشاحنات، وكانوا يضربوننا بأعقاب البنادق. صار البعض يبكي والبعض الآخر يصرخ، وعندما جاء آباؤنا وأمّهاتنا كنا في الشاحنات، تحت الغطاء المشمَّع. كانت محطَّة القطار قريبةً من قريتنا، وهناك أُعدَّت عربات القطار الفارغة، وراح أحد رجال الشرطة يدفعنا قسراً إلى داخل العربة بينما كنت أمانع. ولفَّ ضفيرتي على ذراعه وقال: «لا تصرخي يا حمقاء! إن الفوهرر يحرِّركم من ستالين».

* «وماذا سنفعل في بلادٍ غريبة؟».

قبل هذا كانوا يبثُّون الدعاية لكي نذهب إلى ألمانيا، ووعدونا بحياة مرفَّهة.

– «ساعدوا الشعب الألماني في تحقيق النصر على البلشفية».

* «لكنني أريد أن أذهب إلى ماما».

– «ستعيشين في بيت سقفه من القرميد، وتأكلين الشوكولاتة».

* «أنا أريد الذهاب إلى ماما».

أووه! لو كان المرء يعرف قدره لما عاش حتى الصباح.

أدخلونا العربات وانطلقوا بنا. كان الجميع في العربة من أبناء مقاطعتنا، مقاطعة فيتيبسك، من قرى مختلفة. وجميعهم يافعون مثلي. وسألوني: «وأنت كيف اعتقلوك؟».

* «في ساحة الرقص».

فقدت وعيي بسبب الجوع والخوف. كنت راقدة، مغمضة العينين. وعندئذ ولأوّل مرّة رأيت، هناك، رأيت الملاك... إنه ملاك صغير ذو جناحين، كالطائر. وتراءى لي أنه يريد إنقاذي. وفكّرت: «كيف سينقذني، فهو صغير جدّاً؟». كانت تلك أوّل مرّةٍ أراه فيها.

العطش... كنا جميعا نعاني من العطش، لدرجة أن اللسان يتدلّى من الفم، ولم أستطع إعادته إلى الداخل. القطار انطلق بنا في النهار وألسننا مدلاة، وأفواهنا مفتوحة. أمّا في الليل فكان الوضع أخفّ وطأة.

إنني سأتذكّر ذلك طوال حياتي، ولن أنساه أبداً...

كانت توجد في ركن العربة دلاء مخصّصة للتبوُّل في أثناء سفرنا. وحدث أن صبية زحفت إلى تلك الدلاء، وأمسكت بيديها أحد الدلاء وصارت تشرب منه. كانت تشرب بنهم... وبعد ذلك بدأت تتقيّأ، تقيّأتْ وعادت إلى الدلو مرّةً أخرى، فتقيّأتْ مرّةً أخرى...

أووه! لو عرف الإنسان قدره مسبقاً.

إنني أتذكّر مدينة ماغديبورغ. هناك قصُّوا شعرنا كلّياً وطلوا أجسادنا بسائل أبيض من أجل التعقيم. وصار الجسد يحترق بسبب هذا السائل. بدأت جلودنا تتمزّق. العياذ بالله! لم أُردْ أن أحيا، ولم أعدْ أُشفق على أحد: على نفسي وأمّي وأبي. إن عيون الكلاب البوليسية رهيبة. الكلب عادة لا ينظر في عيني الإنسان مباشرة أبداً، بل يبعد نظره جانباً. أمّا هذه

الكلاب فكانت تنظر في عيوننا مباشرة. لم أرغبْ في العيش. وكانت معي صبيةٌ من معارفي، لا أعرف كيف، لكن اعتقلوها سوية مع أمِّها. لربَّما صعدت أمُّها إلى الشاحنة فيما بعد... لا أعرف.

سأتذكَّر إلى الأبد. سأتذكَّر ذلك طوال حياتي.

كانت الصبية واقفة وتبكي لأنها فقدتْ أمَّها حين اقتادونا إلى التعقيم. كانت أمُّها شابَّةً جميلةً، وكنا نسافر في العتمة دائماً: لم يفتح أحد البوَّابة أبداً، وعربات القطار مخصَّصة للشحن، وبلا نوافذ. لم ترَ أمَّها خلال الطريق كلِّه، طوال شهر كامل. وقفت باكيةً فأرادت امرأةٌ عجوزٌ ما مقصوصة الشعر أيضاً أن تمسِّدها بيدها. فهربت من هذه المرأة، ولم تتوقَّف إلا عندما دعتها قائلة: «يا بنيَّتي». وعندئذ فقط عرفت من الصوت أنها أمُّها.

أووووه! ماذا لو... ماذا لو عرف الإنسان؟

كنا طوال الوقت نعاني من الجوع. ولا أتذكَّر أين كنا وإلى أي مكان نقلونا. التسميات، الأسماء... كنا بسبب الجوع نعيش كما لو كنا في حلم.

أذكر كيف كنت أنقل صناديق ما في مصنع الذخيرة والبارود، والجوُّ هناك معبق برائحة الكبريت وبرائحة الدخان. لا يوجد دخان، لكن رائحته موجودة.

وأذكر كيف كنت أحلب البقرة عند أحد الأسياد، كما كنت أقطع الأخشاب، وأعمل عشرين ساعة في اليوم.

كانوا يطعموننا قشور البطاطا والشلغم ويقدِّمون لنا الشاي مع السكر. وكانت زميلتي في العمل تنتزع مني الشاي. إنها صبية أوكرانية، وكانت أكبر مني سناً وقوية. وكانت تقول: «يجب أن أبقى على قيد الحياة. لقد بقيت ماما وحيدة في البيت».

وكانت تردِّد في الحقل الأغاني الأوكرانية الجميلة، الجميلة جدَّاً.

إنني.. إنني لا أستطيع في مرَّةٍ واحدة، وفي أمسية واحدة، أن أروي كيف عشنا. لا يسعني ذلك. قلبي لن يصمد.

أين كان ذلك؟ أنا لا أذكر. كان ذلك في معسكر الاعتقال. وأظن أنني نُقلت إلى بوخينفالد...

كنا نعمل هناك في إفراغ الشاحنات من جثث الموتى ووضعها في أكوام بطبقات... طبقة من الموتى وطبقة من العوارض المطلية بالقطران. طبقة أولى، وطبقة ثانية. وهكذا كنا نعمل منذ الصباح وحتى الليل في إعداد النيران، وهذا مفهوم، من الجثث المشتعلة. وكان يحدث أن يكون بين الجثث أحياء، وأرادوا قول شيء ما لنا، كلمات ما. وقد حظر علينا التوقُّف بالقرب منهم.

أوووه! الحياة البشرية... أنا لا أعلم ما إذا كانت حياة الأشجار والحيوانات التي يروِّضها الإنسان سهلة، الماشية والطيور، لكنني أعرف كلَّ شيء فيما يتعلَّق بالإنسان.

لقد أردت أن أموت، ولم يؤسفْني ذلك حينئذ. واعتزمت الانتحار وبحثت عن سكِّين. فطار إليَّ ملاكي... حدث هذا أكثر من مرَّة. ولا أتذكَّر الكلمات التي طمأنني بها، لكنها كانت كلمات رقيقة حانية، وراح يقنعني فترة طويلة. وعندما حدثَّت الآخرين عن ملاكي اعتقدوا جميعاً بأنه أصابني مسٌّ من الجنون، ولم أجد بالقرب مني منذ وقت بعيد أناساً من معارفي، كان حولي غرباء، غرباء فقط. لم يرغبْ أحدٌ في التعرُّف إلى أيِّ أحد، لأنه سيموت غداً. فلماذا يعرفه إذاً؟ وحدث مرة أن أحببت صبية صغيرة، ماشينكا. كانت بيضاء البشرة ووديعة. ربطتنا أواصر الصداقة خلال شهر؛ والشهر في معسكر الاعتقال هو حياة كاملة، هو الخلود. كانت البادئة في التعرُّف إليَّ: «هل لديك قلم رصاص؟».

* «لا».

- «وقصاصة ورق؟».

* «أيضاً لا. وما حاجتك إليها؟».

- «أنا أعرف بأنني سأموت عاجلاً، وبودّي أن أكتب رسالة إلى ماما».

كان القلم والورق من المحظورات في معسكر الاعتقال، لكننا وجدنا القلم والورق من أجلها؛ إذ كان الجميع يحبُّونها، فهي بيضاء البشرة ووديعة، وصوتها منخفض.

سألتها: «كيف ستبعثين الرسالة؟».

* «سأفتح النافذة في الليل وألقي بها لتحملها الريح...».

ربَّما كانت في الثامنة أو العاشرة من العمر. كيف يحدس الإنسان لدى رؤية العظام فقط؟ لم يكن هناك بشر بل هياكل عظمية. وسرعان ما أصابها المرض وعجزت عن المشي ولم تخرج إلى العمل. وسألتها في اليوم الأوَّل حين رافقتها حتى الباب، لكنها تعلَّقت بالباب ولم تستطع المشي أكثر. بقيت راقدة خلال يومين، وفي اليوم الثالث نُقلت على حمَّالات. ثمة مخرج واحد من معسكر الاعتقال هو عبر المدخنة، إلى السماء مباشرة.

سأتذكَّر ذلك إلى الأبد. لن أنسى ذلك طوال حياتي.

كنا نتحدَّث معها في الليالي: «هل يزورك ملاك؟».

لقد أردت أن أحدِّثها عن ملاكي.

* «لا. ماما تزورني. إنها دائما في بلوزة بيضاء مطرَّزة بزهور القنطريون».

في الخريف، صمدت على قيد الحياة حتى الخريف. بأية معجزة؟ لا أعرف. في الصباح ساقونا للعمل في الحقل. جمعنا الجزر وقطعنا الملفوف، لقد أحببت هذا العمل. وأنا لم أخرج إلى الحقل منذ وقت بعيد ولم أرَ أية خضرة، ففي معسكر الاعتقال لا ترى السماء ولا الأرض.

المدخنة عالية وسوداء، ويتصاعد منها الدخان ليلاً ونهاراً. أمَّا في الحقل فقد رأيت زهرة صفراء، وأنا نسيت كيف تنمو الأزهار، فمسَّدت الزهرة، وفعلت ذلك بقية النساء. نحن نعلم إنهم يجلبون إلى هناك الرماد من محرقتنا، ولدى كلٍّ واحدة منا قريب قتيل. لدى البعض أخت ولدى البعض الآخر أم... ولدي ماشينكا.

لو كنت أعرف بأنني سأبقى على قيد الحياة لأخذت منها عنوان أمِّها، لكنني لم أفكِّر في ذلك...

كيف بقيت على قيد الحياة، في حين أنني متُّ مئات المرَّات؟ لا أعرف... لقد أنقذني ملاكي. لقد أقنعني. والآن يظهر ملاكي أيضاً، فهو يحبُّ ليلةً كهذه حين يتألَّق القمر بشدَّة عبر النافذة، بنور أبيض.

ألا تشعرين بالرعب معي؟ والاستماع إليَّ...

أوووو...

احفروا هنا...

فولوديا بارسوك – 12 عاماً.

الآن – رئيس مجلس الجمعية الرياضية البيلاروسية «سبارتاك»

التحقنا فوراً بفصائل الأنصار...

بكامل أسرتنا: الأب والأمُّ وأنا وأخي. كان أخي أكبر مني سِنّاً، وسُلِّمت إليه بندقية. كنت أحسده، وعلَّمني كيفية إطلاق النار.

وحدث مرَّةً أن لم يعدْ أخي من المهمَّة القتالية، ولم تصدِّقْ ماما فترة طويلة أنه استُشهد. وورد نبأ إلى الفصيلة بأن مجموعة من الأنصار طوَّقها الألمانُ نسفتْ نفسها بلغم مضادٍّ للدبَّابات لكي لا يقع أفرادها في الأسر، وساورت ماما الريبة في وجود أخي ألكسندر هناك؛ فلم يُرسل مع هذه المجموعة، لكن كان من المحتمل أن يلتقي بها. فجاءت إلى قائد الفصيلة وقالت: «لدي شعور بأن ابني يرقد هناك. اسمح لي بالذهاب إلى هناك».

فانطلقنا مع مجموعة من المقاتلين. هذا هو قلب الأم. ففيما كان المقاتلون يحفرون في مكان ما كانت ماما تشير لهم إلى مكان آخر: «احفروا هنا...». فحفروا ووجدوا أخي هناك، وكان من الصعب التعرُّف إليه، فقد أصبح أسود بكامل جسده. وتعرَّفت إليه ماما من ندبةٍ تركتها عملية استئصال الزائدة الدودية، ومن المشط في جيبه.

لقد دخَّنت سيجارة أوَّل مرَّة، وعندما رأتني استدعت أبي وقالت: «انظر ماذا يفعل ابننا فوفكا!».

* «ماذا يفعل؟».

- «إنه يدخِّن».

اقترب أبي مني وتطلَّع إليَّ: «دعيه يدخِّن. وبعد الحرب سننظر في الأمر».

كنت طوال فترة الحرب أتذكَّر كيف كنا نعيش قبل الحرب. كنا نعيش سوية، عدَّة أسر من الأقارب في بيت واحد كبير، اتَّسمت حياتنا بالمرح والمودَّة. وكانت الخالة لينا تشتري في يوم استلام الراتب الكثير من الكعك والجبن، وتجمع الأطفال كافَّة وتطعمهم جميعاً... لقي جميع أعمامي مصرعهم.

وضعت الحرب أوزارها. وأذكر كيف سرت مع أمِّي في الشارع، وكانت تحمل البطاطا، التي حصلت على بعضها في المصنع الذي عملت فيه. فاقترب منا خارجاً من الأنقاض - حيث تجري أعمال البناء أسير ألماني - وقال: «موتر، بيتِه، كارتوفل».

فقالت ماما: «لن أعطيك شيئاً. فلربَّما أنت قتلت ولدي!».

ذُهل الألماني وصمت، وابتعدت ماما. ثمَّ عادت وأعطتْه عدَّة حبَّات بطاطا وقالت: «خذْ، كُلْ...».

عندئذ ذُهلت أنا أيضاً... كيف؟ في الشتاء كنا نسير مراراً فوق جثث الألمان المتجمِّدة، وقد تواصل العثور عليها في الحقول خارج المدينة. كنا ننزلق ونتقافز، فنحن واصلنا حقدنا عليهم.

لقد علَّمتْني ماما، وكان ذلك أوَّل درس في المحبَّة بعد الحرب...

لقد دُفن جدِّي تحت النافذة

فاريا فيركو – 6 أعوام.

الآن – عاملة نسيج.

أنا أذكر ذلك الشتاء، الشتاء البارد. في الشتاء قتلوا جدِّي.

قتلوه في باحة بيتنا، عند البوَّابة.

وقد دفنَّاه بالقرب من النافذة...

لم يسمحوا لنا بدفنه في المقبرة لأنه ضرب جندياً ألمانياً. وقف رجال الشرطة عند البوَّابة ولم يسمحوا لأحد بالمجيء إلينا، لا الأقارب ولا الجيران. وصنعت أمِّي وجدَّتي نعشاً من ألواح ما، وتولَّتا غسل جثمان جدِّي، ولو أن التقاليد لا تسمح لذوي الميت بغسله؛ فيجب أن يقوم بذلك الغرباء. هذه هي عاداتنا. وأنا أتذكَّر الأحاديث حول هذا الموضوع في البيت.

رُفع النعش، وحُمل إلى البوَّابة، فصرخ رجال الشرطة: «ارجعوا! وإلا سنُطلق النار عليكم جميعاً! ادفنوه كالكلب في حديقة بيته».

وتواصل ذلك ثلاثة أيَّام... فحالما يُحمل النعش إلى البوَّابة يصدر الأمر برجوعنا إلى الخلف. يُطاردوننا إلى الوراء...

في اليوم الثالث عمدت جدَّتي إلى حفر قبر تحت النافذة. وكانت درجة الحرارة في الخارج تبلغ أربعين درجة مئوية تحت الصفر، ومن الصعب للغاية دفن ميت في مثل هذا البرد القارس. وكنت كما أعتقد في

السابعة من العمر، لا، في الثامنة من العمر في أغلب الظن، وقد ساعدتها في الحفر. وقد أخرجتْني أمِّي من الحفرة وهي تنتحب.

هناك، حيث يرقد جدِّي، نمت شجرة تفَّاح. إنها تنتصب إلى جانب الصليب. شجرة تفَّاح صارت عتيقة الآن...

كما سووا التربة بالمجارف
بغية إضفاء مسحة من الجمال

ليونيد شاكينكو – 12 عاماً.

الآن – رسَّام.

أطلقوا النار علينا...

اقتادونا إلى بيت رئيس العمَّال، القرية كلّها. الجوُّ دافئ، والعشب دافئ. وقف البعض وجلس البعض. النساء في صدارات بيضاء، والأطفال حفاة. في هذا المكان الذي اقتادونا إليه كنا نجتمع دائماً في أيَّام الأعياد، ونردِّد الأغاني. وعادة البعض جالس والبعض واقف. كما تُعقد الاجتماعات هناك.

الآن، لم يذرف أحد الدموع، ولم ينبس بكلمة. وحتى أدهشني ذلك. لقد قرأت أن البشر حين يواجهون الموت يبدأون عادة بالبكاء والعويل؛ لكنني لا أذكر سقوط دمعة واحدة. الآن حين أستعيد هذه الذكرى أفكِّر: ربَّما أُصبت بالصمم في تلك اللحظة ولم أسمع شيئاً. لماذا لم تُذرف الدموع؟

تجمع الأطفال في سرب منفرد، بالرغم من أن أي أحد لم يعزلنا عن الكبار. ولسبب ما لم تدفعنا الأمَّهات إلى جانبهن. لماذا؟ أنا لا أعرف ذلك حتى الآن. وعادة نحن، الصبية الصغار، نادراً ما نقيم علاقات صداقة مع الفتيات، وجرت العادة على اعتبار أن الفتاة يجب دفعها وشدُّ ضفيرتها. أمَّا

في تلك اللحظات فقد التصقنا ببعضنا البعض. والغريب أن الكلاب حتى لم تنبح في الباحة.

نُصب مدفع رشَّاش على مسافة عدَّة خطوات منا، وجلس إلى جانبه اثنان من رجال المخابرات السرِّية الألمانية، وكانا يتحدَّثان بهدوء ويمزحان وحتى يضحكان.

إنني أتذكَّر هذه التفاصيل بالذات...

اقترب ضابط شاب، وقام المترجم بترجمة أقواله: «السيِّد الضابط يأمر بذكر أسماء الذين لهم صلات برجال الأنصار. إذا التزمتم الصمت سنطلق النار عليكم جميعاً».

واصل الناس الوقوف والجلوس كالسابق.

وقال المترجم رافعاً ثلاثة أصابع: «ثلاث دقائق، وسنُطلق النار عليكم».

لحظتئذ بدأت أنظر إلى يديه فقط.

- «دقيقتان ونُطلق النار عليكم».

التصق الأفراد ببعضهم البعض، وتحدَّث أحدهم للآخر ليس بالكلمات بل بحركة الأيدي وبالعيون. فمثلاً كنت أتصوَّر بوضوح أنهم سيُطلقون علينا النار وسنفارق الحياة.

- «آخر دقيقة... وسيصيبكم الهلاك. عديمو الفائدة...».

رأيت كيف رفع الجندي الترباس وثبَّت شريط الرصاص وحمل المدفع بيديه. كانت المسافة عن البعض منا تبلغ مترين، ومن البعض عشرة أمتار.

انتُقي أربعة عشر شخصاً من الواقفين في الصفِّ الأمامي، وأعطوهم المجارف وأمروهم بحفر حفرة، بينما اقتادونا إلى مكان قريب منهم لنرى

كيف يحفرون. كانوا يحفرون بسرعة، وتصاعد الغبار. وأذكر أن الحفرة كانت كبيرة وعميقة بطول قامة الإنسان، وتُحفر مثل هذه الحفر لدي بناء بيت وإقامة الأساس.

كانوا يطلقون النار على ثلاثة أفراد، بإيقافهم بالقرب من طرف الحفرة وإطلاق النار عليهم من كثب. أمَّا الباقون فكانوا ينظرون. ولا أذكر إن قام الآباء والأمَّهات بتوديع أبنائهم. رفعت إحدى النساء طرف ثوبها وأغلقت عيني ابنتها... حتى الأطفال الصغار لم يبكوا.

أطلقوا النار على أربعة عشر شخصاً وبدأ ردم الحفرة، بينما كنا واقفين ونحن نتطلَّع كيف يُلقون التراب، ويدوسونه بجزمهم. وفي الأعلى سوَّوا التربة بالمجارف بغية أن يكون المنظر جميلاً. فعلوا هذا بعناية. لقد حدَّدوا الأبعاد حتى وحسبوا المسافات. ومسح ألمانيٌّ مُسنٌّ جبينه بالمنديل كما لو كان يعمل في الحقل، ودنا منه كلب صغير، لا يدري أحد من أين جاء ومن هم أصحابه، فمسَّده بيده.

بعد مضي عشرين يوماً سُمح بانتشال جثث القتلى وأخذها إلى العوائل من أجل دفنها. وعندئذ أخذت النساء بالعويل وتعالت الأصوات في القرية كلِّها، وتردَّد نشيج مخنوق.

أعددت مراراً قماش الخيش لرسم لوحة. أردت أن أرسم ذلك المشهد، لكنني كنت أرسم شيئاً آخر: الأشجار والعشب...

سأشتري لنفسي فستاناً ذا أنشوطة

بوليا باشكيفتش – 4 أعوام.

الآن – خيَّاطة.

كنت في الرابعة من العمر، ولم أفكِّر أبداً في الحرب...

لكنني كنت أتصوَّر الحرب كالآتي: غابة سوداء كبيرة، وتدور هناك رحى حربٍ ما. أمرٌ رهيبٌ جدّاً. لماذا في الغابة؟ لأن أفظع شيء في الحكايات يجري في الغابة دائماً.

زحفت القوَّات بلا توقُّف عبر مدينتنا؛ بيلنيتشي، ولم أفهم يومذاك بأن هذا هو انسحاب. إنهم يتركوننا للقدر. وأذكر أنه كان في بيتنا عددٌ كبيرٌ من الجنود، وكانوا يحملونني على أيديهم، ويُشفقون عليَّ. أرادوا إطعامي، لكن لم يوجد لديهم ما يطعمونني به. وفي الصباح غادروا المدينة، وبقيت على رفوف النافذة في البيت وفي كلِّ مكان كميات كبيرة من الخراطيش، وكذلك الكتَّافيات الحمراء المنزوعة. إنها العلامات العسكرية التي تميِّز رتبهم، وكنت ألعب بها، ولم أفهم أيَّ لعبٍ هي.

فيما بعد روت لي عمَّتي؛ حينما دخل الألمان مدينتنا كانت لديهم قوائم بأسماء الشيوعيين. وكان في هذه القوائم اسما أبي والمعلِّم الذي عاش قبالتنا. وكان لديهم صبيٌّ ربطتْني به أواصر الصداقة، وكنا ندعوه «إيجروشكا». وأظن أن اسمه الحقيقي هو إيجور، كما أعتقد الآن، لأنه بقي في ذاكرتي لقبه «إيجروشكا». واقتيد أبوانا للإعدام سوية.

أُطلقت النار على ماما في الشارع أمام سمعي وبصري. وعندما سقطت انكشف المعطف، وأصبح أحمر اللون، كما أصبح الثلج حول ماما أحمر اللون.

بعد ذلك احتجزونا في عنبر ما فترة طويلة. وقد أفزعنا هذا كثيراً وأصبحنا نبكي ونصرخ. وكان لدي أخ وأخت في سنِّ عامين ونصفٍ وعام، بينما كنت في الرابعة من العمر. كنت أكبرهم. وكان الصغار يعرفون بأنه حين تُطلق القذائف فمعنى ذلك أن المدافع بالذات تقصف وليس الطائرات. كانوا يعرفون من الصوت ما إذا كانت تحلِّق في الجوِّ طائرةٌ سوفيتيةٌ أم ألمانية، وما إذا سقطت القنبلة في مكان بعيد أم قريب منا. كان ذلك شيئاً مرعباً، مرعباً جدّاً، فنُخفي رؤوسنا وعندئذ يزول الرعب، والشيء الأساسي ألا ترى شيئاً.

بعد ذلك انطلقنا في الزحَّافات إلى مكان ما، ثلاثتنا، فقامت النساء بتوزيعنا على البيوت المختلفة. ولم يرغب أحد في أخذ أخي فترةً طويلةً، وراح يبكي ويسأل: «وأنا؟». وخفت أنا وأختي من أنهم سيفرِّقون ما بيننا ولن نكون معاً؛ إذ عشنا دوماً معاً.

وحدث مرَّةً أن كلباً بوليسياً ألمانياً كاد أن ينهشني. كنت أجلس عند النافذة، ومضى الألمان بسيَّارات في الشارع ومعهم كلبان بوليسيان كبيران. فهجم أحدهما على النافذة وحطَّم الزجاج، وأفلح أهل البيت في إبعادي عن النافذة، لكنني ارتعبت وصرت منذ ذلك اليوم أثأثئ. وأنا أخاف الكلاب الكبيرة حتى اليوم...

بعد الحرب ألحقونا بملجأ الأيتام الكائن بالقرب من الطريق العام. وكان عدد الأسرى الألمان كبيراً، وتواصل مرورهم في هذا الطريق أيّاماً بأكملها. وكنا نرمي التراب والحجارة عليهم، بينما كان الحراس يبعدوننا ويشتموننا.

في ملجأ الأطفال كان الجميع في انتظار أن يأتي الآباء والأمَّهات لأخذهم إلى بيوتهم. ولدى مجيء رجل غريب أو امرأة غريبة ينطلق الجميع إليهم صائحين: «بابا! ماما!».

- «لا، هذا ليس أبي!».

- «لا، إنهم لم يأتوا إليَّ!».

وكانوا يحسدون كثيراً الأطفال الذين يأتي الوالدان إليهم، وهؤلاء الأطفال لا يسمحون للآخرين بالاقتراب من الآباء والأمَّهات قائلين: «لا تلمسها... هذه أمِّي». أو «لا تلمسه، هذا أبي». ولم يسمحوا لوالديهم بالابتعاد عنهم لحظةً واحدةً خشية أن ينتزعهما منهم أحدٌ ما أو خشية أن ينصرفا مجدَّداً إلى مكان ما.

كنا نتعلَّم في المدرسة سوية؛ أطفال الملجأ والأطفال العاديون. آنذاك كان الجميع فقراء، لكن الطفل الذي يأتي من بيت والديه توجد في حقيبته دوماً قطعة خبز أو حبَّة بطاطا، بينما لا يوجد شيء في حقائبنا. كنا جميعاً نرتدي زيّاً موحَّداً في الصغر، لكن عندما نكبر تبدأ المعاناة. وكنا في سنِّ اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً نرغب في ارتداء فستان جميل وأحذية أنيقة، لكننا جميعاً نلبس الجزم، الصبية والفتيات. أردت اقتناء شريط زاهي اللون للفِّ ضفيرتي، وأردت أقلاماً ملوَّنة، وأردت سكاكر. بينما كانت السكاكر تُقدَّم لنا فقط في عيد رأس السنة. كانوا يُعطوننا خبزاً أسودَ قاتماً، فنعمد إلى امتصاصه كالسكاكر، إذ كان يبدو لنا لذيذ الطعم.

كانت لدينا معلِّمة شابة واحدة. أمَّا البقية فكنَّ من النساء الكَهَلات، ولهذا أحبَّ الجميع الشابة حُبّاً جمّاً لحدِّ العبادة. وعادة لا تبدأ الدروس حتى مجيئها إلى المدرسة. كنا نجلس عند النافذة وننتظر: «إنها آتـــيـــة!». فتدخل إلى قاعة الدرس ويودُّ كلُّ واحد أن يلمسها، وكلُّ واحد يفكِّر: «إنها مثل أمِّي».

راودتني الأحلام: سأكبر، وأبدأ بالعمل وأشتري لنفسي فساتين كثيرة؛ أحمر وأخضر ومنقَّط وبعروة. بعروة حتماً! وفي الصف السابع سألونا: ماذا تودُّ أن يكون اختصاصك في الدراسة؟ وأنا قرَّرت مسبقاً ومنذ وقت بعيد أن أصبح خيَّاطة.

أنا أخيط الفساتين...

كيف مات إذا لم يُطلق أحد الرصاص اليوم...

إدوارد فوروشيلوف – 11 عاماً.

الآن – موظَّف في التلفزيون.

لقد حدَّثتُ أمِّي فقط عن الحرب. أمِّي؛ أقرب شخص إليَّ.

تُوفِّي في القرية التي رابطتْ فيها فصيلتنا من الأنصار أحدُ الشيوخ، وكنت أعيش في كوخه بالذات. وعندما واريناه التراب جاء صبيٌّ في السابعة من العمر وسأل: «لماذا أرى جدِّي طريح الطاولة؟»

فأجابوه: «لقد تُوفِّي جدُّك».

دُهش الصبيُّ للغاية: «كيف تُوفِّي إذا لم يُطلق أحد الرصاص اليوم؟!».

كان الصبيُّ في السابعة من العمر، وبقي طوال عامين يسمع من يقول إن البشر يموتون فقط عندما يُطلق الرصاص عليهم.

لقد بقي هذا في ذاكرتي...

بدأت حديثي من الكلام عن فصيلة الأنصار التي التحقت بها فوراً في أواخر العام الثاني للحرب. ولم أذكر كيف أتيت مع ماما إلى مينسك قبل أسبوع من نشوب الحرب، حيث رافقتني إلى مخيَّم الطلائع في ضواحي مينسك.

كنا في المخيَّم نردِّد الأغاني: «إذا قامت الحرب غداً» و«ثلاثة من رجال الدبَّابات» و«نمضي في الوديان ونتسلَّق الجبال». وكان أبي يحبُّ كثيراً الأغنية الأخيرة، وغالباً ما كان ينشدها.

وكان قد عرض لتوِّه فيلم «أبناء القبطان غرانت»، وأعجبتْني من هذا الفيلم أغنية «هيا أنشدي لنا أغنية، أيَّتها الريح المرحة». وكنت دائماً أبدأ التمارين الرياضية صباحاً لدى سماع هذه الأغنية.

في ذلك اليوم هدرت الطائرات فوق رؤوسنا، ورفعت عينيَّ ورأيت كيف انفصلت عن الطائرة نقط سوداء، ولم نكن نعرف يومئذ شيئاً عن القنابل. كان طريق السكك الحديدية يمرُّ بالقرب من مخيَّم الطلائع، وأنا سرت فوقه إلى مينسك. وحسبت ببساطة أنه توجد محطَّة قطار بالقرب من معهد الطب الذي تعمل فيه ماما، واذا سرت فوق قضبان السكك الحديدية فسأصل إلى ماما. ودعوت للذهاب معي صبياً يقطن بالقرب من محطَّة القطار، وكان أصغر مني سنّاً وبكى بحرقة، ومشى ببطء بينما كنت أحبُّ المشي، فقد مشيت مع أبي في جميع ضواحي مدينتنا لينينغراد. ووصلنا مع هذا إلى محطَّة القطار في مينسك، وبلغنا الجسر الغربي، وحدث هناك قصفٌ جوِّيٌّ آخر، فأضعته.

لم تكن ماما موجودة في معهد الطب، وعاش بالقرب من المكان البروفيسور غولوب، الذي عملت ماما معه، فوجدت شقَّته، لكنها كانت فارغة. عرفت بعد عدَّة أعوام ما حدث: فحالما بدأ قصف المدينة ركبت ماما سيَّارة عابرة انطلقت في الدرب إلى راتومكا من أجل أن تأخذني. فجاءت إلى هناك وشاهدت المخيَّم الذي دمَّره القصف بالقنابل.

غادر المدينةَ أهلُها إلى أماكنَ مختلفة. فقرَّرت أن المسافة إلى لينينغراد أبعد من موسكو، وفي لينينغراد يوجد بابا، لكنه التحق بالجبهة، بينما توجد في موسكو خالاتي، وهنَّ لن يرحلن إلى أيِّ مكان، لأن موسكو مدينتهن التي يعشن فيها، في عاصمتنا. وفي الطريق رافقت امرأة مع صبية. المرأة غريبة لكنها أدركت أن لا شيء معي، وأنا جائع. فدعتني قائلة: «اذهبْ معنا، وسنسافر سوية».

وأذكر أنني أكلت أوَّل مرَّةٍ البصل والدهن. في البداية امتعضت، ومن ثمَّ أكلت بالرغم من ذلك. وعندما كان يبدأ القصف، كنت أتابع دوماً: أين تلك المرأة وابنتها؟ في المساء وجدنا حفرة قرَّرنا المبيت فيها. كان القصف يستمرُّ بلا توقُّف. التفتت المرأة وصرختْ. أنا أيضاً تطلَّعت إلى تلك الجهة التي كانت تنظر إليها قبل هنيهة، فرأيت انقضاض طائرة ينطلق منها بريق النيران. وكانت ترتفع باتجاه هذه النيران على امتداد الطريق نافوراتٌ من التراب. وبصورة غريزية انبطحتُ في قاع الحفرة. ومرَّت صلية المدفع الرشَّاش فوق رأسي، وواصلت الطائرة تحليقها. فنهضتُ ورأيتُ المرأة راقدةً على طرف الحفرة، وثمَّة بقعةٌ من الدم بدلاً من وجهها. عندئذ فزعتُ وخرجتُ من الحفرة هارباً. منذ ذلك الحين وحتى الآن يعذِّبني السؤال، ما كان مصير تلك الصبية؟ ولم ألتقِ بها فيما بعد.

وصلت إلى قرية ما. كان يرقد في الشارع تحت الأشجار بعض الجرحى من الجنود الألمان، وعندئذ رأيت الألمان أوَّل مرَّة.

جرى طرد أهالي القرية من بيوتهم، وأرغموهم على جلب الماء، وكان المرشدون الصحيُّون الألمان يغلون الماء في دلاء كبيرة فوق النار. وفي الصباح نقلوا الجرحى في سيَّارات ووضعوا في كلِّ سيَّارةٍ صبيَّاً أو صبيَّين، وأعطونا زمزميات ماء وأشاروا لنا كيف يجب أن نساعد؛ بأن نبلِّل منديلاً بالماء ونضعه على جبين الجريح، أو أن نرطِّب شفتي جريح آخر. ويطلب الجريح: «فاسير... فاسير...». فنضع الزمزمية عند شفتيه، وأنت ترتجف هلعاً. أنا لا أستطيع حتى الآن وصف مشاعري ساعتها. هل هو الاشمئزاز؟ كلا. الحقد؟ كلا أيضاً. كان الاثنان معاً، والشفقة أيضاً. إن الحقد يتولَّد لدى الإنسان، ولا يوجد مسبقاً؛ ففي المدرسة كانوا يعلِّموننا حُبَّ الخير والمحبَّة.

مرَّةً أخرى أستبق الأحداث... عندما ضربني ألمانيٌّ أوَّل مرَّةٍ لم أشعر

بالألم، كان لديَّ شعور آخر. كيف ضربني؟ وبأيِّ حقٍّ ضربني؟ لقد كان ذلك صدمة.

عدت إلى مينسك مجدَّداً.

ربطتني أواصر الصداقة بالصبيِّ كيم. لقد تعارفنا في الشارع. وردَّاً على سؤال: «مع من تعيش؟».

أجاب: «ليس مع أحد».

وعرفت أنه فقد ذويه مثلي أيضاً، وعرضت عليه قائلاً: «دعنا نعشْ سوية».

فابتهج ووافق لأنه لا يوجد لديه مكان يعيش فيه.

أمَّا أنا فكنت أعيش في شقَّة البروفيسور غولوب المهجورة.

حدث مرَّةً أن رأيت وكيم صبياً أكبر سنَّاً منا يمشي في الشارع حاملاً منصَّةً صغيرةً لتنظيف الأحذية، وأصغينا إلى إرشاداته حول كيف يحصل على رماد الفحم المحترق، وكانت كمِّيته كبيرة في المدينة، من أجل صنع دهان الأحذية، وكيف يُمزج بالزيت. خلاصة الأمر، كيف نصنع مادَّةً كريهة الرائحة سوداء اللون، وإذا ما خُلطتْ جيِّداً تصبح متألِّقة حتى.

واقترب مني مرَّةً ألماني، ووضع جزمته على الصندوق، وكانت الجزمة وسخة، والوسخ قديم، وقد جفّ. وبما أننا لقينا مثل هذه الجزم، فقد كانت لدي مقشطة خاصة أزيل بها الوسخ في البداية، ومن ثم أطلي الدهان. فتناولت المقشطة ومرَّرتُها مرَّتين فقط، لكنَّ هذا لم يعجبه. فضرب الصندوق بقدمه، وصفعني على وجهي.

عموماً لم يضربني أحد في حياتي، هذا باستثناء العراك بين الصبية، وكان غالباً ما يحدث في مدارس لينينغراد. لكن لم يضربني أحد من الكبار قبل هذا أبداً.

وعندما رأى كيم وجهي صرخ: «لا تتجرَّأ على النظر إليه! لا تجرؤ! فسيقتلك...».

آنذاك شاهدنا أوَّل مرَّة في الشوارع أشخاصاً يضعون شارات صفراء على معاطفهم. كنا قد سمعنا بوجود الغيتو، وكانت هذه الكلمة تُقال همساً. كان كيم صبيّاً يهودياً، لكنه حليق الرأس تماماً، وقرَّرنا اعتباره تترياً. وعندما صار شعره ينمو، وتجعَّد شعره الأسود، من كان ليصدِّق بأنه تتري؟ وشعرت بالألم لصديقي، وكنت أستيقظ في الليل وأرى شعر رأسه المجعَّد، فلا أستطيع أن أغفو: يجب عمل شيء ما من أجل ألا يأخذوا كيم إلى الغيتو.

وجدنا ماكينة وحلقنا رأس كيم مرَّةً أخرى. وبدأ الزمهرير ولم يعد تنظيف الأحذية مُجدياً، فوضعنا خطَّة جديدة. كانت القيادة الألمانية قد أعدَّت في المدينة فندقاً للضبَّاط القادمين إلى المدينة. وكانوا يأتون ومعهم أكياس وحقائب كبيرة الحجم، والفندق ليس قريباً. وبمعجزة ما حصلنا على زحَّافات كبيرة وكنا نقف في الانتظارعند محطَّة القطار. وعندما يصل القطار نحمل حاجيات شخصين أو ثلاثة في الزحَّافات ونمضي بها عبر المدينة كلِّها، وكانوا يعطوننا مقابل ذلك الخبز أو السجائر، ويمكن استبدال السجائر في السوق بأيِّ شيء يُؤكل.

وفي ذلك اليوم حين أخذوا كيم وصل القطار في وقت متأخِّر من الليل. وقد بردنا كثيراً لكننا لم نستطع مغادرة محطَّة القطار، حيث بدأت ساعات منع التجوُّل. طردونا من مبنى المحطَّة، ووقفنا ننتظر في الخارج. وأخيراً وصل القطار فحملنا الزحَّافة وانطلقنا في الطريق. كنا نسحبها والأحزمة تقطع أكتافنا بينما هم يصرخون: «شنيل! شنيل!». وليس في وسعنا السير بسرعة، وصاروا يضربوننا.

حملنا الحقائب إلى الفندق وانتظرنا أن يدفعوا لنا الأجرة. وصرخ

أحدهم: «اذهبوا من هنا». ودفع كيم فطارت القبَّعة عن رأسه. وعندئذ صاح: «يهودي». فأُلقي القبض عليه...

بعد عدَّة أيَّام علمت أن كيم في الغيتو. ذهبت إلى هناك وتجوَّلتُ حول المكان عدَّة أيَّام، ورأيته عدَّة مرَّات وراء الأسلاك الشائكة. جلبت له الخبز والبطاطا والجزر. وعندما يلتفت الحارس ويدير ظهره ويذهب حتى الركن كنت ألقي البطاطا إليه، فيقترب كيم ويأخذها.

كنت أقطن في مكان يبعد عدَّة كيلومترات عن الغيتو، لكن كانت تنطلق منه في الليالي صرخات تُسمع في جميع أرجاء المدينة، وكنت أستيقظ وأسأل نفسي: هل كيم حيٌّ يُرزق؟ كيف أستطيع إنقاذه؟ وبعد إحدى المذابح جئت إلى المكان المتَّفق عليه فأشاروا لي بأن كيم غير موجود.

شعرت بالتعاسة، لكنني ما زلت أحتفظ بشيء من الأمل...

وفي صباح أحد الأيَّام طرق أحدهم بابي، فنهضت، وكانت أوَّل فكرة جالت في خاطري: هذا كيم! لا، لم يكن كيم. لقد أيقظني صبيٌّ من الطابق الأرضي وقال لي: «تعالَ معي إلى الشارع؛ فهناك جثث قتلى. أريد أن أبحث عن أبي»، فخرجنا. كانت فترة منع التجوُّل قد انتهت، ولم يكن هناك أحد من المارَّة تقريباً. غُطِّيت الشوارع بطبقة خفيفة من الثلج. وجدنا على مسافة خمسة عشر إلى عشرين متراً جثث جنودنا الذين أُعدموا رمياً بالرصاص، وقد اقتيدوا ليلاً عبر المدينة وأطلقوا النار من الخلف على رؤوس المتخلِّفين عن السير منهم، وكانوا جميعاً راقدين ووجوهم إلى الأرض.

لم يكن الصبيُّ قادراً على الاقتراب من جثث القتلى، فقد خاف أن يكون أبوه بينهم. حينئذٍ دار في خلدي لماذا لا أخاف أنا الموت؟ لقد اعتدته في ذهني. وصرت أقلِّب الجثث بينما ينظر هو إلى وجه كلِّ واحد منهم. وهكذا عبرنا الشارع كله.

لم تعد لديَّ دموع منذ ذلك الحين... لم تعد هناك دموع. إنها غير موجودة حتى إذا ما تطلَّب الأمر ذلك؛ أنا لا أستطيع البكاء. وخلال فترة الحرب كلِّها بكيت مرَّةً واحدة. حدث هذا عندما لقيت مصرعها ناتاشا الممرِّضة في فصيلة الأنصار عندنا... كانت تحب الأشعار، وأنا أحببت الأشعار أيضاً. وكانت تحبُّ الورود، وأنا أحببت الورود، وكنت أجلب لها في الصيف طاقات ورد العلَّيق.

سألتْني مرَّة: «كم صفّاً أنهيت قبل الحرب؟».

* «أربعة».

- «عندما تنتهي الحرب هل ستذهب إلى كلِّية سوفوروف العسكرية للفتيان؟».

قبل الحرب كانت تعجبني بزَّة أبي العسكرية، كما أردت أن أحمل السلاح؛ لكنني أجبتها بأنني لن أصبح عسكرياً.

كانت ناتاشا ترقد ميتة فوق أغصان الشوح بالقرب من الخيمة، وأنا جلست عندها واستغرقت في البكاء. إنها أوَّل مرَّة بكيت فيها لدى رؤية شخص قتيل.

التقيت ماما... وعندما التقينا نظرت إليَّ فحسب، حتى أنها لم تمِّسد رأسي ولم تقل: «أهذا أنت؟ هل يصدق أن تكون أنت؟».

مضت أيَّام كثيرة قبل أن نستطيع أن نحدِّث أحدنا الآخر عن الحرب...

لأننا فتيات،
وأنت صبي

ريما بوزنيكوفا (كامينسكايا) - 6 أعوام.
الآن - عاملة.

كنت في روضة الأطفال، ألعب مع الدمية.

فاستدعوني: «جاء بابا في طلبك. الحرب!». لكنني لا أريد الذهاب إلى أي مكان؛ أريد أن ألعب. وبكيت.

ما هي الحرب؟ كيف هذا، سيقتلونني؟ كيف هذا، سيقتلون أبي؟ كما وردت كلمة غريبة أخرى: «لاجئون». علّقت ماما في أعناقنا أكياساً فيها شهادة الميلاد وورقة كتبت فيها العنوان. فإذا ما قُتل أحدنا سيعرف الناس الغرباء من نحن.

مشينا ومشينا فترة طويلة. وفقدنا بابا. ارتعبنا. وقالت ماما إن أبي أُخذ إلى معسكر الاعتقال، لكننا سنذهب إلى بابا. وما هو معسكر الاعتقال؟ جمعنا الطعام، وأيَّ طعام؟ تفّاحات مشوية. احترق بيتنا، واحترقت الحديقة. بينما تعلّقت بشجرة التفاح ثمار مشوية. فجمعناها وأخذنا نأكلها.

أُقيم معسكر الاعتقال في دروزدي بالقرب من بحيرة الكومسومول. الآن أصبحت ضمن مدينة مينسك، لكن آنذاك كانت قرية. وأذكر الأسلاك الشائكة السوداء، والبشر السود أيضاً ويُشبه أحدهم الآخر. ولم نتعرّف

على أبي، لكنه عرفنا. وأراد أن يمسِّد رأسي، ولكنني خفت لسببٍ ما من الاقتراب من الأسلاك الشائكة، ورحت أجرجر ماما للعودة إلى البيت.

أنا لا أذكر كيف ومتى عاد أبي إلى البيت. أعرف أنه عمل في الطاحونة، وأرسلتنا ماما لجلب طعام الغداء إليه، أرسلتني مع أختي الصغيرة توما. كانت تومو تشكا صغيرة جدّاً، وأنا أكبر منها سنّاً، حتى أنني كنت قد بدأت ألبس حمّالات الصدر. في تلك الأيّام وجدت حمّالات صدر للصبيات. كانت ماما تعطينا حزمة فيها الطعام بينما تدسُّ وريقات في حمالة الصدر. كانت الوريقات صغيرة مأخوذة من كرَّاسة مدرسية وكتبت فيها شيئاً ما بخطِّ اليد. وتأخذنا ماما إلى البوَّابة وتبكي وتقول: «لا تقتربا من أي أحد، اذهبا فقط إلى بابا». بعد ذلك تقف في انتظار عودتنا لكي ترانا على قيد الحياة.

أنا لا أذكر الخوف. وبما أن ماما قالت اذهبا، فإننا نذهب. ماما قالت، هذا يعتبر الشيء الرئيس. كنا نخاف من عدم طاعة ماما، وعدم تنفيذ ما تطلبه منا. كانت أمّنا مقربةً إلى قلوبنا، ونحن حتى لم نتصوَّرْ كيف يمكن عدم طاعة أمرها.

الجوُّ بارد، ونحن نصعد جميعاً إلى سطح الموقد، ولدينا معطف كبير من الفرو، فنندسُّ جميعاً تحت المعطف. وبغية إضرام النار في الموقد كنا نذهب إلى محطَّة القطار ونسرق الفحم، فنزحف على ركبنا لكي لا يرانا الحارس. نزحف ونسند أنفسنا بالمرفقين، ونعود بدلو مملوء بالفحم ونحن مثل منظفي المداخن: كانت رُكَبنا ومرافقنا وأنوفنا وجباهنا كلُّها ملطَّخةً بالسواد.

في الليل كنا ننام سوية، ولم يرغبْ أحد في النوم لوحده. كنا أربعة: أنا وشقيقتاي، وبوريس البالغ من العمر أربع سنوات والذي تبنَّته ماما. وعلمنا فيما بعد أن بوريس هو ابن إحدى ناشطات العمل السرِّي وصديقة أمِّي،

واسمها ليلي ريفينسكايا. وآنذاك قالت ماما إن هناك صبياً صغيراً غالباً ما يبقى وحيداً في البيت ويشعر بالخوف وبلا طعام، وأرادت أمُّه أن نعتني به ونحبَّه. وكانت ماما تعرف أن هذا ليس بالأمر اليسير؛ فالأطفال يمكن ألا يحبَّ بعضهم البعض. وحسناً فعلت وبحكمة؛ فلم تجلب بوريس إلينا، بل أرسلتنا لكي نأتي به وقالت: «اذهبا إلى هذا الصبيِّ وائتيا به، وليكن لكما صديقاً». فذهبنا وأتينا به.

كانت لدى بوريس كتب كثيرة فيها رسوم جميلة، وقد أخذ جميع هذه الكتب معه.

ساعدناه في حملها. كنا نجلس فوق الموقد بينما هو يروي لنا الحكايات. وقد أعجبنا كثيراً وأصبح أكثر من أخ لنا، ربَّما لأنه عرف الكثير من الحكايات. وكنا نقول للجميع في باحة القرية: «لا تلحقوا به الأذى».

كنا جميعاً ذوي بشرة بيضاء، أمَّا بوريس فكان أسمر السحنة، وكانت أمُّه ذات ظفيرة سوداء سميكة. وعندما جاءت لزيارتنا أهدتني مرآة، وقد أخفيت المرآة وقرَّرت أن أتطلَّع فيها في الصباح وستكون لديَّ ضفيرة كتلك.

وعندما نلعب في الباحة كان الأطفال يصيحون بصوتٍ عال: «ابن من بوريس؟».

* «بوريس ابننا».

- «ولماذا أنتم بيض بينما هو أسمر؟».

* «لأننا فتيات وهو صبي».

بهذا علَّمتنا ماما أن نجيب.

فعلا كان بوريس ابننا، لأن أمَّه قُتلت كما قُتل أبوه وأرادوا زجَّه في الغيتو. كنا نعرف ذلك. وكانت ماما تخشى أن يعرفوا نسبه ويعتقلوه.

وعندما نذهب إلى مكان ندعو أمي بـ"ماما"، أمَّا بوريس فكان يدعوها بـ"خالتي". وطلبت منه ماما قائلة: «قلْ، ماما».

وتعطيه قطعة خبز.

فيأخذ قطعة الخبز، ويبتعد قائلاً: «شكراً يا خالتي».

والدموع تترقرق وتترقرق من عينيه...

أنت لست أخاً لنا، إذا ما كنت تلعب مع الصبية الألمان

فاسيا سيغاليوف – كنيازيف – 6 أعوام.

الآن – مدرِّب رياضي.

كان ذلك عند الفجر المبكر...

بدأ إطلاق النار، فقفز أبي من الفراش، وهُرع إلى الباب، ففتحه وصرخ. واعتقدنا أنه ارتعب، ولكنه خرَّ صريعاً برصاصة متفجِّرة.

وجدت ماما بعض الخرق، فلم تشعل النور، لأن إطلاق النار استمر. كان أبي يئنُّ، ويتقلَّب في مكانه. ويزغ من النافذة بصيص نور ضعيف سقط على وجهه.

قالت ماما: «استلقوا على الأرض».

وبغتة تعالى صراخها، فاندفعنا إليها صائحين. انزلقت أنا فوق دم أبي، ثمَّ سقطت على الأرض. تشمَّمت رائحة الدم ورائحة أخرى ثقيلة... لقد مزَّقت الرصاصة أمعاء أبي.

بقيت في ذاكرتي صورة النعش الكبير، علماً أن أبي لم يكن طويل القامة. ودار في خلدي: «لَم وضعوه في نعش كبير كهذا؟». وفيما بعد قرَّرت أن جروح أبي شديدة، وفيه لا يشعر بالألم كثيراً. وأوردت هذا التفسير إلى الصبيِّ جارنا.

بعد فترة قريبة جاء الألمان في الصباح الباكر أيضاً واعتقلوني مع

ماما. أوقفونا في الساحة أمام المصنع، وكان بابا يعمل في هذا المصنع قبل الحرب، في بلدة سمولوفكا بمقاطعة فيتبسك. وقفنا سوية مع عائلتين من الأنصار وعدد كبير من الأطفال، وكان الجميع يعرفون أن أقارب أمّي كثيرون: خمسة أخوة وخمس أخوات، وجميعهم مع الأنصار.

انهالوا بالضرب على أمّي، وشاهدت البلدة كلُّها كيف ضربوها. دفعتني امرأة ما لكي أنظر إلى الأرض: «غضَّ النظر. غضَّ النظر». بينما كنت أحاول التخلُّص من قبضتها، ونظرت. تمتد وراء البلدة ضاحية تغمرها الغابات، فأبقوا الأطفال، واقتادوا الكبار إلى هناك. تشبَّثتُ بماما، بينما راحت تتخلَّص مني وتقول: «وداعاً يا صغاري!». وأذكر كيف رفعت الريح فستان أمّي، حين طارت ساقطة في الخندق.

جاء أفراد جيشنا، ورأيت الضبَّاط وكتَّافياتهم. وقد أعجبني ذلك كثيراً، فصنعت لنفسي كتَّافيات من لحاء شجرة البتولا، ورسمت فوقها شارات التميز العسكرية، وثبَّتُّها فوق المعطف الريفي الذي خاطته لي عمَّتي، ولبست في قدميَّ حذاء الخوص. جئت بهذه الهيئة وأبلغت النقيب إيفانكين - عرفت اسمه من العمَّة - أن المدعو فاسيا سيغاليوف يريد أن يحارب الألمان سوية معكم. في البداية أخذوا يمزحون ويضحكون، ومن ثمَّ سألوا عمَّتي عن والديَّ. وعندما عرفوا أنني يتيمٌ صنعَ الجنود خلال ليلة جزمتين من القماش المشمَّع وجعلوا المعطف العسكري أقصر في الطول، وصغروا القبعة، وصغروا الكتافيات إلى النصف، وصنع أحدهم حمَّالة الضباط. وهكذا أصبحت ابن الفصيلة المستقلَّة الثالثة لإزالة الألغام، وأُلحقت بها برتبة جندي اتصال. وقد بذلت جهدي للعمل، لكنني لم أُحسن القراءة والكتابة. وعندما كانت ماما على قيد الحياة سألني خالي: «اذهب إلى جسر السكك الحديدية واحسب عدد الألمان هناك». كيف أحسب؟ فوضع في جيبي حفنة من الحبوب، وكنت أستخرج الحبَّة

من جيب وأضعها في الجيب الآخر. وفيما بعد حسب خالي عدد هذه الحبوب.

قال مسؤول المنظَّمة الحزبية شابوشنيكوف: «الحرب هي الحرب، ويجب عليك أن تتعلَّم القراءة والكتابة».

وحصل الجنود على الورق وصنع لي بنفسه كراسة، وكتبت فيها جدول الضرب والحروف. وصرت أتعلم وأجيب عن أسئلته. وكان يجلب صندوق ذخيرة فارغاً، ويقلبه ويقول: «اكتب».

كنا في ألمانيا ثلاثة صبيان؛ فولوديا بوتشيفالدوف وفيتيا بارينوف وأنا. فولوديا في الرابعة عشرة من العمر، وفيتيا في السابعة من العمر، وأنا كنت آنذاك في التاسعة من العمر.

وربطتنا أواصر صداقة متينة وأصبحنا كالأخوة لأنه لم يكن لدينا أحد.

لكنني عندما رأيت أن فيتيا بارينوف يمارس لعبة "الحرب" مع الصبية الألمان، وكنت أعطيته وحده السدارة ذات النجمة الحمراء، صرخت به وقلت له إنه لم يعد أخاً لي، ولن يكون أخي في المستقبل أبداً! وشهرت المسدَّس الذي حصلت عليه كغنيمة حرب، وأمرته أن يذهب إلى موقع الوحدة. وهناك حبسته في حجرة ضيِّقة، فقد كان جندياً وأنا برتبة نائب عريف، وكان سلوكي سلوك الأعلى رتبة.

وقد أبلغ أحدهم النقيب إيفانكين الذي استدعاني وقال: «أين الجندي فيتيا بارينوف؟».

فقلت: «الجندي بارينوف في الحبس».

وصار النقيب يوضح لي طويلاً أن جميع الأطفال طيِّبون، وهم غير مذنبين في أي شيء، والأطفال الروس والألمان الآن بعدما تنتهي الحرب سيرتبطون بأواصر الصداقة.

وضعت الحرب أوزارها وسلّموني ثلاث ميداليات: لقاء الاستيلاء على مدينة كينينسبرغ، ولقاء الاستيلاء على برلين، ولقاء النصر على ألمانيا. وعادت وحدتنا إلى جيتكوفيتش، وهناك عملنا في إزالة الألغام. وعرفت بالصدفة أن أخي الأكبر حيٌّ يُرزق ويعيش في فيلييك.

ذهبت إلى فيلييك ومعي توجيه بإلحاقي في كلية سوفوروف العسكرية للفتيان. فوجدت أخي هناك وسرعان ما انضمت إلينا أختنا، وأصبح لدينا أسرة. واتخذنا كمحل للسكن علّية أحد البيوت، لكننا وجدنا صعوبة في الحصول على الطعام، فارتديت بزّتي العسكرية وعليها الميداليات الثلاث وذهبت إلى دار البلدية.

دخلت المبنى ورأيت لافتة على باب إحدى الغرف كتب عليها، "الرئيس". ودخلت وقدّمت نفسي حسب الأصول العسكرية: «نائب العريف سيغاليوف جاء يطلب معونة الدولة».

فابتسم الرئيس وهبَّ للقائي، ثمَّ سأل: «أين تسكن؟».

فقلت: «في علية أحد البيوت». وأعطيته العنوان.

في المساء جلبوا لنا كيس ملفوف... وبعد يوم كيس بطاطا.

وحدث أن التقيت الرئيس في الشارع فأعطاني عنواناً: «اذهب إلى هناك في المساء، وسيكونون هناك في انتظارك».

استقبلتني هناك امرأة هي زوجته. واسمها نينا مكسيموفنا، كان اسمه ألكسي ميخايلوفتش. فأطعماني، واغتسلت. وكنت قد كبرت وضاقت علي بزّتي، فأعطياني قميصين.

بعد ذلك صرت أتردَّد عليهما، في البداية نادراً، و من ثمَّ في أحيان كثيرة، وبعد ذلك يومياً. وعندما كان يلقاني أفراد الدورية العسكرية ويسألونني: «يا ولد، لمن هذه الميداليات التي تحملها؟ أين أبوك؟».

* «لا يوجد لديَّ أب».

ووجب عليَّ بعد هذا أن أحمل الهوية الشخصية.

وحينما سأل ألكسي ميخايلوفتش: «هل تريد أن تصبح ابناً لنا؟».

أجبت: «أريد ذلك. أريد جدّاً».

وهكذا تبنَّاني ومنحني لقبه: كنيازيف.

بقيت لفترة طويلة لا أستطيع تلفُّظ كلمتَي بابا وماما، علماً أن نينا مكسيموفنا أحبَّتني فوراً، وشملتني بحنانها. وإذا ما جلبا شيئاً من السكاكر فمعنى ذلك أنها لي. وكانت تودُّ أن تلاطفني، وتحنو عليَّ؛ ولكني لم أحب السكاكر، لأنني لم آكلها في أيِّ مكان من قبل أبداً؛ فقبل الحرب لم نكن من الموسرين، وفي الجيش اعتدت على طعام الجنود. كما أنني لم أكن صبيّاً مدلَّلاً، لأنني لم أعرف الملاطفة منذ وقت بعيد، وعشت في أوساط الرجال. أنا لم أعرف حتى كلمات الملاطفة والتدليل.

حدث مرة أن استيقظت ليلاً وسمعت نينا مكسيموفنا تبكي وراء الستار. ويبدو أنها كانت تبكي سابقاً أيضاً، لكنني لم أرها ولم أسمعها. كانت تبكي وتشكو: إنه لن يكون أبداً ابناً حقيقياً لنا، فهو لا يستطيع أن ينسى والديه، ودمه. إنه يفتقد إلى صفات الطفل، واللطف. فاقتربت منها بهدوء وأحطتها بذراعي وقلت: «لا تبكي، ماما». وكفَّتْ عن البكاء، ورأيت الألق في عينيها. لقد كانت هذه أوَّل مرَّة أدعوها فيها بـ"ماما". وبمرور الوقت صرت أدعو أبي بلفظة "بابا"، لكنني بقيت طوال حياتي أخاطبه بلهجة الاحترام، مستخدماً كلمة أنتم».

إنهما لم يجعلا مني طفلاً بيتياً مدلَّلاً، وأنا شاكر لهما ذلك. كانت لديَّ واجبات محدَّدة: التنظيف في البيت، ونفض السجَّاد، وإخراج الدلاء من العنبر، وإضرام النار في الموقد بعد العودة من المدرسة. ولولاهما لما

حصلت على التعليم العالي. فقد أكَّدا لي وجوب التعليم، وبعد الحرب يجب التعلُّم جيِّداً، وجيِّداً فقط.

ومنذ أن كنا في الجيش، وكانت وحدتنا ترابط في جيتكوفيتشي، أمرنا أنا وفولوديا بوتشيفالدوف وفيتيا بارينوف بأن نتعلَّم. جلسنا ثلاثتنا وراء طاولة واحدة في الصف الدراسي الثاني، وكنا بأسلحتنا، ولم نعترف بسلطة أي أحد. ولم نرغب في الانصياع إلى أوامر المعلِّمين المدنيين: كيف يستطيع أن يأمرنا بينما لا يرتدي البزَّة العسكرية؟ وكنا نحترم فقط القادة العسكريين. وحينما يدخل المعلم يقف جميع الطلاب في الصف بينما نبقى جالسين.

- «لماذا أنتم جالسون؟».

* «نحن لن نجيبك. نحن نتبع أوامر القادة العسكريين فقط».

وفي فترة الاستراحة الكبيرة كنا نقسم جميع الطلاب إلى فصائل ونأمرهم بالمشي بخطوات عسكرية ونعلِّمهم الأناشيد العسكرية.

جاء مدير المدرسة إلى وحدتنا وأبلغ نائب الآمر بسلوكنا هذا. فأمر بوضعنا في الحبس وتخفيض رتبنا. فقد كان فوفكا بوجيفالدوف رئيس عرفاء فأصبح عريفاً، وكنت عريفاً فأصبحت نائب عريف. وكان فيتكا بارينوف نائب عريف فأصبح جندياً أوَّل. وتحدَّث القائد مع كلٍّ واحد منا فترة طويلة وأفهمنا أن علامة النجاح أو الامتياز في مادة الرياضيات هي الآن أهمُّ من الميداليات. ومهمَّتنا العسكرية هي أن نتعلَّم جيِّداً. نحن كنا نريد إطلاق النار بينما يؤكِّدون لنا أن من واجبنا التعلُّم.

لكننا ذهبنا مع هذا إلى المدرسة وعلى صدورنا الميداليات. وقد احتفظت بصورة فوتوغرافية أجلس فيها على مقعد الدراسة وعلى صدري الميداليات وأقوم برسم صور لصحيفة الطلائع بمدرستنا.

وعندما عدت إلى البيت وقد حصلت على علامة "امتياز" صحت من العتبة: «ماما، علامة امتياز!».

ووجدت من اليسر جدّاً أن أتلفّظ بكلمة "ماما".

حتى إننا نسينا هذه الكلمة...

آنيا غوريفتش – عامان.

الآن – مهندسة لاسلكي.

ربَّما تذكَّرت أنا نفسي ذلك، وربَّما روتْه لي أمِّي فيما بعد...

كنا نسير في الدرب. وكانت الرحلة شاقَّة: أمِّي مريضة، وأنا وأختي ما زلنا صغيرتين؛ أختي في الثالثة من العمر، أمَّا أنا فقد بلغت العامين من العمر. فكيف سننجو؟

كتبت ماما قصاصة ورق فيها لقبي واسمي ويوم مولدي، ووضعتها في جيبي، وقالت: «اذهبي». ثمَّ أشارت إلى هذا البيت. كان الأطفال يلعبون هناك. لقد أرادت أن أُرحَّل وأن أسافر مع ملجأ الأطفال، وذلك لخشيتها من أن نهلك جميعاً. لقد أرادت أن ينقذنا أحدٌ ما. ووجب أن أذهب لوحدي، فإذا أخذتني أمِّي إلى ملجأ الأطفال، لأعادونا من حيث أتينا. إذ كانوا يأخذون فقط الأطفال الذين ظلُّوا بلا والدين، بينما أنا لديَّ أم. وقد تقرَّر مصيري كلُّه في عدم الالتفات إلى الخلف، وإلا ما كنت سأبتعد عن أمِّي، كجميع الأطفال، ولانطلقت نحوها وتمسَّكت بعنقها، ولما أرغمني أحدٌ على البقاء في بيت غريب. هذا مصيري.

قالت ماما: «اذهبي وافتحي ذلك الباب». وهذا ما فعلته. لكن الملجأ لم يستطع إجلاء الأطفال...

وأذكر الصالة الكبيرة، وسريري بالقرب من الجدار. وثمَّة أسرَّةٌ كثيرةٌ

جداً. كنا نقوم بترتيب الفراش بأنفسنا بعناية، ويجب أن تكون الوسادة في مكان معين، وإذا وُضعت في مكان آخر تعنِّفنا المربِّية، بالأخص لدى مجيء رجال ما ببزّات عسكرية سوداء. هم رجال شرطة أو ألمان، لا أدري، وبقيت في ذاكرتي البزّات السوداء. لا أذكر ما إذا كانوا يضربوننا، لكنني كنت أخاف دوما أن ينهالوا عليَّ بالضرب. كما لا أستطيع تذكُّر ألعابنا، لكننا كنا نعبث ونتحرَّك كثيراً، ونرتِّب الأشياء ونغتسل. لكن هذا عمل، بينما لم يبقَ في ذاكرتي شيء عن أمور طفولية ما، ضحك... أو نزوات.

لم يشفق علينا أو يدلِّلنا أحد. لكنني لم أنطلق في البكاء والمطالبة بأخذي إلى أمّي. فإلى جانبي لم يكن هناك أيُّ طفل له أم. إننا حتى لم نذكر هذه الكلمة، لقد نسيناها. كانوا يطعموننا بأن توضع أمامنا خلال اليوم كلِّه قصعة فيها عصيدة ما وقطعة خبز. ولم أحب العصيدة، وكنت أعطي نصيبي منها إلى صبية كانت تعطيني بالمقابل قطعة الخبز. هكذا كانت صداقتنا. ولم يلقِ أحدٌ بالاً إلى هذا، وسارت الأمور على ما يرام، لحين كشف المربِّية لمبادلاتنا؛ فعاقبتني بالجثو على ركبتي في الزاوية، وبقيت جاثية فترة طويلة لوحدي في صالة فارغة كبيرة... وحتى الآن أود البكاء حين أسمع كلمة "عصيدة". وعندما كبرت لم أستطع أن أفهم: من أين ولماذا تثير هذه الكلمة مثل هذا النفور لدي؟ لقد نسيت ملجأ الأطفال...

كنت قد بلغت سن السادسة عشرة، لا... أظن السابعة عشرة. التقيت مربِّيتنا من ملجأ الأطفال. رأيت امرأة تجلس في الحافلة، تطلَّعت إليها وشعرت بأنني أنجذب إليها كالمغناطيس، أنجذب بشدَّة، حتى أنني غفلت النزول في محطَّتي. أنا لا أعرف هذه المرأة، ولا أتذكَّرها، لكنني أنجذب إليها. وفي نهاية المطاف لم أحتمل أكثر فانخرطت في البكاء وشعرت بالغيظ من نفسي: لماذا أنا بهذا الحال؟ كنت أنظر إليها وكأنها لوحة فنية رأيتها في وقت ما، لكنني نسيتها، وأريد النظر إليها مرَّةً أخرى. ثمَّة امرأة

عزيزة، حتى أنها تشبه أمِّي، قريبة من أمِّي، لكن من هي؟ أنا لا أعرف. وقد تدفَّق مني هذا الشعور بالغيظ وبالدموع! أدرت وجهي ومضيت نحو باب الخروج، ووقفت والدموع تنهمر من عيني.

رأتني المرأة، ودنت مني وقالت: «أنيتشكا، لا تبكي».

بينما راحت الدموع تنهمر بشدَّة أكبر لدى سماع هذه الكلمات.

* «لكنني لا أعرفك...».

- «تمعَّني فيَّ».

* «إني أقسم، أنا لا أعرفك» ثم طفقت أنتحب.

اقتادتني إلى خارج الحافلة وقالت: «تطلَّعي إليَّ جيِّداً، وستتذكَّرين كل شيء. أنا ستيبانيدا إيفانوفنا».

بينما واصلت الإصرار على كلامي: «أنا لا أعرفك. ولم ألتقِ بك من قبل أبداً».

- «هل تذكرين ملجأ الأطفال؟».

* «أي ملجأ أطفال؟ يبدو أنك واهمة».

- «لا. تذكَّري ملجأ الأطفال... أنا مربِّيتك».

* «لقد استشهد أبي في الحرب ولديَّ أم. أي ملجأ أطفال؟».

إنني حتى نسيت ملجأ الأطفال لأنني كنتُ أعيش مع أمِّي عندئذ، في بيتنا. ومسَّدت هذه المرأة رأسي بلطف، بينما أنا واصلت مع هذا ذرف الدموع. وعندئذ قالت: «خذي رقم هاتفي، واتصليُ إذا أردت أن تعرفي شيئاً يخصُّك. أنا أتذكَّركِ جيِّداً؛ فقد كنتِ أصغر الأطفال عندنا في الملجأ».

انصرفت المرأة بينما جمدت في مكاني بلا حراك. طبعا لقد وجب أن ألحق بها والاستفسار منها. لكنني لم أذهب ولم ألحق بها.

لماذا فعلت ذلك؟ لقد كنت متوحِّشة الطبع، متوحِّشة فحسب، والناس

بالنسبة إليَّ شيء غريب وخطر، ولم أحسن التحدُّث مع أي أحد. كنت أجلس وحيدة طوال ساعات، وأتبادل الأحاديث مع نفسي. وأنا أخشى كل شيء.

وجدتْني أمّي في عام 1946، وكنت في الثامنة من العمر. كان قد جرى ترحيلها مع أختي إلى ألمانيا، وعاشتا هناك بشكل ما، ولدى عودتهما أخذت ماما تبحث عني في جميع ملاجئ الأطفال في بيلاروسيا، وفقدت الأمل في العثور عليَّ. بينما كنت قريبة منها... في مينسك. ويبدو أن قصاصة الورق التي وضعتها في جيبي قد ضاعت، وأُعطي لي لقب آخر. بحثت ماما عن جميع الفتيات باسم آنا في ملاجئ الأطفال في مينسك، وقررت أنني ابنتها من العينين وطول القامة. وتردَّدت على الملجأ طوال أسبوع وتطلعت إليَّ: هل أنا ابنتها أم لا؟ لقد بقي اسمي الأصلي. وحينما رأيت ماما تغلَّب عليَّ شعور غير مفهوم، وصرت أبكي بلا سبب. لا، لم تكن هذه ذكريات عن شيء ما، بل هو شيء آخر. إذ صار الجميع حولي يردِّدون: «ماما، أمك». وتفتَّح أمامي عالم جديد - ماما! وانفتح باب سحري غامض؛ فأنا لم أعرف شيئاً عن الأشخاص الذين يُدعون بـ"ماما" و"بابا". كنت أرتعب، بينما يبدي الآخرون الابتهاج. وراح الجميع يبتسمون لي.

واستدعت ماما جارتنا من فترة قبل الحرب وقالت لها: «قولي لي أيهنّ ابنتي آنا».

فاشارت الجارة فوراً إليَّ: «هذه ابنتك آنا! لا ريب في ذلك. خذيها؛ لها عيناك، ووجهك».

في المساء جاءت إليَّ المربِّية وقالت: «غداً سيأخذوك، ستذهبين».

فغمرني الخوف.

في الصباح غسلوني وألبسوني ملابسي ورأيت الملاطفة لدى الجميع.

وابتسمت لي المربِّية العجوز المتذمِّرة باستمرار، وأدركت أنه آخر يوم لي معهم، وأنهم يودِّعونني. وبغتة تملَّكني شعور بأنني لا أرغب في الذهاب إلى أيِّ مكان. ألبسوني كلَّ ما جاءت به أمِّي: حذاء ماما، وفستان ماما. وبهذا تميَّزت عن صديقاتي في الملجأ، وقد وقفت بينهن وكأنني غريبة. كما أنهن تطلَّعن إليَّ كما لو أنهن يرونني أوَّل مرَّة.

لقد ترك الراديو أكبر انطباع لدي. لم تكن أجهزة الراديو موجودة في ذلك الوقت، وكان هناك صندوق أسود معلق في الزاوية تصدر منه الأصوات. وكنت في كل لحظة أتطلَّع إلى هناك، حين آكل أنظر إلى هناك، وحين أرقد للنوم أنظر إلى هناك. من أين يأتي البشر هناك؟ وكيف يتَّسع الصندوق لهم جميعاً؟ ولم يستطع أحد تفسير الأمر، لأنني كنت منطوية على نفسي جدّاً. لقد ربطتني أواصر الصداقة في ملجأ الأطفال مع توموتشكا، فقد أعجبتني؛ إذ كانت مرحة، وغالباً ما تبتسم، بينما لم أُعجب أنا أحداً لأنني نادراً ما أبتسم. وبدأت أبتسم حين بلغت الخامسة عشر أو السادسة عشر من العمر. وفي المدرسة كنت أُخفي ابتسامتي، لكي لا يراها الآخرون، إذ كنت خجلى. ولم أحسن التعامل حتى مع الفتيات، ففي فترات الاستراحة يتبادلن الأحاديث حول مختلف الأمور، بينما أنا لا أستطيع قول أي شيء. لذا كنت أجلس صامتة.

أخذتني أمِّي من ملجأ الأطفال. وبعد مضي يومين، في يوم الأحد، رافقتها إلى السوق. وهناك رأيت شرطياً وانتابتني حالة هستيرية، فصرت أصرخ: «ماما، الألمان!».

وانطلقت هاربة.

فتبعتْني أمِّي، وأوقفني الناس، بينما واصلت الصراخ وأنا أرتجف: «الألمان!».

بعد ذلك لم أخرج من البيت طوال يومين. وأوضحت لي ماما أنه

شرطي وهو يحمينا ويحافظ على النظام في الشارع، بينما أنا لا أقتنع بكلامها أبداً... لقد كان الألمان يأتون إلينا في ملجأ الأطفال بخوذهم السوداء. حين كانوا يأخذون الدم، يقتادونا إلى غرفة منعزلة وهم بصدارات بيضاء، لكنني لا أتذكَّر الصدارات البيضاء، بل بزَّاتهم العسكرية.

في بيتنا لم أستطع اعتياد أختي؛ فلا بدَّ من وجود شعور القرابة، بينما أنا أراها أوَّل مرَّة في حياتي، ولسبب ما تُعتبر أختي. وكانت ماما تغيب طوال اليوم في مكان عملها، ونحن نستيقظ في الصباح، فلا نجد أحداً في البيت. وهناك على الموقد قدران، نستخرج منهما العصيدة بأنفسنا. وأنا أنتظر ماما طوال النهار، فهذا شيء غير مألوف، وسعادة بالغة. بينما تعود إلى البيت في وقت متأخِّر، حين نكون قد استسلمنا للنوم.

وجدت في مكان ما دميةً، بل رأس دمية. وفرحت به، وصرت أحمله معي منذ الصباح وحتى المساء. إنه لعبتي الوحيدة. وكنت أحلم بامتلاك كرة. لدى الخروج إلى الشارع أرى الكرات لدى الجميع، وكانوا يحملونها أيامذاك في شبكات خاصة، فهكذا تباع في المحلات. وكنت أرجو أحدهم السماح لي بإمساكها.

لقد اشتريت كرة عندما بلغت الثامنة عشرة من العمر لدى استلام أول راتب في مصنع الساعات. وتحقَّق حلمي: جلبت الكرة وعلَّقتها في البيت بالشبكة في رفِّ الكتب.

وكنت أخجل من حملها إلى باحة البيت، فأنا لم أعدْ طفلة، لذا تجدني أجلس في البيت وأتطلَّع إليها.

وبعد مضي أعوام طويلة عقدت العزم على زيارة ستيبانيدا إيفانوفنا. ولم أقرِّر ذلك بنفسي، بل أصرَّ زوجي على ذلك: «لنذهب سوية. كيف لا تريدين أن تعرفي شيئاً عن نفسك؟».

* «هل أنا لا أريد؟ أنا أخاف...».

أدرت رقم الهاتف فسمعت صوتاً يقول: «ستيبانيدا إيفانوفنا ديديولا تُوفِّيتْ».

لم أستطع أن أغفر لنفسي ذلك...

يجب عليك الذهاب إلى الجبهة، بينما أنت تعشق أمي...

يانيا تشيرنينا – 12 عاماً.

الآن – معلمة.

إنه يوم كبقية الأيَّام... وبدأ هذا اليوم بصورة اعتيادية...

عندما ركبت حافلة الترام كان الناس يتحدثون: «شيء فظيع! شيء فظيع!». لكنني لم أفهم شيئاً ممَّا حدث. وصلت إلى البيت فوجدت ماما منهمكة في إعداد العجين، والدوع تنهمر من عينيها بغزارة. سألتها: «ماذا حدث؟». كان أوَّل شيء سمعته منها هو: «الحرب! إنهم يقصفون مينسك...». بينما رجعنا قبل أيَّام فقط إلى روستوف من مينسك، حيث حللنا ضيوفاً لدى خالتي.

في أوَّل أيلول/ سبتمبر ذهبنا مع هذا إلى المدرسة. وفي العاشر من أيلول/ سبتمبر أُغلقت المدرسة. بدأ إجلاء السكَّان من روستوف. وقالت ماما إن من الواجب جمع حاجيات السفر، بينما كنت لا أوافقها: «أي إجلاء؟». وذهبت إلى لجنة الكومسومول في المنطقة وطلبت أن يتم قبولي في الكومسومول بصورة مبكِّرة. لكنهم رفضوا، لأن القبول في الكسمول يتم لدى بلوغ سن أربعة عشر عاماً، بينما كنت في الثانية عشرة. وكنت أعتقد بأنه في حالة قبولي في الكومسومول أستطيع المشاركة في كلِّ شيء، وأصبح كبيرة فوراً، وأستطيع الذهاب إلى الجبهة.

ركبنا أنا وماما عربة القطار ومعنا حقيبة واحدة فيها دميتان كبيرة وصغيرة. وكما أذكر فإن ماما لم تعارض حين وضعتهما فيها. أما كيف أنقذتنا هاتان الدميتان، فسأتحدَّث عن ذلك لاحقاً...

وصلنا إلى محطَّة قفقاسيا، وقد قُصف القطار بالقنابل، ونزلنا في محطة فرعية ما. لم نعرف إلى أين نذهب.. وعرفنا أمراً واحداً هو أننا نبتعد عن خطِّ الجبهة، وعن المعارك. هطل المطر بغزارة، وغطَّتْني ماما بجسدها. نزلنا في محطَّة بالاجاري في ضواحي باكو مبللين وأسودين بسبب دخان القاطرة. كما كنا نتضوَّر جوعاً. كنا قبل الحرب نحيا حياةً متواضعةً جدَّاً، ولم تكن لدينا أشياء ثمينة يمكن أن نحملها إلى السوق لمبادلتها أو لبيعها، وكانت ماما تملك الهوية الشخصية فقط. جلسنا في المحطَّة ولم نعرف ماذا نفعل. إلى أين نذهب؟ جاء جندي، لم يكن جندياً بل هو "جنيدي"، صغير الجسم جدَّاً، ملوَّح السحنة، يحمل كيساً على ظهره، فسأل: «يا امرأة، إلى أين أنت ذاهبة؟».

* «لا أعرف. نحن من النازحين».

كان يتحدَّث بالروسية بلكنة خفيفة: «لا تخافي، اذهبي إلى القرية فهناك أمِّي. لقد جنَّدونا جميعاً في الجيش: أبي وأنا وأخي. وأصبحت أمِّي وحيدة. فساعديها، ويمكن أن تعيشا سوية. وأنا سأعود وأتزوَّج ابنتك».

أعطانا العنوان، ولم يجد ما يكتب عليه، فاحتفظنا به في ذاكراتنا، محطَّة يفلاخ، منطقة كاخ، قرية كوم، موسى موسايف. لقد حفظت العنوان طوال حياتي، بالرغم من أننا لم نذهب إلى هناك. فقد أخذتْنا امرأة وحيدة كانت تعيش في كوخ خشبي مؤقَّت فيه سرير وصوان صغير فقط. كنا ننام ورؤوسنا في المدخل وسيقاننا تحت السرير.

لقد حالفنا الحظ في لقاء الناس الطيِّبين...

لن أنسى كيف دنا رجلٌ عسكريٌّ من أمِّي وبادلها الحديث، وقال إن جميع أفراد أسرته قُتلوا في كراسنودار، وإنه ذاهبٌ إلى الجبهة. كان رفاقه يدعونه إلى ركوب القطار بينما بقي واقفاً لا يستطيع مفارقتنا.

وبغتة قال لأمِّي: «أرى أنكما في محنة، اسمحا لي بأن أبقي لديكما شهادتي العسكرية، فليس لدي أحد الآن».

طفقت أمِّي تبكي. في حين فهمتُ الأمر على طريقتي؛ فصرخت بوجهه: «أنت ذاهب إلى الحرب، وجميع أفراد أسرتك قُتلوا. يجب عليك الذهاب إلى الجبهة والانتقام من الفاشيين، بينما أنت تعشق أمِّي. ألا تخجل؟!».

كان يقف مع أمِّي والدموع تنهمر من عيونهما، وأنا لا أفهم كيف يمكن أن تتحدَّث أمِّي الطيِّبة مع رجل سيِّئ كهذا، هو لايريد الذهاب إلى الجبهة، ويتحدَّث عن الحب، بينما لا يوجد الحب في وقت السلم. لماذا قرَّرت أنه يتحدَّث عن الحب؟ إذ دار الكلام عن شهادته العسكرية كملازم فقط...

وأود التحدُّث أيضاً عن طشقند. طشقند هي الحرب بالنسبة إليَّ. نحن سكنَّا في القسم الداخلي للمصنع الذي عملت فيه ماما. كان يقع وسط المدينة، وهو مبنى النادي سابقاً. وكان يقطن في البهو وقاعة المشاهدين أفراد العوائل، أمَّا العزَّاب فقد خُصِّصت لهم خشبة المسرح. وقد أطلقت عليهم تسمية "العزَّاب" لأنهم من العمَّال الذين بقيت عوائلهم في أماكن النزوح. وكان موضع إقامتنا أنا وماما في ركن قاعة المشاهدين.

أعطونا بطاقات التموين للحصول على 16 كيلوغراماً من البطاطا، لكن ماما تعمل في المصنع منذ الصباح حتى الليل، ولهذا وجب علي استلام البطاطا. وكنت أقف نصف نهار في الطابور وبعد ذلك أجرجر كيس البطاطا على الأرض لمسافة أربعة أو خمسة أحياء لأنني لم أكن

قادرة على حمله. علماً أنه لم يُسمح للأطفال بركوب وسائل النقل العامَّة، فقد بدأت موجة الإصابة بالإنفلونزا وأُعلن الحجر الصحِّي. وحدث هذا في تلك الأيَّام بالذات. وعندما وصلت إلى الجهة المقابلة لمسكننا لم تسعفْني قواي للمشي وعبور الشارع؛ فسقطت فوق الكيس وانخرطت في النحيب. لكن الناس الغرباء ساعدوني وحملوني مع كيس البطاطا إلى المسكن. أنا أشعر بالثقل حتى الآن! وأذكر كلَّ حيٍّ سكنيٍّ هناك، وما كان في وسعي ترك البطاطا، ففيه خلاصنا. كنت سأموت، لكن من دون ترك الكيس. وعادت ماما من المصنع جائعة وبسحنة مزرقَّة.

كنا نتضوَّر جوعاً، وأصاب أمِّي الهزال لدرجة أنها غدت مثلي. ولم تفارقني فكرة وجوب تقديمي المساعدة أيضاً. لم نجد ما نأكله وقرَّرت أن أبيع لحافنا القطني الوحيد لكي أشتري الخبز بالنقود. لكن لم يسمح للأطفال بممارسة البيع والشراء، ولهذا اقتادوني إلى غرفة احتجاز الأطفال في مركز الشرطة. وبقيت هناك لحين إبلاغ أمِّي بالأمر. وجاءت ماما بعد انتهاء نوبة العمل، فاصطحبتني، بينما كنت أشهق باكية من الخجل ولكون ماما جائعة، بينما لا توجد قطعة خبز في البيت. علماً أن أمِّي مصابة بالربو الشعبي، وكانت تسعل بشكل فظيعٍ وتنقطع أنفاسها. ووجب أن تبتلع شيئاً ما ولو قطعة صغيرة، وعندئذ تخفُّ حدَّة السعال. وكنت أحتفظ دائماً بقطعة خبز تحت الوسادة من أجلها. وقد يبدو أنني غفوت، لكنني أتذكَّر مع هذا بأن قطعة الخبز موجودة تحت الوسادة، ولديَّ رغبةٌ قويةٌ في التهامها.

ذهبت إلى المصنع بلا علم أمِّي من أجل إيجاد عمل هناك. لكنني كنت صغيرة وهزيلة الجسد جدّاً، ولهذا لم يرغبوا في قبولي للعمل، فوقفت وبكيت. وقد أشفق عليَّ أحدٌ ما فأخذوني إلى ورشة المحاسبة: هناك كلَّفوني بكتابة أذونات الأجور للعمل، وحساب الأجور. وكنت أعمل بواسطة آلة تشبه الآلة الحاسبة الحالية. الآن تعمل الآلة بلا ضوضاء، أمَّا

تلك فكانت تعمل بضجيج كالجرار، علما أنها كانت تعمل فقط لدى إنارة المصباح. وكان رأسي يتحوَّل خلال اثنتي عشر ساعة من العمل كما لو كانت الشمس تحرقني. بينما يؤدِّي الضجيج إلى إصابتي بالصمم في آخر النهار.

ووقع لي حادث فظيع: فقد حسبت أجرة أحد العمَّال ثمانين روبلاً بدلاً من مئتين وثمانين روبلاً. وكان أباً لستة أطفال، ولم يلاحظ أحدٌ غلطتي، لحين حلول يوم دفع الأجور. وسمعت أحدهم يهرول في الممرِّ ويصرخ: «سأقتلها! سأقتلها! بمَ سأطعم أطفالي؟». وقيل لي: «اختبئي، فيبدو أنه يقصدك».

فُتح الباب، فالتصقت بالآلة، إذ لم يوجد مكان أختبئ فيه. وظهر رجل ضخم الجثَّة وبيده شيء ما ثقيل: «أين هي؟».

فأشاروا إليَّ: «هذه هي».

لكنه استند إلى الجدار.

– «أف وتف! لا يوجد من أقتله، فهي نفسها ستموت بهذا الحال». ثم استدار وانصرف.

أمَّا أنا فقد سقطت على الماكينة. وتملَّكتني موجة بكاء.

كانت ماما تعمل في قسم الرقابة التقنية في المصنع نفسه. وكان مصنعنا ينتج ذخائر القاذفة الصاروخية "كاتيوشا"، وكانت القذائف من صنفين؛ بزنة ستة عشر كيلوغراماً، وأخرى ثمانية كيلوغرامات. ويتم اختبار متانة جسم القذيفة تحت الضغط. ووجب رفع القذيفة وتثبيتها وتشغيل الكمية المطلوبة من الضغط الجوِّي. فإذا كان الجسم سليماً يُرفع ويوضع في صندوق. أمَّا إذا لم يكن سليماً، ولا تتحمَّل اللولبة الضغط، فإن القذائف تنطلق عندئذ عالياً تحت سقف القسم، ثم تسقط في أيِّ مكان. وعندما

يبدأ العويل والخوف لدى انطلاق القذائف، يختبئ الجميع تحت ماكينات التشغيل...

كانت أمّي ترتجف وتصرخ في الليالي. فأحتضنها وعندئذ تهدأ.

كان ذلك في نهاية عام 1943. واصل جيشنا الهجوم منذ وقت بعيد، وأدركت أن من واجبي أن أتعلّم. فذهبت إلى مدير المصنع، وكان يقف في غرفة المكتب رجل طويل القامة، ولهذا لم يرني من وراء الطاولة تقريباً. وبدأت العبارة التي أعددتها للكلام: «أريد ترك المصنع، فيجب عليَّ أن أتعلّم».

فاغتاظ المدير: «نحن لا نسرِّح أحداً. الآن زمن الحرب».

– «أنا أخطئ في كتابة فواتير الدفع، لأنني غير متعلمة. ومنذ فترة قريبة أخطأت في حساب أجور أحد العمّال».

* «ستتعلّمين. لديَّ نقص في الكوادر».

– «بعد الحرب يجب أن يعمل أناس متعلّمون، وليس من تعلّم بصورة ذاتية».

نهض المدير من وراء الطاولة: «آه، يا لك من حشرة صغيرة! تعرفين كل شيء!».

التحقت بالصف السادس في المدرسة. وكان المعلّمون في دروس الأدب والتاريخ يتحدّثون إلينا، بينما نحن منهمكون في حياكة الجوارب والقفازات وأكياس التبغ للجيش. نمارس الحياكة ونحفظ الأشعار، ونكرِّر سوية أعمال بوشكين.

انتظرنا نهاية الحرب، وكان ذلك الحلم المأمول، لدرجة أنني وأمّي كنا نخشى التحدُّث عنه. كانت أمّي في المصنع حين جاء إلينا المفوّضون وسألونا جميعاً: «ماذا في وسعكم التبرُّع به إلى صندوق الدفاع؟». وسألوني

أيضاً. ماذا كان يوجد لدينا؟ لم يكن لدينا شيء سوى عدة سندات قرض احتفظت بها أمِّي. الجميع كانوا يتبرَّعون بشيء ما، فكيف لا نتبرَّع نحن؟! فأعطيت جميع السندات.

وأذكر أنه عندما عادت ماما من العمل، لم تعنِّفْني، بل قالت: «هذا كان كل ما لدينا، باستثناء دميتيك».

لقد تخلَّيت عن الدميتين أيضاً. فقد أضاعت ماما بطاقات التموين الشهرية، وقد اقتربنا من الهلاك بكلِّ معنى الكلمة. وطرأت في رأسي فكرة للخلاص باستبدال الدميتين، الكبيرة والصغيرة، بشيء ما. فأخذناهما إلى السوق. ودنا عجوز أوزبكي وقال: «كم قيمتهما؟». فقلنا إن من الواجب أن نحيا خلال شهر، ولا توجد لدينا بطاقات تموين. فأعطانا العجوز الأوزبكي 16 كلوغراماً من الرز. وهكذا لم نهلك من الجوع. وأقسمت ماما: «سأشتري لك دميتين جميلتين، حالما نعود إلى بيتنا».

عندما رجعنا إلى روستوف لم تستطع شراءهما لي، لأننا كنا في حالة فقر مجدَّداً. ولكنها اشترتهما لي في يوم تخرُّجي من المعهد. اشترت دميتين، كبيرة وصغيرة...

في آخر لحظة

ذكرا اسميهما بصوت عال...

أرتور كوزييف – 10 أعوام.

الآن – مدير إدارة فندق.

قرع أحدهم الجرس. تأرجح الجرس وتأرجح.

لقد أغلقت كنيستنا منذ وقت بعيد، وحتى أنني لا أذكر متى أُغلقت، وتحوَّلت إلى مستودع للكولخوز. واحتفظ بالحبوب فيها. ولدى سماع الجرس الصامت منذ وقت بعيد، ذهل أبناء القرية: «مصيبة!». ماما.. الجميع خرجوا إلى الشارع.

هكذا بدأت الحرب...

إنني أغلق عيني الآن، فأرى...

جرى في الشارع اقتياد ثلاثة من رجال الجيش الأحمر بأيدٍ مقيَّدةٍ إلى الخلف بأسلاك شائكة. كانوا بملابسهم الداخلية. اثنان شابَّان والثالث كهل، كانوا يسيرون خافضي الرؤوس.

جرى إعدامهم رمياً بالرصاص بالقرب من المدرسة، في الطريق.

وفي آخر اللحظات صاروا يذكرون بصوت عال أسماءهم وألقابهم أملاً في أن يسمعها ويتذكَّرها أحدٌ ما. ويبلغ ذويهم.

أنا نظرت عبر شقِّ السياج، واحتفظت بها في ذاكرتي.

أحدهم فانيتشكا بالاي، والثاني رومان نيكونوف. أمَّا الكهل فقد صرخ: «عاش الرفيق ستالين!».

وفور ذلك اندفعت في الطريق نفسه شاحنات ألمانية ضخمة، وهم يرقدون هناك. ودهست جثثهم الشاحنات التي تحمل الجنود والذخيرة. وسارت في أعقابها الدراجات النارية. كان الألمان يمضون بسرعة بلا توقُّف، ليلاً ونهاراً، وخلال أيَّام كثيرة.

بينما كنت أكرِّر. ويحدث أن أستيقظ في الليل وأكرِّر: فانيتشكا بالاي، رومان نيكونوف... أنا لا أعرف لقب الثالث...

سحبنا نحن الأربعة تلك الزحّافة

زينا بريخودكو – 4 أعوام.

الآن – عاملة.

القنابل تتساقط. الأرض ترتج، ويرتجُّ بيتنا...

كان بيتنا صغيراً، وفيه حديقة. اختبأنا في البيت، وأغلقنا مصاريع النوافذ. جلسنا نحن الأربعة: شقيقتاي وماما وأنا. وقالت ماما إن النوافذ مغلقة ولهذا لا خوف علينا. ونحن وافقناها بأنه لا خوف علينا، بينما كنا في دخائلنا نخاف، لكننا لم نرغب في أن تتكدَّر أمُّنا.

ذهبنا للتزوُّد بالطعام، وإذا بأحدهم أجلسنا نحن الصغار فوق الرزم والعقد. ولأمر ما تصوَّرت بأنني إذا لم أغفُ فلن يقتلوني، وعملت جهدي لكي لا تنغلق عيناي، لكنهما كانتا تنغلقان لوحدهما. عندئذ اتَّفقت مع أختي الكبرى بأنني سأغلق عيني أوَّلاً وأنام، وستتولَّى الحراسة لكي لا يقتلونا، وبعد ذلك تنام هي، وأتولَّى أنا الحراسة. لكننا غفونا كلتانا واستيقظنا لدى سماع صراخ أمِّي: «لا تخافوا! لا تخافوا!». بدأ إطلاق النار في مكان ما أمامنا، وتعالى صراخ الناس. أخفضت ماما رؤوسنا، لكننا كنا نريد أن نرى ما يجري حولنا.

توقَّف إطلاق الرصاص، وواصلنا السير. ورأيت أناساً راقدين في الحفر والأخاديد على جانبي الطريق، فسألت ماما: «ماذا يفعل هؤلاء الناس هنا؟».

فأجابت ماما: «إنهم نيام».

- «ولماذا ينامون في الحفر؟».

* «لأنه زمن الحرب».

ورحت أتدلَّل بنزوة وأقول: «هل معنى ذلك أننا سننام في الحفرة؟ لكنني لا أريد أن أنام في حفرة».

توقَّفت عن التدلُّل حينما رأيت ماما تذرف الدموع.

طبعا أنا لم أعرف إلى أين نسير، ولم أدرك ذلك. وأتذكَّر فقط كلمة "أزاريتشي" والأسلاك الشائكة التي منعتنا ماما من الاقتراب منها. وبعد الحرب علمت بأننا كنا في معسكر الاعتقال "أزاريتشي". وحتى ذهبت إلى ذلك المكان. ولكن ماذا في وسع المرء أن يرى هناك اليوم؟ أعشاب نامية وقفر... مشهد اعتيادي. وإذا ما بقي شيء فهو موجود في ذاكرتنا فقط.

إنني حين أروي ذلك أعضُّ يدي حتى يتدفَّق منها الدم بغية ألا أبكي.

لقد جُلبت ماما من مكان ما وأُلقيت على الأرض. وكما أتذكر فإننا زحفنا إليها، من دون أن نقترب. ناديناها: «ماما! ماما!». وأنا أرجوها: «لا تنامي!». وتلطَّخنا جميعاً بالدم لأن ماما كانت كلها غارقة في الدم. أعتقد فكرت أننا لم ندرك أن هذا دم، وما هو الدم، لكننا فهمنا بأن شيئاً فظيعاً وقع.

كانت الشاحنات تأتي يومياً، فيجلس فيها بعض الناس ويذهبون فيها. ورجونا ماما: «ماما لنذهب في الشاحنة. فلربَّما إنها تذهب إلى الجهة التي تقطن فيها جدَّتنا». لماذا تذكَّرنا الجدَّة؟ لأن ماما كانت غالباً ما تُردِّد أن جدَّتنا تعيش في مكان قريب ولا تعرف أين نحن. إنها تعتقد أننا في مدينة غوميل. ولم ترغب ماما في ركوب تلك الشاحنة، وكانت تبعدنا في كلِّ مرَّة عنها. بينما كنا نبكي ونتوسَّل ونرجو. وفي صباح أحد الأيَّام وافقت؛ فقد بدأ الشتاء، وبدأنا نشعر بالبرد.

أنا أعضُّ يدي لكي لا أبكي. أنا لا أستطيع الحديث بلا ذرف الدموع...

انطلقت بنا الشاحنة فترة طويلة، وقال أحدٌ ما لماما أو أنها خمنت لوحدها بأنهم يأخذوننا إلى ساحة الإعدام. وعندما توقَّفت الشاحنة أمرونا جميعاً بالنزول منها. كانت هناك مزرعة صغيرة. وسألت ماما المرافق: «هل يمكن أن نشرب الماء؟ الأطفال يريدون شرب الماء». فسمح لنا بالذهاب إلى أحد البيوت الريفية، وأعطتنا صاحبة البيت قدحاً كبيراً فيه ماء. كانت ماما تشرب بجرعات صغيرة، وببطء، أمَّا أنا فقد فكرت: «لي رغبة شديدة في تناول الطعام، فلم أرادتْ ماما شرب الماء؟».

شربت ماما قدحاً كاملاً وطلبتْ قدحاً آخر. فملأت صاحبة البيت القدح وقالت: يأخذون كثيراً من الناس في كلِّ صباح إلى الغابة، ولا يرجع منها أحد.

وسألت ماما: «هل يوجد في البيت مخرج آخر لكي نخرج منه؟».

أومأت صاحبة البيت بيدها إلى المخرج الآخر. إذ يقود أحد الأبواب إلى الشارع والآخر إلى الباحة الخلفية. خرجنا من البيت وزحفنا. أعتقد أننا لم نمشِ، بل زحفنا إلى بيت جدَّتنا. كم زحفنا؟ لا أتذكَّر.

أرقدتنا جدَّتنا فوق سطح الموقد، بينما أرقدت ماما في السرير. وفي الصباح كانت ماما في النزع الأخير. فجلسنا وقد استبدَّ بنا الخوف ولم نستطعْ أن نفهم، كيف يمكن أن تموت ماما، وتتركنا، في غياب بابا؟ وأذكر أن ماما استدعتني وابتسمت: «لا تتشاجروا أبداً، ياصغاري».

ولمَ نتشاجر؟ ولأيِّ سبب؟ كان لدينا حجر كبير بمثابة دمية، ولم توجد سكاكر، ولم توجد ماما لكي نشكو إليها.

في الصباح لفَّت الجدَّة جثمان ماما في شرشف أبيض كبير ووضعته فوق الزحافة. وسحبنا نحن الأربعة جميعا تلك الزحَّافة...

أرجو المعذرة... أنا لا أستطيع الحديث أكثر. أنا أنتحب...

غدا ذانك الصبِيّان خفيفين مثل عصفورين

رايا إيلنيكوفسكايا – 14 عاماً.

الآن – مدرسة علم المنطق.

لن أنسى رائحة أشجار الزيزفون في مدينتي يلسك...

في زمن الحرب بدا كل شيء قبلها وكأنه أروع شيء في الدنيا. وبقي لدي هذا الشعور إلى الأبد. وحتى اليوم.

نزحنا من يلسك، ماما وأنا وأخي الأصغر. ووجدنا المأوى في قرية غريبانوفكا في ضواحي فورونيج. واعتقدنا بأننا سننتظر هناك حتى نهاية الحرب، ولكن بعد عدَّة أيَّام من وصولنا إليها اقترب الألمان من فورونيج، واقتفوا أثرنا.

ركبنا قطار البضائع، وقيل لنا إن الجميع سينقلون بعيداً إلى الشرق. وطمأنتنا ماما قائلة: «ستكون هناك فواكه كثيرة».

وكانت رحلتنا طويلة لأننا غالباً ما كنا نتوقَّف في المحطَّات الفرعية. ولم نعرف كم سنتوقَّف هناك، ولهذا كنا نجازف مجازفة كبيرة بالنزول في المحطَّات من أجل أخذ الماء. طُبخت عصيدة جريش الدخن من أجل الجميع في العربة في دلو وضع فوق موقد "بورجويكا". وكنا نتناول هذه العصيدة طوال رحلتنا.

توقَّف القطار في محطَّة كورغان – تبه القريبة من أنديجان. وقد أدهشتني الطبيعة الغريبة هناك لدرجة أنني حتى نسيت الحرب لبرهة؛

فهناك وفرة من الأزهار، والجوُّ حارٌّ ملتهب، وثمة وفرة من الشمس. وعدت إلى مرحي، وعاد إليَّ كل شيء، كما في السابق.

نقلونا إلى كولخوز "قزل يول". مضت فترة طويلة لكن هذه التسمية بقيت راسخة في ذاكرتي. وأنا حتى أعجب لكوني لا أنساها. وأذكر أنني حفظتها أيامذاك بتكرار الكلمات الغريبة عدة مرات. واستقر بنا المقام، ثماني عوائل سوية، في قاعة الرياضة في المدرسة المحلِّية. جلب أهالي القرية لنا الأغطية والوسائد. وتُصنع الأغطية الأوزبكية عادة من قطع قماش زاهية الألوان، والوسائد محشوَّة بالقطن. وتعلَّمت بسرعة جمع حزم الأعواد الجافَّة لنبات القطن لاستخدامها كوقود.

لم ندرك فوراً أن الحرب تدور هناك أيضاً. فقد أعطونا قليلاً من الدقيق الذي لا يكفينا لفترة طويلة؛ فبدأنا نتضوَّر جوعاً. علماً أن الأوزبكيين كانوا يعانون من الجوع أيضاً. وكنا نركض مع الصبية الأوزبكيين وراء العربات أملاً في سقوط شيء منها، وتكون فرحتنا غامرة حين نحصل على تفل بذور الكتان المعصورة، أو تفل بذور القطن؛ وهو صلب جدّاً وأصفر اللون ويشبه الحمُّص.

كان أخي فاديك في السادسة من العمر، وكنا نتركه في البيت وحيداً، بينما أذهب مع ماما إلى العمل في الكولخوز. كنا نطمر الرز ونجني القطن. ونظراً لعدم اعتيادي على هذا العمل فقد كنت أشعر بالألم في يدي، ولم أستطع النوم ليلاً. وعندما عدت مع ماما إلى البيت مساء وجدت فاديك حاملاً على كتفه ثلاثة عصافير متدلِّية من حبل، وبيده مقلاع. وكان قد غسل فرائسه في الغدير وانتظر عودة ماما لكي تطبخ لنا الحساء. وبدا فخوراً بصيده! وأكلنا أنا وماما الحساء وأطرينا فاديك، علماً أن العصافير هزيلة، ولا يوجد أثر لتألُّق السمن في القدر، بينما كانت تتألَّق فقط عينا فاديك فوق القدر.

لقد ارتبط أخي بأواصر الصداقة مع صبيٍّ أوزبكي جاءنا مرَّة برفقة جدَّته. فنظرت إلى الصبيِّين وهزَّتْ رأسها ثم قالت كلاماً ما لأمِّي. لم تفهم أمِّي كلامها، لكن في تلك اللحظة جاء رئيس فريق العمَّال الذي يجيد التحدُّث بالروسية، فترجم لنا أقوالها: «إنها تخاطب الله. وتشكو له من أن الحرب أمر يتعلَّق بالرجال، بالمقاتلين. فما ذنب الأطفال الذين يتعذَّبون؟ كيف سمح الخالق بأن يصبح هذان الصبِيَّان هزيلين مثل العصافير التي يصطادانها بواسطة المقلاع؟». وسكبت الجدَّة على الطاولة حفنة من المشمش المجفَّف الذهبي اللون؛ إنه صلب وحلو مثل السكَّر! ويمكن أن تُمصَّ القطعة منه فترة طويلة وأن تُقطَّع إلى أجزاء صغيرة، وبعد ذلك تُدقُّ الحبَّة ويؤكل اللب المقرقش.

تطلَّع حفيدها إلى المشمش المجفَّف ذاك، وعيناه تنمُّ أيضاً عن الجوع. إنهما تطلقان الشرر! ارتبكت ماما، فطبطبت على يدها، وطمأنتها، واحتضنت حفيدها. وترجم رئيس فريق العمَّال قولها: «لديه دائماً صحن مملوء بالكاتيك، لأنه يعيش في بيته مع جدَّته». والكاتيك هو حليب الماعز الحامض. وبدا لي وشقيقي أنه لا يوجد شيء ألذُّ طعماً منه طوال فترة وجودنا في مكان اللجوء.

انصرفا، الجدَّة والصبي، بينما جلسنا وراء الطاولة نحن الثلاثة. ولم يجرؤ أي واحد منا على مدِّ يده إلى المشمش المجفَّف الذهبيِّ اللون...

كنت أشعر بالخجل،
لأنني ألبس حذاء الفتيات

مارلين روبيتشيكوف – 11 عاماً.

الآن – رئيس قسم في البلدية.

رأيت الحرب من شجرة...

لم يسمح لنا الكبار، لكننا كنا مع هذا نتسلَّق الشجر ونراقب المعارك الجوية من ذرى أشجار الشوح العالية. كنا نبكي لدى احتراق طائراتنا، لكن بلا خوف، كما لو كنا نشاهد فيلماً سينمائياً. وفي اليوم الثاني أو الثالث جمعنا في مخيَّم الطلائع في الاصطفاف العام وأبلغنا المدير أنه سيتم إجلاء مخيَّمنا. وكنا نعلم أن مينسك تحترق بالقنابل، ولن يعود أحد إلى بيته، وسننقل إلى مكان ما بعيد عن الحرب.

وسأروي كيف جمعنا حاجياتنا للسفر. صدر الأمر لنا بأن نضع في الحقائب الأشياء الضرورية جدّاً فقط: الفانيلات والقمصان والجوارب والمناديل. وقد جمعناها ووضعنا في كل حقيبة ربطة عنق أفراد الطلائع. وحسب تصوُّرنا الطفولي كنا نعتقد أننا حين سنلتقي الألمان سيفتحون الحقائب ويجدون فيها ربطات العنق الحمراء. وبهذا ننتقم منهم لجميع أفعالهم.

كان قطارنا ينطلق أسرع من الحرب، وقد سبق الحرب؛ ولم يعرف الناس بعدُ شيئاً عن الحرب في المحطَّات التي توقَّفنا فيها، ولم يروها.

أمّا نحن الأطفال فكنا نحدِّث الكبار عن الحرب: كيف تحترق مينسك، وكيف قُصف مخيمنا بالقنابل، وكيف احترقت طائراتنا. ولكن كلما ابتعدنا عن بيوتنا أكثر، وكلما ازداد انتظارنا لمجيء آبائنا وأمَّهاتنا لأخذنا، لم تعد تساورنا الشكوك في أن بعضنا أصبح بلا أب وأم. ومثل هذه الفكرة حتى لم تنبجس لدى أحد. كنا نتحدث عن الحرب لكننا ما زلنا أطفال فترة السلم، ومن السلم.

انتقلنا من القطار إلى السفينة "كومونة باريس" التي انطلقت بنا في نهر الفولغا. وواصلنا السفر طوال نصف شهر ولم نبدِّل ملابسنا في الطريق ولو مرة واحدة. وفي السفينة نزعت الخُفَّين أوَّل مرَّة. وعندما نزعتهما انبعثت رائحة عفنة جدّاً! وقد غسلتهما وغسلتهما ثم رميتهما. ووصلت إلى خفالينسك حافي القدمين.

كان عدد الأطفال القادمين كبيراً جدّاً، الأمر الذي تطلَّب استحداث ملجأين للأطفال البيلاروس، أحدهما للتلامذة والآخر للأطفال دون سن المدرسة. لماذا أنا أعرف ذلك؟ لأنه تعالى صراخ وبكاء الأطفال الذين وجب فصلهم عن الأخ أو الأخت، وبكي على الأخص الأطفال الصغار الذين خشوا فقدان الأخوة الأكبر سناً. وعندما أصبحنا في مخيَّم الطلائع بدون والدين، بدا ذلك شيِّقاً وكأنه لعبة ما، أمَّا هنا فقد استولى علينا الخوف جميعاً. نحن الأطفال الذين شبُّوا في بيوت أهلهم واعتادوا عليهما، وعلى الحنان. كانت أمِّي توقظني في الصباح دائماً، وتقبِّلني قبل النوم في الليل. وكان يوجد بالقرب منا ملجأ للأطفال حيث عاش أطفال الملجأ "الحقيقيون"، لكننا كنا نختلف عنهم تماماً. فهم اعتادوا العيش بلا آباء وأمَّهات، ووجب علينا أن نعتاد على ذلك أيضاً.

تحضرني في الذاكرة نوعية الطعام في عام 1943. كانت تُعطى لنا في اليوم ملعقة من الحليب المركَّز وقطعة خبز وشوندر مغلي، وفي الصيف

يُعطى لنا حساء قشور البطِّيخ. وشاهدنا فيلم "آذار/مارس - نيسان/إبريل"، وتدور أحداثه حول كيف كان رجال استخباراتنا يطبخون عصيدة من لحاء شجرة البتولا. وتعلمت فتياتنا أيضاً طبخ عصيدة لحاء البتولا.

في الخريف كنا نقطع الأخشاب لاستخدامها كوقود، بمعدل متر مكعَّب واحد. والغابات في الجبال. ووجب قطع الشجرة أوّلاً، ثمَّ نزع قشرتها، وبعد ذلك تُقطَّع إلى أجزاء بطول متر ثم تُصَفُّ في أكوام. علماً أن المعدَّل المقرَّر للعمل مخصَّص للبالغين، بينما كانت تعمل معنا الفتيات أيضاً. وتحملّنا العبء الأكبر نحن الصبية. إننا في بيوتنا لم ننشرْ أيَّ أخشاب، فكل شيء جاهز في المدينة، بينما وجب هنا نشر الجذوع الضخمة وتقطيعها.

سيطرت عليَّ رغبةٌ جامحةٌ في الأكل نهاراً وليلاً، في أثناء العمل والنوم. كنت أودُّ أن آكل طوال الوقت. بالأخص في الشتاء. وكنا نتسلَّل من ملجأ الأطفال إلى موقع الوحدة العسكرية، وغالباً ما نحصل هناك على قصعة من الحساء. إلا أن عددنا كان كبيراً، وما كان في وسعهم إطعام الجميع. وإذا جئت أوَّلاً حصلت على شيء ما، أمَّا إذا تأخَّرت فتعود خالي الوفاض. كان لديَّ صديق اسمه ميشكا تشيركاسوف. كنا نجلس بينما هو يقول: «أنا مستعدٌّ للمشي عشرين كيلومتراً إذا عرفت بأنهم سيعطونني هناك قصعة فيها عصيدة». كانت درجة الحرارة خارج المبنى تعادل ثلاثين درجة تحت الصفر، لكنه لبس ملابسه وانطلق إلى الوحدة العسكرية، وطلب من الجنود شيئاً يؤكل. فقالوا إن هناك بعض الحساء، فامضِ لجلب صحنك. وعندما خرج إلى الشارع شاهد سرباً من الأطفال من ملجأ الأطفال المجاور قادمين إلى هناك أيضاً، فإذا ذهب لجلب الصحن فلن يبقى له شيء من الحساء.

فرجع إلى الجنود وقال لهم: «صبُّوا!». وبدلاً من الصحن نزع قبَّعته

ووضعها أمامهم. وبدا لهم بهيئة من لا يتراجع عن عزمه؛ فصبُّوا له الحساء كلَّه في قبعته. وسار ميشا وكأنه بطل بمحاذاة أطفال الملجأ الذين لم يبقَ لهم شيء، وعاد إلى ملجأ الأطفال الذي يسكن فيه. لقد تجمَّدت أذناه بسبب البرد، لكنه جلب لنا الحساء، علماً أن لم يكن حساءً، بل كان جليداً ملء قبَّعته كلِّها. فأخرجنا قطعة الجليد هذه ووضعناها في صحن، ولم ينتظر أحد أن يذوب بل أكلناها كما هي، بينما قامت الفتيات بتدليك أذني ميشكا. وبدا فرح القلب مشرق النفس لكونه جلب الحساء إلى الجميع، حتى أنه لم يكن البادئ بالأكل.

كان يتعلَّم معنا في الصف ابن مدير مصنع الزيوت. الأطفال هم الأطفال. فنجلس في أثناء الدرس، ونمارس لعبة "المعارك البحرية". بينما نجده يمضغ الخبز المغمس بزيت عبَّاد الشمس في الصف الأخير، ورائحته تغمر الصف كلَّه.

كنا نتهامس ونشير إليه بقبضات أيدينا مهدِّدين إيَّاه حالما ينتهي الدرس...

وتطلَّعنا فلم نجد المعلِّمة أمامنا. ونظرنا فإذا هي راقدة على الأرض؛ كانت جائعة وتحسَّست تلك الرائحة أيضاً، فأُغمي عليها. رافقتها الفتيات إلى بيتها، وكانت تعيش مع أمِّها. وقرَّرنا أن يقوم كلُّ واحدٍ منا اعتباراً من ذلك اليوم باقتصاد قطعة خبز صغيرة وتسليمها إلى المعلِّمة. علماً أنها ما كانت لتأخذها منا، ولهذا عمدنا إلى إعطائها إلى أمِّها ورجوناها عدم إبلاغها بأنها منا.

كانت لدينة حديقة وحقل. ونمت في الحديقة أشجار التفَّاح، بينما نما في الحقل الملفوف والجزر والشمندر. وكنا نحرسها، في نوبات تضمُّ عدَّة أشخاص. وكنا نفكِّر في الليل: «حبَّذا لو نمتْ جزرة أخرى خلال

الليل. عندئذ لن تكون في القائمة ويمكن أكلها». وإذا ما أدرجت الجزرة في القوائم، فالخوف إن فقدت. شيء مخجل!

نحن نجلس في الحقل، وحولنا الطعام، بينما نحن نصبر ولدينا رغبة شديدة في الأكل. وقُيِّض لي مرة أن أدَّيت النوبة مع صبيٍّ أكبر مني سنّاً. فطرأت في رأسه فكرة: «هل ترى البقرة التي ترعى هناك؟».

* «نعم. ماذا عنها؟».

- «يا غبي! ألا تعرف بأن هناك قانوناً بأنه إذا ما رعت بقرة أحدهم في حقل تابع للدولة تُصادَر البقرة أو تفرض الغرامة على صاحبها».

* «لكنها ترعى في الروضة».

- «هل هي مربوطة هناك؟».

وعندئذ طرح خطَّته: نجرُّ البقرة إلى حديقتنا ونربطها هناك. وبعد ذلك نبحث عن صاحبة البقرة. وهذا ما فعلناه: فقد سحبنا البقرة إلى حديقة ملجأ الأطفال الذي نعيش فيه وربطناها هناك. وذهب زميلي في الحراسة إلى القرية، ووجد صاحبة البقرة، وشرح لها كيف أن بقرتها موجودة في حديقة تابعة للدولة، وإنها تعرف القانون بهذا الصدد...

أنا لا أدري. إنني أشك في أن صاحبة البقرة قد صدَّقتنا وخافت، بل إنها أشفقت علينا حين رأت أننا جياع. واتَّفقنا على أن نرعى بقرتها مقابل أن تعطينا عدَّة حبَّات بطاطا.

أُصيبت بنت عندنا بالمرض، ووجب أن ينقل إليها الدم. ولم يوجد في ملجأ الأطفال كلِّه من يمكن أخذ دمه. هل تفهمين؟

حلم الذهاب إلى الجبهة... اجتمعنا نحن عدَّة صبية، وهم من أكثرنا اندفاعاً وحماساً، وقرَّرنا الهرب. ولحسن الحظ جاء إلى ملجأ الأطفال النقيب غورديف رئيس الجوقة الموسيقية العسكرية. فاختار أربعة من

الصبية ذوي الحسِّ الموسيقي، وأنا من بينهم. وهكذا ذهبت إلى الحرب.

ودَّعنا الجميع في ملجأ الأطفال. ولم يكن لديَّ ما ألبسه فأعطتني إحدى الفتيات بزَّة بحَّار، وكان لدى أخرى زوجان من الجزم أهدتْني واحداً منهما.

هكذا ذهبت إلى الجبهة، وكان أكثر ما يبعث على خجلي أن الجزمة هي للفتيات...

صرخت وصرخت، ولم أستطع التوقُّف عن الصراخ

لودا أندريفا – 5 أعوام.

الآن – مراقبة.

بقي لديَّ من الحرب انطباع يشبه شعلة النار، إنها شعلة تحترق وتحترق بلا نهاية.

يجتمع الأطفال الصغار، هل تعلمين عمَّ يتحدَّثون؟ إنهم يتحدَّثون عن أننا كنا قبل الحرب نحبُّ الكعك والشاي بالسكَّر. وإن هذا لن يعود أبداً. كانت أمَّهاتنا غالباً ما يبكين، إنهنَّ يبكين يومياً؛ ولهذا سعينا إلى أن نبكي أقل ممَّا في زمن السلم. كما أن نزواتنا أصبحت أقل.

كنت أعرف أن أمِّي شابة وجميلة، بينما أمَّهات الأطفال الآخرين كُنَّ أكبر سنّاً، وعرفت عندما بلغت الخامسة من العمر، بأنه لا خير بالنسبة إلينا في أن تكون أمِّي شابَّةً وجميلة، فهذا خطر. وقد أدركت ذلك وأنا في الخامسة من العمر. وحتى أنني أدركت أنه لمن الجيِّد أن أكون صغيرة. كيف يمكن أن تتمتَّع طفلة بهذا الإدراك؟ إذ لم يوضح لي أي أحدٌ شيئاً.

لقد انصرمت أعوام كثيرة. وأنا أخاف أن أتذكَّر ذلك، وحتى الآن تصيبني رجفة.

وقفت سيَّارة ألمانية بالقرب من بيتنا، وليس عن قصد، بل أصابها عطب. ودخل الجنود البيت، وطردوني مع جدَّتي إلى غرفة ثانية، بينما أرغموا أمِّي على تقديم المساعدة لهم. سُخِّن الماء وأُعدَّ طعام العشاء.

وكانوا يتبادلون الأحاديث بصوتٍ عالٍ، وبدا لي أنهم لا يتحدَّثون فيما بينهم ويضحكون، بل يصرخون على أمِّي.

أعتمت وحلَّ الليل. وبغتة هرولتْ أمِّي إلى الغرفة وأمسكتْ بيدي وانطلقتْ إلى الشارع. لم تكن لدينا حديقة. والباحة خاوية. وصرنا نركض ولكن لا ندري أين يمكن أن نختبئ. فانبطحنا تحت السيَّارة. بينما خرج الألمان وصاروا يبحثون وينيرون المكان بالمصابيح اليدوية. كانت ماما ترقد فوقي، وأنا أسمع كيف تصطكُّ أسنانها، وأصبح جسدها بارداً. لقد طفح بالبرودة.

في الصباح دخلنا إلى البيت حين انصرف الألمان. كانت جدَّتي راقدة في الفراش، وقد رُبطت إليه بالحبال عارية! الجدَّة... جدَّتي! يا للهول! صرختِ. ودفعتني أمِّي إلى الخارج. بينما واصلت الصراخ... لم أستطع التوقُّف عن الصراخ.

أصبحت أخاف السيَّارات خلال فترة طويلة. وحالما أسمع صوت المحرِّكات أبدأ بالارتجاف. كانت الحرب قد انتهت، وذهبت إلى المدرسة، فأرى عربة الترام قادمة، وإذا بي أرتجف وتصطكُّ أسناني ولا أستطيع أن أضبط نفسي. كنا في الصف ثلاثة تلامذة ممَّن عانوا من الاحتلال. وكان أحد الصبية يخاف هدير الطائرات؛ ففي الربيع حين يُصبح الطقس دافئاً تفتح المعلمة النافذة، ويسمع هدير طائرة أو اقتراب سيَّارة. فتبحلق عيناي وعينا ذلك الصبي وتتَّسع الحدقات من الرعب. أمَّا الأطفال من المهجرين الذين عادوا فكانوا يضحكون علينا.

أطلقت الألعاب النارية أوَّل مرَّة، وهُرع الناس إلى الشوارع، بينما اختبأت مع أمِّي في حفرة. وجلسنا هناك لحين انتهاء الإطلاق ومجيء جارتنا التي قالت: «اخرجا، إنها ليست الحرب، بل عيد النصر».

كما وددت الحصول على لعب الأطفال! أردت الطفولة... كنا نأخذ لبِنة ونتصوَّرها كدمية. أو يصور أصغر الأطفال نفسه كدمية. وإذا رأيت اليوم في الرمل قطع زجاج ملوَّنة فإني أريد التقاطها، فهي تبدو لي حتى الآن جميلة.

لقد كبرت في السن. وقال أحدهم: «لكم أنت جميلة! مثل أمِّك». أمَّا أنا فلم أفرح، بل ارتعبت. إنني لم أحب أبداً أن تُقال لي مثل هذه الكلمات...

أمسك الجميع بأيدي بعضهم البعض...

أندريه تولستيك – 7 أعوام.

الآن – دكتور في الاقتصاد.

كنت صبيّاً صغيراً...

وأتذكَّر أمِّي. كانت تخبز ألذَّ أصناف الخبز في القرية، كما كانت لديها أجمل صفوف من الخضروات في الحقل. وتتفتَّح أكبر أزهار الداليا في حديقة البيت وفي الباحة. وحاكت لنا جميعاً قمصاناً جميلة؛ لأبي ولأخويَّ الأكبر مني سناً ولي. وطرَّزت الياقات، بصلبان حمراء وزرقاء وخضراء.

لا أذكر من قال لي أوَّل مرَّة إن الألمان أعدموا أمِّي رمياً بالرصاص، ربَّما إحدى الجارات. فهُرعت إلى البيت. وقيل لي: «لقد أُعدمت في أطراف القرية وليس في البيت». لم يكن أبي موجوداً؛ إذا كان مع الأنصار، وكذلك أخواي الكبيران. لقد كانوا جميعاً مع الأنصار، كما لم يكن عمِّي موجوداً؛ فهو مع الأنصار أيضاً. فذهبت إلى جارنا العجوز كارب: «لقد قتلوا ماما. يجب أن نأتي بها».

ربطنا البقرة إلى العربة، إذ لم يكن لدينا حصان، وسرنا. وقال لي كارب بالقرب من الغابة: «قف هنا. أنا عجوز فلا بأس إذا قتلوني. أمَّا أنت فصبي».

وقفت في الانتظار. راودتني شتَّى الأفكار، ماذا سأقول لأبي؟ كيف سأقول له إنهم قتلوا أمِّي؟ إنها أفكار طفل، إذا رأيت ماما ميتة، فإنها لن

تعود إلى الحياة أبداً. وإذا لم أرها ميتة فسأذهب إلى البيت وأجدها هناك.

كان صدر أمِّي منخوباً برصاص الرشَّاشات. ثمَّة آثار مرصوفة على قميصها، وثقب أسود في صدغها... وأردت أن يُلفَّ رأسها بسرعة بالمنديل الأبيض لكي لا يُرى ذلك الثقب الأسود. وثمَّة شعور بأنها ما زالت تتألَّم.

لم أجلس في العربة، بل مشيت إلى جانبها.

كان يُدفن في القرية أحدٌ ما في كلِّ يوم. وأذكر كيف دُفن أربعة من الأنصار، ثلاثة رجال وفتاة. كان الأنصار غالباً ما يُقتلون ويُدفنون، لكنها أوَّل مرَّة أرى فيها كيف تُدفن امرأة. لقد حُفر لها قبر منفرد، وكانت راقدة على الأعشاب تحت شجرة الكمثرى. بينما جلست العجائز إلى جانبها وهن يمسِّدن يديها.

سألت: «لماذا وضعت على انفراد؟».

فأجابت النساء: «إنها في عزِّ الشباب».

عندما أصبحت وحيداً بلا والدين وأقارب تملَّكني الجزع. كيف سأعيش؟ نقلوني إلى قرية زاليسيه حيث تقطن خالتي مارفا. لم يكن لديها أطفال، أمَّا زوجها فكان في الجبهة. كنا نختبئ في القبو. وعندما نجلس هناك تقرِّب رأسي من رأسها وتقول: «يا ولدي».

أُصيبت خالتي بداء التيفوئيد، وأصابتْني العدوى أيضاً. فأخذتني للعناية بي العمَّة زينكا. كان ولداها يحاربان في الجبهة. في الليل أستيقظ من النوم فأراها غافية بالقرب مني على السرير: «يا ولدي...». كان الجميع يهربون من الألمان إلى الغابات، أمَّا العمَّة زينكا فتبقى إلى جانبي. ولم تتركني أبداً: «سنهلك يا ولدي معاً».

وبعد المرض لم أستطع لفترة طويلة المشي. الطريق مستو: فأمشي،

وحالما يصادفني مكان مرتفع تترنَّح قدماي. كنا ننتظر قدوم جنودنا، وذهبت النساء إلى الغابة لجمع الثمار البرية؛ فلم يكن ثمة طعام آخر يمكن أن يُقدَّم لهم.

جاء الجنود مرهقين. وقدمت لهم العمَّة زينكا التوت البرِّيَّ الأحمر في صحن. فصاروا جميعاً يُطعمونني إيَّاه، بينما كنت جالساً على الأرض وعاجزاً عن النهوض.

عاد أبي من فصائل الأنصار. وقد عرف أنني مريض فجلب لي قطعة خبز وقطعة دهن بحجم الإصبع. وفاحت من الدهن والخبز رائحة التبغ، وتنبعث من كلِّ شيء رائحة أبي.

سمعت كلمة "النصر!" حين كنت أجمع أوراق عشب الحماض في الروضة القريبة. وهرول جميع الأطفال إلى القرية متماسكي الأيدي...

إننا حتى لم نعرف كيف يُدفن الموتى...
وفجأة تذكّرنا

ميخائيل شينكاريوف – 13 عاماً.

الآن – عامل سكك حديد.

كانت ابنة الجيران طرشاء...

صاح الجميع: «الحرب! الحرب!»، أمّا هي فقد جاءت إلى أختي حاملة دميتها وهي تغني، في حين كفَّ حتى الأطفال عن الضحك. وفكّرت: «شيء طيِّب كونها لم تسمع بنشوب الحرب».

قمت مع أصدقائي بجمع شارات منظَّمة أطفال أكتوبر وأربطة العنق الحمراء ودفنَّاها في الأحراش عند ضفَّة النهر، في الرمال. مرحى لنا نحن أفراد النشاط السرِّي! إذ كنا نأتي يومياً إلى ذلك المكان.

كان الجميع يرتعبون من الألمان، حتى الأطفال والكلاب. وعمدت ماما إلى وضع البيض على المصطبة عند البيت، في الشارع؛ وعندئذ لن يدخلوا البيت. ولم يسألوا: «يهود؟». إذ كان شعري وشعر شقيقتي مجعَّداً...

وحدث مرَّةً أن ذهبنا للاستحمام في النهر، فرأينا شيئاً ما أسودَ يطفو من القاع. في تلك اللحظة دار في خلدنا أنه جذع شجرة غارقة، وصار هذا الشيء يقترب من الضفة، فشاهدنا ذراعين ورأس إنسان... لقد رأينا أنه إنسان. وأعتقد بأن أيَّ أحد منا لم يستسلم إلى الخوف، ولم يصرخ أحد

منا. وتذكَّرنا قول الكبار بأنه غرق في هذا المكان جنديٌّ مدفع رشَّاش من رجالنا وسقط مع مدفعه من طراز "ديغتياريوف" في الماء.

لقد انصرمت عدَّة أشهر من الحرب، ونحن لم نعد نخشى الموت. فانتشلنا جثَّة جندي المدفع الرشَّاش الغريق إلى الضفَّة ودفنَّاه. ذهب أحدنا وجلب مجرفة فحفرنا القبر ودفنَّاه. وقفنا صامتين. وقامت إحدى الفتيات حتى برسم شارة الصليب، إذ كانت جدَّتها تخدم في الكنيسة في زمن ما، وعلَّمتها تلاوة الصلاة.

لقد عملنا كلَّ شيء بأنفسنا، لوحدنا بلا مشاركة الكبار. بينما لم نعرف قبل الحرب كيف يُدفن الموتى، لكننا لحظتئذ تذكَّرنا.

قضينا اليومين التاليين في الغوص بحثاً عن المدفع الرشَّاش...

جمع العظام في سلَة...

ليونيدو سيفاكوف – 6 أعوام.

الآن – عامل براد ميكانيكي.

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب...

ساق الرعاة الأبقار. وأعطى جنود كتائب التنكيل مهلةً للرعاة من أجل سوق القطيع إلى ما وراء جدول غريوزا، ثم طافوا على البيوت حاملين قوائم بالأسماء، وصاروا يطلقون النار على الأفراد. كانوا يقرأون في القائمة: الأم والجد والأطفال وما هي أعمارهم... ويتابعون النظر في القوائم، فإذا لم يجدوا أحداً ورد اسمه فيها يبدأون بالبحث عنه، وقد يجدون الطفل تحت السرير أو تحت الموقد.

وعندما يجدون الجميع، يبدأون بإعدام الأفراد.

كان في بيتنا الريفي ستة أشخاص: جدَّتي وماما وأختي الكبرى، وأنا وشقيقاي الصغيران. ستة أشخاص... وعندما رأينا عبر النافذة كيف ذهبوا إلى الجيران هُرعنا أنا وأخي الأصغر إلى المدخل وأغلقنا الباب بالمزلاج. ثم جلسنا فوق الصندوق إلى جانب ماما.

لكن المزلاج كان ضعيفاً؛ فاقتلعه الألماني فوراً. وعَبَر العتبة وأطلق صلية رشّاشة. لم أُفلح في النظر إليه، ولم أعرف ما إذا كان كهلاً أم شابّاً، فانطرحنا جميعا على الأرض واختبأت أنا وراء الصندوق. ثُبت إلى رشدي أوّل مرَّةٍ حين شعرت بأن قطرات ما تتساقط فوقي، تتساقط

وتتساقط كالماء. رفعت رأسي فوجدت أمّي تنزف دماً، وقد فارقت الحياة. وزحفت تحت السرير فوجدت الأرض كلّها مغطّاةً بالدم. وأنا ملطّخ بالدم كما لو كان ماء، ومبلّل.

وسمعت أحدهم يقول: ثمة قتيلان. إنهم يحسبون عدد القتلى. وقال أحدهم: «هنا واحد غير موجود. يجب البحث عنه». بدأوا بالبحث وانحنوا للنظر تحت السرير، وكان هناك كيس حبوب وضعته ماما، واستلقيت وراءه. فسحبوا الكيس وانصرفوا راضين. ونسوا فقدان فرد واحد من القائمة. عندما انصرفوا فقدت الوعي.

ثُبت إلى رشدي مرّةً أخرى حين أُضرمت النيران في بيتنا...

شعرت بسخونة لا تطاق، وبالاختناق. ورأيت أنني ملطّخٌ بالدم ولم أدركْ أنني جريح؛ إذ لم أحسَّ بأيِّ ألم. البيت ممتلئ بالدخان... فزحفت بطريقة ما إلى الحقل ومنه تسلّلت إلى حديقة الجيران. وعندئذ فقط شعرت بأن ساقي جريحة ويدي مكسورة. غلبني الألم الشديد! ولم أحس بشيء لفترة ما.

ثُبت إلى رشدي في المرة الثالثة عندما سمعت صراخ امرأة بصوت فظيع... فزحفت نحو مصدر الصراخ.

كان الصراخ يتعالى ويتعالى في الجو. زحفت نحو مصدره بالقرب من مرآب الكولخوز. لم أرَ أحداً. كان الصراخ صادراً من مكان ما تحت الأرض. وعندئذ أدركت بأن أحدهم يصرخ من حفرة فحص السيّارات...

لم أستطع الوقوف على قدميَّ، فزحفت نحو الحفرة وقفزت إليها. كانت الحفرة مملوءة بجثث البشر. لقد كانت جثث اللاجئين من سمولينسك، وقد سكنوا عندنا في المدرسة. سبعة وعشرون لاجئاً. كانوا جميعاً راقدين في الحفرة، وفي الأعلى نهضت وسقطت صبية جريحة.

وكانت تصرخ. التفتُّ ورائي، إلى أين سأزحف الآن؟ فقد التهمت النيران القرية كلَّها، ولا يوجد شخص حي واحد سوى هذه الصبية. فسقطت بالقرب منها. كم بقيت راقداً هناك؟ لا أعرف...

أحسست بأن الصبية ميتة. فهززتها ودعوتها، لكنها لم تجب. أنا الوحيد الباقي على قيد الحياة، وجميع الباقين أموات. راحت الشمس تسخِّن المكان فيتصاعد بخار الدم الدافئ. داخ رأسي...

بقيت راقداً فترة طويلة كنت خلالها أثوب إلى رشدي ثم أفقده مرَّة أخرى. في يوم الجمعة أطلقوا الرصاص علينا، وفي يوم السبت جاء من القرية الأخرى جدِّي وخالتي، فوجدوني في الحفرة ووضعوني في عربة. كانت العربة تتمايل فأشعر بالألم وأريد الصراخ، لكنني فقدت القدرة على الكلام؛ أصبحت بلا صوت، وكنت أستطيع البكاء فقط. لم أتكلَّم خلال فترة طويلة؛ سبعة أعوام. بدأت بالهمس قليلاً، لكن لم يستطع أحد أن يفهم شيئاً من كلامي. بعد سبعة أعوام بدأت بتلفُّظ كلمة واحدة بصورة جيِّدة، والثانية... صرت أسمع نفسي.

في المكان الذي وُجد فيه بيتنا جمع جدِّي العظام في سلَّة. إنها حتى لم تكن ممتلئة...

هذا كل ما أرويه... هل هذا كل شيء؟ هل هو كلُّ ما تبقَّى من تلك الفظاعة؟ بضع عشرات من الكلمات...

القطيطات حملوها من المنزل

تونيا روداكوفا – 5 أعوام.

الآن – مديرة روضة أطفال.

العام الأوَّل للحرب... ذكرياتي عنه قليلة.

جاء الألمان صباحاً، وكان الجو ما زال رطباً في الباحة. صفُّوا الجميع في الروضة وأمروا جميع حليقي الرؤوس: «تقدَّموا إلى الأمام!». وحليقوا الرؤوس هم الجنود الذين قدَّم لهم الناس المأوى. واقتادوهم إلى طرف الغابة وأطلقوا عليهم الرصاص.

قبل هذا كنا نذهب إلى خارج القرية، ونلعب في أطراف الغابة. ويومئذ داهمنا الرعب.

أذكر كيف خبزت أمّي الخبز. خبزت كمِّية كبيرة منه: كان موضوعاً على المصاطب والطاولة وعلى الأرض فوق المناشف وفي الممر عند المدخل. وقد دُهشت لذلك: «ماما، ما حاجتنا إلى هذه الكمِّية من الخبز؟ لقد أُعدم الرجال، فمن ستطعمين؟».

فأمرتني بالخروج إلى الشارع: «اذهبي إلى الأولاد».

كنت أخشى أن يقتلوا ماما، ولهذا كنت أرافقها دوماً.

جاء رجال الأنصار ليلاً وأخذوا الخبز. ولم أرَ بعد هذا مثل تلك الكمِّية من الخبز. فقد صادر الألمان كل شيء في البيوت، وأصبحنا

نتضوَّر جوعاً. أمَّا أنا فلم أفهم.. وسألت ماما: «أشعلي النار في الموقد واخبزي خبزاً. كثيراً وكثيراً».

هذا كلُّ ما بقي في ذاكرتي عن الحرب...

ويبدو أنني كبرت لأنني أصبحت أتذكَّر المزيد. كيف أحرقوا قريتنا... في البداية أطلقوا النار، وبعد ذلك أضرموا النار في البيوت. وأنا عدت من العالم الآخر...

لم يُطلقوا النار في الشارع، بل كانوا يدخلون البيوت. وقفنا جميعاً عند النافذة: «لقد توجهوا لإطلاق النار على أنيسكا».

بينما وقفنا وانتظرنا... سيأتون إلينا ويطلقون النار علينا. لم يذرف أحدٌ الدموع، ولم يصرخ أحد. وقفنا فحسب. وكانت معنا جارتنا وأولادها، فقالت: «لنذهب إلى الشارع. إنهم لا يطلقون النار في الشارع».

ولج الباحة جنديٌّ وضابط. الضابط طويل القامة، وجزمتاه عاليتان، وقبَّعته عالية. أنا أذكر هذا جيِّداً...

اقتادانا إلى داخل البيت. وسقطت الجارة على العشب وراحت تقبِّل جزمة الضابط: «لن نذهب. نحن نعلم أنكما ستطلقان علينا النار هناك».

بينما راحا يرددان: «تسوريوك! تسوريوك!»، ومعنى ذلك: ارجعوا إلى الخلف.

في البيت جلست ماما على المصطبة عند الطاولة. وأتذكَّر أنها أمسكت كوب الحليب وراحت تُطعم صغيرنا. وتمَّ هذا بهدوء لدرجة أننا كنا نسمع التمطُّق في فمه.

أمَّا أنا فقد جلست في الركن، ووضعت المكنسة أمامي. وكان على الطاولة غطاء كبير اختبأ الصبي ابن الجيران تحته، تحت الغطاء. بينما تسلَّل أخي إلى تحت السرير. وجثت الجارة على ركبتيها عند العتبة

وراحت تصرخ بأعلى صوتها: «أيُّها السيِّد، لدينا أطفال صغار. سيِّدي، لدينا صغار مثل...».

هذا ما أذكره حينما صاحت راجيةً وراجيةً خلال فترة طويلة.

اقترب الضابط من الطاولة ورفع الغطاء وأطلق النار. وصدر صراخ من هناك. فأطلق الرصاص مرة أخرى. لكن صبي الجيران واصل الصراخ... أطلق الضابط الرصاص خمس مرات.

ثم تطلع إليَّ... ومهما سعيت إلى التخفِّي وراء المكنسة، فإنني لم أفلح في التخفِّي. عيناه دعجاوان[1] جميلتان.. غريب أن أتذكَّر هذا. وتملَّكني الرعب، وسألته من رعبي: «يا عم، هل تريد قتلي؟». لكنه لم يجب. في تلك اللحظة خرج الجنديُّ من الغرفة الثانية، كيف خرج؟ لقد سحب الستارة الكبيرة الفاصلة بين الغرفتين فحسب. واستدعى الضابط وأشار له إلى السرير حيث وُجدت قطيطات صغيرة. لم تكن هناك القطَّة بل صغارها فقط. فالتقطاها وابتسما وبدءا بملاعبتها. وبعد إنهاء اللعب أعطى الضابط القطيطات إلى الجنديِّ لكي يأخذها إلى الشارع. وهكذا حملا القطيطات إلى خارج البيت.

بقي في ذاكرتي مشهد أمِّي القتيلة وكيف احترق شعرها... بينما احترق إلى جانبها قماط الرضيع. وقد زحفت مع أخي الأكبر بمحاذاتهما، وكنت أمسك بسرواله. خرجنا أوَّلاً إلى الباحة، ومن ثمَّ إلى الحديقة المنزلية، واختبأنا حيث مزرعة البطاطا حتى حلول المساء. وفي المساء تسلَّلنا إلى الأحراش. وحينئذ بدأت الدموع تنهال من عينيَّ غزاراً.

كيف بقينا أحياء؟ لا أذكر... بقينا أحياء أنا وأخي والقطيطات الأربع. فقد جاءت جدَّتنا التي تعيش في الضفَّة الأخرى للنهر، وأخذتنا جميعاً إلى منزلها...

---

1 – شديدة السواد. (المترجم).

تذكَّر، ماريوبل، باركوفايا 6...

ساشا سوليانين، 14 عاماً.

الآن – معوَّق حرب من الفئة الأولى.

كانت لديَّ رغبةٌ شديدةٌ في أن لا أموت... بالأخص عند الفجر.

اقتادونا إلى ساحة الإعدام رمياً بالرصاص، واقتادونا بسرعة. كان الألمان في عجلة من أمرهم، وقد فهمت ذلك من حديثهم. قبل الحرب كنت أحبُّ دروس اللغة الألمانية. وحتى أنني حفظت عن ظهر قلب بعض أشعار هينه. كنا ثلاثة: اثنان من أسرى الحرب برتبة ملازم أوَّل، وأنا؛ الصبي اليافع. وقد هربت عدَّة مرَّات، وفي المرَّة الثالثة ألقوا القبض عليَّ.

لم أرغب في الموت.

همس لي أحدهما قائلاً: «اهرب! نحن سنهاجم الحراس، وأنت اهرب إلى الأحراش».

* «لن أهرب».

– «لماذا؟».

* «سأبقى معكما».

أردت أن أموت معهما كجندي.

– «نحن نأمرك: اهرب! وعش!».

كان أحدهما اسمه دانيلا غريغورفتش يوردانوف من ماريوبل... والآخر اسمه ألكسندر إيفانوفتش إيلينسكي من بريانسك.

- «تذكَّر: ماريوبل، باركوفايا 6... هل حفظت العنوان؟».

* «بريانسك، شارع... هل حفظت العنوان؟».

بدأ إطلاق النار...

فهرولت وهرولت... بينما كانت ترنُّ في رأسي كلمات: تاك- تاك.. يجب أن أحفظ العنوان... تاك-تاك-تاك... يجب أن أحفظ... ولكنني نسيته بسبب الرعب.

لقد نسيت تسمية الشارع ورقم المنزل في بريانسك...

لقد سمعت كيف توقَّف قلبه عن الخفقان...

لينا آرونوفا – 12 عاماً.

الآن – محامية.

أصبحت مدينتنا فجأة معسكراً حربياً. مدينتنا غوميل... الهادئة والخضراء.

قرَّر والداي إرسالي إلى موسكو حيث كان أخي الأكبر يدرس في الأكاديمية العسكرية. وساد الاعتقاد لدى الجميع بأن موسكو لن تُحتلَّ أبداً، فهي قلعة حصينة لا تُقهر. ولم أرغب في السفر، لكن بابا وماما أصرَّا على ذلك، لأنه حين كان يجري قصف المدينة لم أكن آكل خلال عدَّة أيَّام، وصاروا يرغمونني على الأكل قسراً. أصابني الهزال بشكل ملحوظ، وقرَّرت ماما أن الوضع هادئ في موسكو وجيِّد، وهناك سأستعيد عافيتي. وسيزورانني هي وبابا حالما تنتهي الحرب، عاجلاً جدَّاً.

لم يصل القطار إلى موسكو، وأُنزل الركَّاب في مالوياروسلافل. كان يوجد في المحطَّة هاتف للاتصال بين المدن، فأسرعت إلى هناك، وأردت الاتصال بأخي لكي أعرف ما يجب أن أفعله لاحقاً. اتصلت بأخي فقال: «اجلسي وانتظري، فسآتي إليك». أمضيت الليل في جزع، كان هناك كثير من الناس، وفجأة أعلنوا: بعد نصف ساعة سيتوجَّه القطار إلى موسكو، فخذوا أماكنكم فيه. جمعت حاجياتي وهُرعت إلى القطار، ورقدت في المصطبة العليا واستسلمت للنوم. عندما استيقظت كان القطار واقفاً

بالقرب من جدول ما، حيث انهمكت النساء في الغسيل. فدُهشت وسألت: «أين موسكو؟». فأجابوني بأن القطار سينطلق بنا إلى الشرق.

خرجت من عربة القطار وبكيت لشعوري بالضيم واليأس. ثم رأتني دينا، صديقتي، وقد غادرنا غوميل سوية، وقد ودَّعتْنا أمِّي وأمُّها، وفقدنا أحدنا الآخر في مالوياروسلافل. والآن اجتمعنا سوية مرَّة أخرى. وعندئذٍ لم أعد أخاف. كان يُقدَّم لنا الطعام في المحطَّات: سندويتشات وحليب في عربات تجرُّها الخيول، وفي إحدى المرَّات أعطونا الحساء.

أنزلونا في محطَّة جاركول بمقاطعة كوستاناي. وركبنا أنا ودينا عربة أوَّل مرَّة. وراحت إحدانا تطمئن الأخرى، بأننا سنصل إلى مكان السكن وفور ذلك نكتب رسائل إلى أهلنا. وقلت: «إذا لم يقصفوا بيتنا فلا بدَّ أن يستلم الوالدان رسائلنا، وإذا ما قُصف فلمن نرسل الرسائل؟». كانت أمِّي تعمل في منصب رئيسة الأطبَّاء في مستشفى الأطفال، أمَّا أبي فهو مدير مدرسة مهنية. وكان أبي رجلاً مسالماً، فمجال عمله يتعلَّق بالتعليم، وعندما عاد من العمل أوَّل مرَّة حاملاً مسدَّساً، أُعطيت لهم مسدَّسات، وارتدى حزام حمْل المسدَّس على بذلته المدنية، تملَّكني الخوف. وأعتقد أنه خاف من المسدَّس أيضاً، وكان ينزعه بحذر في المساء ويضعه على الطاولة. كنا نعيش في مبنى كبير، لكن لم يوجد فيه عسكريون، ولم أرَ السلاح من قبل أبداً. وبدا لي أن المسدَّس يأخذ بإطلاق النار ذاتياً، وأن الحرب سارية في بيتنا فعلاً. وعندما ينزع بابا المسدَّس تتوقَّف الحرب.

كنت أنا ودينا من أبناء المدن، ولم نحسن عمل شيء. وعندما وصلنا أرسلونا في اليوم التالي للعمل في الحقل، وبقينا طوال اليوم منحنيتَي الظهر. شعرتُ بالدوار وسقطت، وطفقت دينا تبكي إلى جانبي ولم تعرف كيف تقدِّم المساعدة لي. كنا نشعر بالخجل؛ فالبنات من أهل المنطقة ينفِّذن معدَّل العمل المقرَّر، بينما نحن نصل إلى منتصف الحقل فحسب،

وهن أمامنا في مكان بعيد. ولعلَّ أفظع شيء حين أجلسوني لحلب البقرة وأعطوني آلة الحلب، وأنا لم أحلب بقرة في حياتي، وخشيت الاقتراب منها.

وحدث مرَّةً أن جاء أحدهم من المحطَّة وجلب صحيفة. وهناك قرأنا أن مدينة غوميل قد احتُلَّت، فبكينا كثيراً أنا ودينا. فما دامت غوميل قد احتُلَّت فمعنى ذلك أن أهلنا قد قُتلوا، ويجب علينا أن نذهب إلى ملجأ الأطفال. وأنا لم أرغب حتى بالتحدُّث عن ملجأ الأطفال وأردت البحث عن أخي. لكن جاء إلينا والدا دينا، حيث عثرا علينا بأعجوبة. وكان أبوها يعمل طبيباً في مدينة ساراكتاش في مقاطعة تشكالوفسكايا، وكان يوجد في منطقة المستشفى منزلٌ صغيرٌ سكنَّا فيه. كنا ننام فوق مصاطب خشبية وعلى مفارش محشوَّة بالتبن. وعذَّبتْني كثيراً ضفائري التي تتدلَّى حتى أسفل الركبتين، ولم أكن أستطيع قصَّها من دون موافقة ماما. وبقي لدي الأمل في أن ماما موجودة بالرغم من كل شيء، وستجدني. كانت ماما تحبُّ ضفائري وستعنِّفني إذا ما قصصتها.

وحدث مرَّة، عند الفجر، وهذا أمر لا يرد ذكره إلا في الحكايات، وكذلك في الحرب، أن طرق أحدهم على النافذة. فنهضت ورأيت ماما واقفةً هناك. وكدت أفقد صوابي! وسرعان ما قصَّت ماما ضفائري وطلتْ رأسي بالكيروسين للوقاية من القمل.

لقد علمت ماما أن مدرسة بابا قد أجليت إلى نوفوسيبيرسك، فسافرت معها إلى هناك. وهناك بدأت بارتياد المدرسة. كنا ندرس في الصباح، وبعد الظهر نذهب إلى المستشفى لتقديم المساعدة، فقد كان ينقل إلى المدينة عدد كبير من الجرحى القادمين من الجبهة إلى المؤخرة. وكُلِّفنا بالعمل كممرِّضات، وأرسلت إلى قسم الجراحة وهو من أصعب الأقسام. كانت تُعطى لنا الشراشف القديمة فنقصُّها لتكون بشكل ضمادات، ونلفُّها

ثم نضعها في العلب ونحملها من أجل تعقيمها. كما كنا نغسل الضمادات القديمة، لكن في بعض الأحيان كانت ترد من الجبهة ضمادات في وضع جعلنا نحملها في السلال ونلقيها في الباحة لأنها ملطَّخة بالدم والقيح.

لقد تربَّيت في أسرة طبيب، وكنت أحلم قبل الحرب في أن أصبح طبيبة حتماً. وإذا ما نسبت إلى الجراحة فليكن الأمر كذلك. الفتيات الأخريات كن يخشين هذا القسم، أمَّا بالنسبة إليَّ فالأمر سواء، فقط أردت أن أقدم المساعدة وأن أشعر بأن هناك من يحتاجني. بعد انتهاء الدروس كنا ننطلق بسرعة إلى المستشفى العسكري لكي لا نتأخَّر ولكي نصل في الوقت المقرَّر. وأذكر أنني فقدت الوعي عدَّة مرات.

عندما تُنكأ الجروح، وكلٌّ ما فيها متلاصق، يأخذ الجريح بالصراخ... وشعرت عدَّة مرَّات بالغثيان بتأثير رائحة الضمادات، فهي ذات رائحة نفَّاذة، ليس بالأدوية بل بشيء آخر. رائحة غريبة... رائحة الموت. وكنت أعرف رائحة الموت؛ فعندما أدخل إلى الردهة يكون الجريح ما زال على قيد الحياة، لكنني أتحسَّس هذه الرائحة... وقد تركت فتيات كثيرات العمل هناك، ولم يستطعن تحمُّل ذلك؛ فأخذن يصنعن القفَّازات من أجل الجبهة، بينما مارس أعمال الحياكة من كان يجيد ذلك. لكنني لم أستطع ترك المستشفى العسكري؛ كيف أتركه إذا ما كان الجميع يعرفون أن أمِّي طبيبة؟

لكنني كنت أبكي كثيراً عندما يموت أحد الجرحى. إنهم ينازعون الموت ويصرخون: «دكتور! دكتور! بسرعة!». فيُهرع الدكتور إليهم، لكنه لا يستطيع إنقاذهم، ففي قسم الجراحة يرقد المصابون بجروح خطيرة. وأذكر ضابطاً ملازماً، لقد طلب مني أن أجلب له كيس الماء الساخن. فوضعت الكيس بينما أمسك هو بيدي، وأنا لم أستطع التخلُّص منه.

كان يجذبها إليه، ويمسك بها بكلِّ قواه. ثم سمعت كيف توقَّف قلبه عن الخفقان. لقد نبض ونبض ثمَّ توقَّف...

لقد عرفت أموراً كثيرة في زمن الحرب، أكثر ممَّا عرفته في حياتي كلِّها...

هربت إلى الجبهة للالتحاق بأختي،
فيرا ريدكينا التي تحمل رتبة ملازم أوَّل

نيقولاي ريدكين – 11 عاماً.
الآن – عامل ميكانيك.

ساد الهدوء في البيت؛ فقد نقص عدد أفراد الأسرة.

التحق الأخوة الكبار بالجيش فوراً. أمَّا أختي الكبرى فيرا فتردَّدت مراراً على مكتب التجنيد. وفي آذار/ مارس عام 1942 ذهبت إلى الجبهة أيضاً، ولم يبقَ في البيت سواي وأختي الصغرى.

وجدنا الملاذ في أثناء التهجير لدى أقاربنا في مقاطعة أوريول. أنا عملت في الكولخوز، إذ لم يوجد رجال عندئذ، وأُلقيت جميع مهمَّات الرجال على أمثالي من الأحداث. وعملنا نحن الذين كنا في سنٍّ تتراوح ما بين عشرة أعوام وأربعة عشر عاماً بدلاً من الرجال. ذهبنا أوَّل مرَّة للقيام بالحراثة. وقفت النساء إلى جانب الخيول ثمَّ انطلقن. أمَّا أنا فقد وقفت في انتظار أن يأتي أحد ليعلِّمني، لكنهن حرثن أخدوداً واحداً، واستدرن لحرث الأخدود الثاني. بينما أنا واقف في مكاني. وقرَّرت أن أعمل لوحدي بجرِّ الحصان في جانب الأخدود أو فيه. كنت أعمل في الحقل صباحاً، وفي الليل أذهب في النوبة الليلية مع الصبية لرعي الخيول. كنت أعمل يوماً في هذه النوبة وفي اليوم التالي... وفي اليوم الثالث أعمل في الحقل. كنت أعمل بالحراثة والحراثة حتى يضنيني العمل.

في عام 1944 جاءت إلينا أختي فيرا ليوم واحد من المستشفى العسكري بعد العلاج من إصابتها بجروح. وفي الصباح نقلناها في العربة إلى المحطَّة، بينما كنت أهرول ماشياً وراءها. وفي المحطَّة لم يسمح لي جنديٌّ بدخول عربة القطار وقال: «أنت، يا صبي، مع من أتيت؟». لكنني لم أرتبك وقلت: «مع كبير العرفاء فيرا ريدكينا».

وهكذا سمحوا لي بالذهاب إلى الحرب...

في ذاك الجانب الذي تشرق منه الشمس...

فاليا كوجانوفسكايا – 10 أعوام.

الآن – عاملة.

ذاكرة الطفولة... تبقى في ذاكرة الطفل فقط مشاعر الخوف أو شيء ما طيِّب...

كان بيتنا يقع بالقرب من المستشفى العسكري. كان قد قُصف المستشفى ورأيت كيف تساقط من النوافذ الجرحى مع عكّازاتهم. واحترق بيتنا. اندفعت ماما وسط النيران قائلة: «سآخذ ملابس الأطفال».

احترق بيتنا تماماً، واحترقت أمُّنا. ونحن اندفعنا وراءها، وتبع الناس أثرنا، وهم يصرخون: «يا أطفال! لن تستطيعوا إنقاذ أمّكم». فهربنا مع الجميع إلى حيث انطلقوا. الموتى يرقدون. والجرحى يطلقون الأنين ويطلبون المساعدة. لكن من سيساعدهم؟ لقد كنت في الحادية عشرة من العمر، وأختي في التاسعة، وقد فقدتها في الطريق.

التقينا في ملجأ الأطفال في بلدة أوستروشيتسكس في ضواحي مينسك. قبل الحرب كان أبي يأتي بنا إلى مخيَّم الطلائع هناك. مكان جميل. وقد حوَّل الألمان مخيَّم الطلائع إلى ملجأ للأطفال. كلُّ شيء مألوف وغريب. وبقينا خلال عدَّة أيَّام ننتحب فقط ونذرف الدموع: فقد أصبحنا بلا أب وأم، واحترق بيتنا، والمربِّيات عجائز، والأنظمة ألمانية. بعد مرور عام... أعتقد بعد مرور عام، بدأ تهجيرنا إلى ألمانيا. وكان

يُنتقى الأطفال ليس حسب الأعمار بل حسب الطول، ولسوء حظّي كنت طويلة القامة مثل أبي، أمّا أختي فقصيرة القامة مثل أمّي. جاءت الشاحنات وأدخلني الألمان المسلّحون بالرشّاشات في الشاحنة، بينما كانت أختي تصرخ وتعول، إلا أنهم أبعدوها، وأطلقوا النار تحت الأقدام. لم يسمحوا لها بالاقتراب مني. وهكذا فرّقونا...

عربة القطار مزدحمة بالركاب. القطار مملوء بالأطفال ولم يكن بينهم أي أحد أكبر من سن ثلاثة عشر عاماً. توقّفنا أوّل مرّة في وارسو. لم يقدِّم لنا أحدٌ الشراب والطعام، وجاء فقط عجوز ملأ جيبه بقصاصات ورق كتب عليها باللغة الروسية "أبونا"، ووزّعها على كلِّ واحد منا.

واصلنا السفر مدّة يومين بعد وارسو. ووصلنا إلى مركز طبي كما يبدو. وهناك نزعوا عنا ملابسنا كلّها، الصبية والفتيات، اللواتي أخذن ينتحبن من الخجل. وأرادت الفتيات التجمُّع في جانب والصبية في الجانب الآخر، لكنهم أرغمونا على التحشُّد سوية، ووجّهوا نحونا خرطوم المياه. كان الماء بارداً، وتنبعث منه رائحة غريبة لم أشمّها بعد ذلك أبداً، ربّما كانت رائحة مادّة معقّمة. لم يلقوا بالاً: نحو العين أو الفم أو الأذن... وبهذا أجروا التعقيم الطبّي. ثمّ وزّعوا علينا سراويل وجاكتات مخطّطة تشبه البجامات، وقباقيب خشبية. وعُلِّقت على صدورنا رقع حديدية نُقشت عليها كلمة "أوست". ساقونا إلى الشارع وأرغمونا على الوقوف في صف. واعتقدت بأنهم سيقتادونا إلى مكان ما، إلى معسكر ما، بينما همس البعض خلفي: «إنهم سيبيعوننا». دنا ألمانيٌّ عجوز واختارني مع ثلاث فتيات أخريات، وأعطانا نقوداً ودعانا لركوب عربة فيها تبن: «اجلسوا!».

وصلنا إلى عزبة ما. كان هناك بيت كبير وحوله متنزّه قديم. أسكنونا في العنبر، وكان هناك في نصفه اثنا عشر كلباً، وفي النصف الثاني نحن. وفور ذلك أرسلونا للعمل في الحقل. قمنا بجمع الأحجار لكي لا تنكسر

المحاريث وآلات البذارة. ووجب جمع الأحجار بعناية وبشكل منتظم في مكان معيَّن، بينما كنا ننتعل القباقيب الخشبية التي جعلت جميع أرجلنا مغطَّاة بالدمامل. كانوا يُطعمونا الخبز الرديء والحليب المنزوع الدسم.

لم تحتمل إحدى الصبيات، ففارقت الحياة. حملوها فوق حصان إلى الغابة ودفنوها هناك بلا أية مراسم. وأعادوا القباقيب الخشبية والبيجاما المقلَّمة إلى العزبة. أذكر أن اسمها كان أولغا.

كان هناك ألمانيٌّ مسنٌّ يتولَّى إطعام الكلاب. كانت لغته الروسية رديئة، لكنه حاول دعمنا بالقول: «كيندر، هتلر كابوت. روسكي كوم». ويتَّفق أن يذهب إلى قفص الدجاج ويجمع البيض في قبَّعته ويضعه في صندوق أدواته؛ إذ كان يمارس أعمال النجارة أيضاً. ويتناول الفأس بيده ويتظاهر بالعمل، بينما يضع الصندوق إلى جانبنا ويتلفَّت حوله، ويلوِّح لنا بيده لكي نأكلها بسرعة. وكنا نشرب البيض النيء وندفن قشوره.

استدعانا صبيَّان صربيان كانا يعملان في العزبة ذاتها، وهما من العبيد أيضاً. وأبلغونا بسر... وكشفا أن لديهما خطَّة: «يجب الهرب وإلا سنموت جميعا مثل أولغا، وسيدفنوننا في الغابة ويعيدون القباقيب الخشبية والبيجامات». أبدينا مخاوفنا، لكنهما أقنعانا بالخطَّة. وملخَّصها أن هناك وراء العزبة مستنقعات، وقد تسلَّلنا إلى هناك خفية، وبعد ذلك أطلقنا سيقاننا للريح. كنا نهرب باتجاه مكان شروق الشمس، في الشرق.

في المساء استلقينا جميعاً في حرش واستسلمنا للنوم بعد أن أضنانا الجهد. في الصباح فتحنا عيوننا، السكون يخيِّم على المكان، وثمَّة ضفادع تنقنق فقط. فنهضنا واغتسلنا بقطرات الطل وواصلنا المشي. وسرنا مسافة قصيرة فرأينا أمامنا طريق سيَّارات، ووجب علينا عبوره إلى حيث توجد أمامنا غابة كثيفة وجميلة. هناك خلاصنا. فزحف أحد الصبيَّين ونظر إلى الطريق وصاح: «لنهرب!». توجَّهنا نحو الطريق بينما انبجست من داخل

الغابة سيَّارة ألمانية فيها حَمَلة الرشَّاشات. فأحاطوا بنا وصاروا يضربون ويركلون الصبيين بأقدامهم.

حملوهما إلى السيَّارة، بينما أجلسوني والصبية الأخرى إلى جانبهم. وقالوا إنهما بخير، وستكون أحوالكم أفضل أيُّها الخنازير الروس. وقد عرفوا من الرقع في رقابنا أننا من الشرق. وقد غمرنا الرعب لحد أننا لم ننتحب.

نقلونا إلى معسكر الاعتقال: ورأينا هناك الأطفال الجالسين فوق التبن، والقمل يدب في أجسادهم. وقد جُلب التبن من الحقول التي تنداح وراء الأسلاك الشائكة المزودة بالتيار الكهربائي مباشرة.

كان مزلاج البوَّابة يصرُّ في كلِّ صباح ويدخل ضابط ضاحكاً ومعه امرأة جميلة كانت تقول لنا باللغة الروسية: «من يريد أن يأكل العصيدة فليقف في الصف اثنين اثنين. وسنأخذكم لإطعامكم».

ويتدافع الأطفال؛ فالجميع يريدون العصيدة.

وحسبت المرأة: «يجب أن يكون في الصف عشرون فرداً فقط. لا تتخاصموا، ولينتظر الآخرون حتى يوم غد».

في البداية صدَّقت كلامها واندفعت سوية مع الصغار، وتدافعت معهم، وبعد ذلك تملَّكني الخوف: «لماذا لا يعود من يطعمونهم العصيدة؟». جلست عند المدخل بالقرب من البوَّابة الحديدية، وحين أصبح عددنا قليلاً، لم تنتبه المرأة إلى وجودي. وكانت دائماً تحسب الأطفال وظهرها لي. كم استمر ذلك؟ لا أستطيع القول. أعتقد أنني فقدت الذاكرة آنذاك...

لم أرَ طيراً أو حتى خنفساء في معسكر الاعتقال. كنت أحلم بأن أعثر ولو على دودة. لكنها لم تعش هناك...

وسمعنا مرة ضجيجاً وإطلاق رصاص. وسمعت صرير المزلاج

الحديدي. دخل جنودنا إلى العنبر صائحين: «أطفال!». وصاروا يتلمّسون أكتافنا وأيدينا لأننا فقدنا الوزن عندئذ... ويقبّلون ويحتضنون الأطفال ويبكون. وحملونا إلى الشارع.

ورأينا المدخنة السوداء للمحرقة...

جرى إطعامنا وعلاجنا عدَّة أسابيع. وسألوني: «كم لك من العمر؟». فأجبت: «ثلاثة عشر عاماً». فقالوا: «ونحن اعتقدناأنك في الثامنة من العمر». عندما استعدت عافيتي مع الآخرين نقلونا إلى حيث تشرق الشمس.

إلى وطننا...

القميص الأبيض يتألّق في الظلام من بعيد

يفيم فريدلاند – 9 أعوام.

الآن – نائب مدير مجمع المصنوعات السيليكونية.

لقد ولّت الطفولة مع أولى إطلاقات الرصاص. ما زلت أحيا كطفل، بينما يعيش إلى جانبي شخص آخر.

قبل الحرب كانت أخاف البقاء وحيداً في الشقّة، أمّا هنا فقد زال عني الخوف. ولم أعد أصدِّق بوجود العفاريت وراء الموقد. غادرنا خوتيمسك في عربة يجرُّها حصان، واشترت ماما سلّة تفّاح، ووضعتها إلى جانبنا أنا وأختي، وأخذنا نأكل التفّاح. بدأ القصف الجوي، وكانت أختي تمسك بيديها تفّاحتين حمراوين، وتشاجرنا بسببهما، لكنها رفضت إعطاءهما لي. وصرخت ماما: «اختبئا!». حدث هذا بينما كنا نتقاسم التفّاحتين. تشاجرنا حتى طلبت من أختي: «أعطني واحدة على الأقل، وإلا سيقتلوننا من دون أن أتذوّقها». وأعطتني تفّاحة واحدة، الأكثر حمرة. وعندئذ توقّف القصف.

انطلقنا في العربة وأمامنا قطيع من الماشية. وعرفنا من أبي الذي كان قبل الحرب يعمل في خوتيمسك مديرا لمؤسسة "زولوتسكوت"، إنها ليست من الأبقار العادية، بل ذات السلالات الأصيلة لتربيتها من أجل تحسين النسل، والتي تم شراؤها في الخارج لقاء مبالغ طائلة. وأذكر أن أبي لم يستطع أن يشرح لي ما هي المبالغ الطائلة، إلى أن قال إن ثمن البقرة

الواحدة يعادل ثمن جرّار، وثمن دبَّابة. ما دامت دبَّابة فمعنى ذلك أنها غالية جدَّاً. وتم الحفاظ على كل بقرة.

وبما أنني نشأت في أسرة خبير في تربية الحيوانات فقد أحببت الحيوانات. وعندما فقدنا العربة بعد القصف الجوِّي التالي، رحت أمشي أمام القطيع، وربطت نفسي بالثور فاسكا. وكانت توجد في أنفه حلقة ربط فيها حبل، وربطت نفسي بالحبل. ولم تستطع الأبقار اعتياد القصف الجوِّي خلال فترة طويلة. إنها ثقيلة غير معتادة على الرحلات الطويلة، وصارت أظلافها تتكسَّر، وأصابها الإجهاد بشدَّة. وبعد القصف الجوِّي كان من الصعب جمعها سوية. لكن إذا ما خرج الثور إلى الطريق فتتبعه جميع الأبقار. بينما كان الثور يطيعني وحدي.

في الليل كانت أمِّي تغسل قميصي الأبيض في مكان ما. وعند الفجر يصيح الملازم أوَّل تورجين الذي يتولى قيادة طابور العربات: «قيام!». فأرتدي القميص وأقتاد الثور ونسير. وكما أذكر فأنني كنت دائماً أرتدي القميص الأبيض. علماً أنه كان يتألَّق في الظلام، ويمكن رؤيتي من مسافة كبيرة. كنت أرقد إلى جانب الثور، عند ساقيه الأماميتين، طلباً للدفء. وكان فاسكا لا ينهض قبلي، بل ينتظر حين أنهض أنا. كان يشعر بوجود طفل إلى جانبه، ويمكن أن يلحق به الأذى. كنت أرقد معه دون أن يساورني أي شعور بالقلق.

واصلنا المشي على الأقدام حتى بلغنا تولا. مسافة تربو على الألف كيلومتر. مشينا طوال ثلاثة أشهر، ومشينا حفاة، فقد تمزَّق كل ما كنا نلبسه، وتقلَّص عدد الرعاة، وتضخَّمت ضروع الأبقار، ولم يتوفَّر الوقت لحلبها جميعاً. والضرع يؤلمها، فتقف البقرة إلى جانبك وتتطلَّع إليك. وقد أصاب يداي الإجهاد؛ حيث كنت أحلب يومياً خمس عشرة أو عشرين بقرة. وأنا أرى حتى الآن: بقرة راقدة في الطريق ورجلها مكسورة، وتتدفَّق

من ضرعها المزرق قطرات الحليب. إنها تتطلّع إلى الناس، وتنتظر. يتوقّف الجنود ويشهرون بنادقهم من أجل أن يطلقوا عليها النار لكي لا تتعذّب أكثر. وكنت أرجوهم: «انتظروا...».

وأدنو من البقرة وأحلب الحليب على الأرض. فتلحس البقرة كتفي امتناناً. ثم أنهض وأقول لهم: «الآن أطلقوا النار». بينما أهرب مبتعداً لكي لا أرى ذلك...

علمنا في تولا أن جميع الماشية الأصيلة التي جئنا بها سترسل إلى المسلخ، فلا يوجد مكان يمكن سوقها إليه. إذ أن الألمان يقتربون من المدينة. فارتديت قميصي الأبيض وذهبت لتوديع فاسكا. وأطلق الثور زفرة ثقيلة في وجهي.

في أيّار/ مايو عام 1945 عدنا إلى مدينتنا. اقتربنا من أورشا، وكنت أقف عند النافذة. فدنت أمّي مني، وفتحت النافذة. وقالت ماما: «هل تشمُّ رائحة مستنقعاتنا؟». إنني نادراً ما أبكي، ولكن في تلك اللحظة امتلأت عيناي بالدموع. ففي فترة التهجير لم يراودني حتى في الحلم كيف يتم حصد عشب المستنقعات، وكيف يجمع في أكداس، وكيف يجفُّ قليلاً وتنبعث منه رائحة متميِّزة، ولا تتكرَّر في أي مكان رائحة عشب مستنقعاتنا. وأعتقد بأنه لدينا فقط، في بيلاروسيا، تكون رائحة عشب المستنقعات حادَّة بهذه الدرجة. إنني أشمُّها حتى في الحلم.

في يوم النصر خرج جارنا العم كوليا إلى الشارع وراح يطلق الرصاص في الهواء. وأحاط به الصبية: «العم كوليا دعني أطلق أيضاً!».

- «العم كوليا دعني أطلق أيضاً!».

وسمح للجميع بإطلاق النار. وأنا أيضاً أطلقت الرصاص أوّل مرّة...

على أرضية الحجرة النظيفة، التي غسلتها للتو

ماشا إيفانوفا – 8 أعوام.
الآن – معلِّمة.

كانت المحبَّة تربط ما بين أفراد أسرتنا، والجميع محبوبون.

لقد قاتل أبي في أثناء الحرب الأهلية. ومنذ ذلك الحين صار يمشي مستنداً على عكَّازين. لكنه تولَّى إدارة الكولخوز، وكانت مزرعته من المزارع الطليعية. وعندما تعلَّمت القراءة والكتابة أراني قصاصة من صحيفة "برافدا" كُتب فيها عن الكولخوز الخاص بنا. ونظراً لكون أبي أفضل رئيس فقد أُرسل قبل الحرب إلى مؤتمر الكولخوزيين الطليعيين وإلى المعرض الزراعي في موسكو. وقد جلب من هناك كتباً جميلة للأطفال وعلبة معدنية فيها قطع شوكولاتة.

وقد أحببنا، أنا وماما، أبي. وأحببته أنا حبّاً جمّاً، وبادلنا هو المحبَّة أنا وأمِّي. لربَّما أُبالغ في تجميل طفولتي؟ لكن إن جميع ما يرتبط في ذاكرتي بفترة ما قبل الحرب بهيج ووضَّاء، لأنها... كانت الطفولة. الطفولة الحقيقية.

بقيت في ذاكرتي الأغاني. وكانت النساء العائدات من الحقول ينشدن الأغاني. والشمس تميل إلى الغروب، بينما يسمع من وراء التلال:

ها قد حان وقت الرجوع إلى البيت.
وها قد بزغ فجر المساء...

فأنطلق للقاء الأغنية – هناك أمِّي، وأنا أسمع صوتها. وتحملني ماما بذراعيها وتحتضنني بشدَّة في عنقي، بينما أقفز وأهرول أمامها، وتلاحقني الأغنية، فتملأ العالم بأسره حولنا. ما أروع المرح والمزاج الرائق!

بعد تلك الطفولة السعيدة، نشبت فجأة وفوراً الحرب!

تركنا بابا منذ الأيَّام الأولى، وأبقوه لممارسة النشاط السرِّي. ولم يسكن في بيتنا، لأن الجميع يعرفونه هناك. كان يأتي إلينا في الليالي فقط.

ومرَّة سمعته يقول لماما: «لقد فجروا سيارة ألمانية بالقرب...».

وسعلت من فوق الموقد، فارتعب والداي، وحذَّراني: «بنيَّتي، يجب ألا يعرف ذلك أي أحد».

صرت أخشى الليل، فقد يأتي بابا إلينا، ويكتشف الألمان وجوده، وسيأخذون بابا الذي أحبُّه حبّاً جمّاً.

كنت أنتظره طوال الوقت. وكنت أصعد إلى أبعد ركن من موقدنا الكبير، وأحتضن جدَّتي، لكنني كنت أخاف الاستسلام إلى النوم، وإذا ما غفوت فإنني غالباً ما أستيقظ. العاصفة الثلجية تعوي في المدخنة، وغطاء المدخنة يهتزُّ ويرن. وشاغلي الوحيد هو أن أنام فلا أرى بابا.

وبغتة يتراءى لي أن ما يعوي هو ليس العاصفة الثلجية، بل بكاء ماما. أصابتني سخونة. إنه التيفوئيد.

جاء بابا في وقت متأخِّر من الليل. وكنت أوَّل من سمعه واستدعيت جدَّتي. كان بابا بارداً، بينما كنت ألتهب من السخونة، فجلس إلى جانبي ولم يستطع الانصراف. إنه متعب، ودبَّت فيه الشيخوخة، لكنه ما زال عزيزاً وحبيباً. فجأة طرق أحدهم الباب بشدَّة. ولم يتَّسع الوقت لبابا حتى لارتداء المعطف، حيث اقتحم رجال الشرطة البيت. اقتادوه إلى الشارع، وأنا وراءه، فمدَّ يديه نحوي، لكنهم ضربوا يديه بالرشَّاش، وضربوه على رأسه.

وهُرعت وراءه حافية القدمين فوق الثلج حتى النهر وصرخت: «بابوتشكا! بابوتشكا!». وفي البيت كانت جدَّتي تردِّد: «أين الرب؟ أين يختبئ؟».

لقد قتلوا أبي...

لكن جدَّتي لم تتحمَّل طويلاً هذه المصيبة. كانت تنتحب بنشيج منخفض ومنخفض، وبعد أسبوعين تُوفِّيتْ ليلاً فوق الموقد. كنت نائمة بجوارها، وأنا أحتضنها، هي... الميتة. لم يبقَ في البيت أحد، فقد اختبأت ماما وأخي عند الجيران.

بعد مصرع أبي تغيَّرتْ ماما أيضاً كثيراً، فلم تكن تغادر البيت. وكانت تتحدَّث فقط عن بابا، ويصيبها الإجهاد بسرعة، بينما كانت قبل الحرب من العمَّال الطليعيين، والأولى في أيِّ مضمار. ولم تعد تلاحظ وجودي، بينما كنت أسعى دائماً إلى أن أكون تحت نظرها. لكنها كانت تنتعش فقط حين يدور الحديث عن بابا.

وأذكر كيف جاءت النساء السعيدات: «جاء من القرية المجاورة صبيٌّ على صهوة حصان. الحرب انتهت. سيعود رجالنا إلينا قريباً».

سقطت ماما فوق أرضية الحجرة التي غسلتها لتوِّها...

هل نظرت إلى هذا الرب؟
ماذا جال في فكره؟

يورا كاربوفيتش – 8 أعوام.

الآن – سائق.

لقد رأيت ما لا يجوز رؤيته من قبل الإنسان. وأنا كنت صغيراً.

رأيت جندياً يركض ثمَّ يتعثَّر كما يبدو، ويسقط. وراح يخربش الأرض فترة طويلة، ويحتضنها...

ورأيت كيف ساقوا أسرانا من العسكريين عبر القرية. طوابير طويلة، بمعاطفَ ممزَّقة ومحترقة. هناك حيث رابطوا ليلاً تم قشر لحاء الأشجار. بدلاً من الطعام ألقوا إليهم جيفة حصان، فمزَّقوها والتهموها.

رأيت كيف خرج قطار ألماني عن السكك ليلاً والتهمته النيران، وفي الصباح وضعوا على خط السكك جميع من كان يعمل هناك، وتم تسيير قاطرة فوقهم.

ورأيت كيف قرنوا البشر إلى العربات، وكانت على ظهورهم نجوم صفراء. وراحوا يضربوهم بالسياط. بهذه الصورة كانوا يمرحون.

ورأيت كيف انتزعوا بالحراب الأطفال من أمَّهاتهم، ثم ألقوهم في النار، وفي البئر... وأنا مع ماما لم يأت دورنا بعدُ...

ورأيت كيف بكى كلب الجيران. كان جالساً فوق رماد منزل الجيران، وحيداً، وعيناه مثل عيني رجل عجوز.

لقد شببت وسط هذه الوقائع. شببت عبوساً ومرتاباً، وبطبع شرس. وعندما يبكي أحد ما لا أحس بالشفقة عليه، بل بالعكس؛ أتنفَّس الصعداء لأنني لا أستطيع البكاء. تزوَّجت مرتين، وتركتني كلٌّ من زوجتي في المرتين، فلم يحتملني أحدٌ فترة طويلة. من الصعب أن يحبَّني أحد. أنا أعرف. أنا أعرف بنفسي...

مضت أعوام كثيرة... والآن أريد أن أسأل: هل رأى الرب هذا؟ وماذا فكَّر؟

العالم الأبيض – المحبوب...

لودميلا نيكانوروفا – 12 عاماً.

الآن – مهندسة.

بودِّي أن أتذكَّر... هل كنا نتحدَّث عن الحرب قبل الحرب؟

كان الراديو يبثُّ الأغاني، "لو نشبت الحرب غداً" و"دروعنا قوية، ودبَّاباتنا سريعة...". وكان في وسع الأطفال النوم باطمئنان.

كانت عائلتنا تقطن في فورونيج، مدينة طفولتي. وعمل في المدارس عدد كبير من رجال النخبة المثقفة القديمة. ثقافة موسيقية رفيعة. وتمتَّعت جوقة الأطفال التي كنت أغنِّي فيها بشعبية كبيرة في المدينة. وأعتقد أن الجميع كانوا يحبُّون المسرح.

إن المبنى الذي كنا نعيش فيه كان مخصَّصا لعوائل العسكريين. المبنى مؤلَّف من أربعة طوابق وفيه ممرَّات، وفي الصيف تتفتَّح أزهار الأكاسيا الفواحة. وغالباً ما كنا نلعب في الساحة المقابلة للمبنى، وكانت هناك أماكن يمكن الاختباء فيها.

لقد حالفني الحظ بوالديّ. بابا عسكريٌّ محترف، والبزَّة العسكرية بقيت ماثلة أمام عينيَّ طوال فترة طفولتي. أمَّا ماما فقد اتَّسمت بطبع رقيق، وبيدين ذهبيَّتين ماهرتين. وأنا ابنتهما الوحيدة. وكما ينبغي في مثل هذه الأحوال فقد كنت عنيدة ونزقة، وفي الوقت نفسه خجولة. وصرت أتعلَّم الموسيقى والرقص في نادي الجيش الأحمر. ويوم الأحد هو اليوم الوحيد

الذي لا يكون فيه أبي مشغولاً، فكان يحب التنزُّه معنا في المدينة. ووجب أن أسير وماما من الجهة اليسرى لأنه غالباً ما كان بابا يلتقي العسكريين ويؤدِّي التحية العسكرية.

كما كان يحبُّ قراءة الأشعار معي، وبالأخص أشعار بوشكين:

تعلَّمْ، يا بني: فالعلم يقلِّص لنا الدرب
لكي نكتسب بسرعة خبراتنا في الحياة الفانية...

في ذلك اليوم من شهر حزيران/ يونيو، ذهبت مرتدية الفستان الأحمر برفقة صديقتي إلى حديقة نادي الجيش الأحمر لمشاهدة عرض مسرحي كان من المقرَّر أن يبدأ في الساعة الثانية عشرة ظهراً. ورأينا الجميع يصغون إلى مكبِّرة الصوت المثبَّتة في عمود الكهرباء.

قالت صديقتي: «هل سمعت؟ الحرب!».

انطلقت مسرعة إلى البيت. يسود الهدوء في الشقَّة، وماما غائبة، بينما انهمك بابا في حلق ذقنه أمام امرآة، وبدا أحد خدَّيه في رغوة الصابون.

- «بابا، الحرب!».

التفت بابا إليَّ ثمَّ واصل حلاقة ذقنه. رأيت تعبيراً غريباً في عينيه. وأذكر أن مكبِّرة الصوت على الجدار كانت مغلقة. هذا كل ما استطاع القيام به من أجل أن يمدِّد فترة البقاء معنا في لحظة إذاعة النبأ الرهيب.

لقد تغيَّرت الحياة في لحظة خاطفة، لم يعد هناك وجود لبابا في البيت في تلك الأيَّام. وتغيَّر أسلوب معيشتنا. وعقدت اجتماعات عامة للسكان نوقشت فيها كيفية إخماد الحرائق إذا ما احترق المبنى، وكيف تُسدل الستائر على النوافذ ليلاً؛ فالمدينة يجب أن تبقى بلا أنوار. واختفت المواد الغذائية من رفوف المخازن، وظهرت بطاقات التموين.

وحان ذلك المساء الأخير. ولكنه يختلف تماماً عمَّا أراه في السينما

الآن: دموع واحتضان والقفز إلى القطار المتحرِّك. لم يكن شيء من هذا عندنا. بدا وكأن بابا يذهب للمشاركة في المناورات. أعدَّت ماما حاجياته، وأتمت خياطة الياقة والكتفاقيات الميدانية، وثُبِّتت الأزرار، ووضعت الجوارب والمناديل. وارتدى بابا المعطف العسكري، وأظن أنني أمسكت به.

خرجنا ثلاثتنا إلى الممر. كان الوقت متأخِّراً، وفي هذا الوقت تُغلق جميع الأبواب، باستثناء البوَّابة الرئيسة، ووجب علينا من أجل الخروج إلى الباحة العودة إلى الطابق الثاني والمشي في ممر طويل ثم النزول مرة أخرى. الظلام يسود في الشارع، فقال بابا الحريص دائماً: «لا حاجة إلى مرافقتي أكثر».

ثمَّ احتضننا: «كل شيء سيكون على ما يرام. لا داعي للقلق يا بنات».

ثم ذهب.

بعث بابا من الجبهة عدَّة رسائل: «عمَّا قريب سننتصر، وسنعيش حياة أخرى. كيف حال عزيزتنا لودميلوتشكا؟». لا أذكر ماذا كنت أفعل قبل الأوَّل من أيلول/ سبتمبر. طبعا، كنت أجلب الحزن إلى ماما حين كنت أذهب إلى صديقاتي بلا إذنٍ منها. لقد أصبح الإنذار من الغارات الجوية شيئاً مألوفاً إن جاز القول. واعتدنا عليها بسرعة؛ فكنا لا ننزل إلى الملجأ، بل نجلس في البيوت. وحدث أكثر من مرة أن وقع القصف وأنا في الشارع في وسط المدينة، وكنت أسرع بدخول متجر ما أو مدخل أحد المباني... وهذا كل ما في الأمر.

تردَّدت شائعات كثيرة، لكنها لم ترسخ في ذاكرتي، في رأسي الطفولي. وكانت ماما تبقى في الخفارات في المستشفى العسكري؛ إذ كانت تصل يومياً القطارت المحمَّلة بالجرحى...

والأمر الذي يبعث على الدهشة هو ظهور السلع مجدَّداً فوق رفوف المخازن، وصار الناس يشترونها. وقد بحثت مع أمِّي خلال عدَّة أيَّام: هل نشتري آلة بيانو أم لا؟ وقررنا ألا نشتريه، وانتظار عودة بابا، فهي على كل حال من المشتريات الغالية.

يا للعجب! فقد بدأت الدراسة في أوَّل أيلول/ سبتمبر. بينما لم تصل كلمةٌ واحدةٌ من أبي خلال شهر آب/ أغسطس كله. نحن نثق وننتظر، ولو أننا أصبحنا نعرف كلمات مثل "التطويق" و"الأنصار". وفي نهاية الشهر أعلن عن الاستعداد للجلاء من المدينة في أية لحظة. وعرفنا الموعد بالضبط قبل يوم. انشغلت ماما في التحضيرات. ومع ذلك كانت تساورنا القناعة بأننا نغادر لفترة شهرين، وسنقيم في مكان ما في ساراتوف وبعد ذلك نرجع. عقدة للفرش، وعقدة للأواني وحقيبة الملابس. ونحن على استعداد.

في الطريق بقي في ذاكرتي المشهد التالي: القطار يتحرَّك من دون إطلاق الصفارة، فنلتقط القدور من النيران، ولا وقت لإطفائها، ونمضي في القطار. وفي مساره نرى سلاسل من النيران. وصل القطار إلى ألما-آتا، ثم عاد إلى تشيكمنت. وهكذا تكرَّر الأمر عدَّة مرَّات- ذهاباً وإياباً. وفي نهاية المطاف ركبنا البغال البطيئة التي تجرُّ العربات ووصلنا إلى قرية. ورأيت أوَّل مرَّة القبَّعة الكازاخية "كيبيتكا"، كانت كما في الحكايات الشرقية؛ زاهية الألوان وغير عادية وشيِّقة.

يومذاك رأيت في رأس ماما أوَّل شعرة بيضاء، فذُهلت. لقد بدأت أكبر بسرعة. يدا ماما! ما أكثر الأشياء التي كانت تجيد صنعها! وكيف جال في خاطرها في آخر لحظة أن تأخذ ماكينة الخياطة (بلا صندوق، وملفوفة في الوسادة) وأن تلقي بها في القطار المتحرِّك. الماكينة مصدر الكسب

لنا. وكانت ماما تعمل في الليالي في خياطة الألبسة. وهل كانت ماما تنام عموماً؟

بدت في الأفق الذرى الثلجية لجبال تيان - شان، وفي الربيع البرِّية الحمراء حيث تتفتَّح أزهار الخزامى فيها. وفي الخريف عناقيد العنب والشمَّام. ولكن كيف يمكن شراؤها؟ والحرب! كنا نبحث عن بابا! وخلال ثلاثة أعوام أرسلنا عشرة استفسارات: إلى أركان الجيش، والبريد الميداني رقم 116، ووزارة الدفاع، والمديرية العامة لكوادر الجيش الأحمر في بوغوروسلان. ويرد من كل مكان الجواب: «لا يرد في قوائم القتلى والجرحى». مادام لا يوجد في القوائم سننتظر وننتظر ونأمل.

بدأ الراديو يذيع الأنباء السارَّة. بدأت قوَّاتنا بتحرير المدن الواحدة تلو الأخرى، وقد حُرِّرتْ أورشا أيضاً. إنها مسقط رأس ماما. هناك جدَّتي وأخوات أمِّي. وحُرِّرتْ فورونيج، لكن فورونيج تبدو مدينة غريبة بلا بابا. شددنا الرحال إلى الجدَّة. كنا في كل مكان نركب في مدخل عربة القطار؛ لم تسعفنا القدرة على دخول العربة. وهكذا أمضينا خمسة أيَّام في مدخل العربة...

كان مكاني المفضل في بيت جدَّتي هو وراء الموقد الروسي الدافئ. وكنا في المدرسة نجلس بالمعاطف، ولدى غالبية الفتيات معاطف خيطت من المعاطف العسكرية، أما الصبية فمعاطفهم عسكرية عادية. وفي وقت مبكِّر من الصباح أذاعت مكبِّرة الصوت: النصر! أنا في الخامسة عشرة من العمر... أنا أرتدي هدية أبي قبل الحرب: المعطف الصوفي (المجعَّد) والحذاء الجديد، وأذهب إلى المدرسة. لقد احتفظنا بهذه الأشياء، وتم شراؤها بمقاس كبير لتناسبني عندما أكبر لاحقاً.

في المساء جلسنا إلى الطاولة وعليها صورة فوتوغرافية ومجلَّد بوشكين المهترئ. إنه هديته إلى خطيبته، أمِّي. فأتذكَّر كيف كنا نقرأ

الأشعار سوية وكيف كان يقول عندما يعجبه أحد المقاطع: "العالم الأبيض - المحبوب". كان دوماً يكرِّر هذه الكلمات حين يكون رائق المزاج.

أنا لا أستطيع تصوُّر أبي الحبيب من دون أن يكون حيّاً يُرزق...

جلبوا سكاكر رفيعة طويلة... تشبه الأقلام

ليونيدا بيلايا – 3 أعوام.

الآن – عاملة كي.

هل يتذكَّر الطفل شيئاً عندما يكون في الثالثة من العمر؟ سأجيبك... بقيت في ذاكرتي بوضوح تام ثلاثة أو أربعة مشاهد.

ثمَّة رجال ما يمارسون التمارين الرياضية ويسبحون في النهر وراء البيت الريفي في المرعى. إنهم يطرطشون الماء ويصرخون ويضحكون ويطارد أحدهم الآخر مثل الصبية في قريتنا. لكن ماما كانت لا تسمح لي بالذهاب إلى هؤلاء، بل إنها منعتني منعاً باتاً من الخروج من البيت وهي تصرخ رعباً. وأجابت عن سؤالي بفزع: «من هؤلاء الرجال؟». قائلة: «إنهم ألمان». وكان الأطفال الآخرون يجرون إلى النهر ويجلبون منها سكاكر رفيعة طويلة... وأطعموني إياها.

كان أولئك الرجال في النهار يمشون مشية عسكرية في شارعنا. وقتلوا جميع الكلاب، لأنها كانت تنبح لدى مرورهم في الشارع.

بعد ذلك منعتْني أمِّي من الخروج إلى الشارع في النهار. وكنت أجلس مع القط في البيت طوال النهار.

كنا نهرول إلى مكان ما... قطرات الطلِّ باردة. تنُّورة جدَّتي مبلَّلة حتى الخصر، بينما فستاني مبلَّل وكذلك رأسي. لقد اختبأنا في الغابة، وأنا أتدفأ بمعطف جدَّتي، إلى أن يجفَّ الفستان.

تسلَّق أحد الجيران شجرة. وسمعته يقول: «تحترق... تحترق... تحترق». كلمة واحدة...

رجعنا إلى القرية. كانت هناك أعمدة سوداء بدلاً من البيوت. ووجدنا مشطاً في المكان الذي كان فيه بيت جيراننا. وقد تعرفت على هذا المشط، إذ كانت ابنة جارتنا، واسمها أنيوتكا، تمشِّطني به. ولا تستطيع ماما أن تجيبني: أين هي وأين أمُّها؟ لماذا لا تعودان؟ لقد احتفظت ماما بهذا في أعماق قلبها. وأنا أذكر كيف كانت أنيوتكا تجلب السكاكر الرفيعة الطويلة من الرجال الذين كانوا يسبحون بمرح في النهر. إنها طويلة مثل الأقلام... إنها حلوة المذاق جدّاً، ولم نعرف مثيلاً لها. لقد كانت صبيةً جميلة، وكانوا يعطونها دوما الكثير من السكاكر، أكثر من الجميع.

في الليل ندسُّ أقدامنا في الرماد لكي نتدفَّأ ونغفو. الرماد دافئٌ وناعم...

كان الصندوق يناسب طوله تماماً

دونيا غولوبوفا – 11 عاماً.

الآن – حلابة.

الحرب... بينما بدأ موسم الحرث.

ذهبت ماما مع أختي وأخي إلى الحقل، من أجل بذر بذور الكتان. لقد ذهبوا، وبعد ساعة، ليس أكثر، هرولت امرأة صائحة: «لقد قتلوا أهلك يا دونيا! إنهم جثث راقدة في الحقل».

كانت ماما ملقاةً على كيس تنهال منه الحبوب. وثمة ثقوب كثيرة في جسدها سببها الرصاص.

بقيت وحيدة مع الصغير ابن أختي. كانت أختي قد ولدت منذ فترة وجيزة، بينما التحق زوجها برجال الأنصار. وهكذا بقيت أنا مع هذا الصبي.

أنا لا أجيد حلب البقرة. إنها تخور في الحظيرة، وتشعر بغياب ربَّة البيت. أمَّا الكلب فكان ينبح طوال الليل. والبقرة...

الطفل الرضيع يزحف إليَّ، طالبا الثدي والحليب... وتذكَّرت كيف كانت أختي تطعم.. أمد له الحلمة، فيمصُّ ويمصُّ ويمصُّ ثمَّ يغفو. أين أصيب بالبرد؟ كيف مرض؟ كان ذلك أعلى من إدراكي. إنه يسعل ويسعل. لا يوجد ما يؤكل. وقد أخذ رجال الشرطة البقرة.

مات الصبي. واصل الأنين ثمَّ فارق الحياة. وسمعت السكون يخيِّم

في المكان. رفعت الخرقة فوجدت جسده أسودَ كلَّه، ولكن بقي وجهه أبيَض ونظيفاً. الوجه أبيض بينما الجسد أسود.

الوقت ليل. النوافذ معتمة. إلى أين أذهب؟ سأنتظر حتى الصباح، وفي الصباح سأدعو الناس. جلست وبكيت، لأنه لا يوجد أحد في البيت، وحتى هذا الصبي الصغير. ظهرت بواكير الفجر، ووضعته في صندوق. لقد بقي لدينا صندوق جدِّي الذي أحتفظ فيه بأدوات العمل، إنه صندوق صغير، مثل رزمة البريد. كنت أخشى أن تأتي القطط والجرذان، وتقضمه. إنه صغير جدَّاً، حتى أصغر ممَّا كان عليه قبل موته. وغطَّيته بمنشفة نظيفة من الكتان. ولثمته.

كان الصندوق يناسب طوله تماماً...

كنت أخشى أن يراودني ذلك الحلم

لينا ستاروفويتوفا – 5 أعوام.

الآن – عاملة بناء.

بقي لديَّ حلم... حلم واحد...

ارتدت ماما فستانها الأخضر والجزمتين، ولفَّت شقيقتي البالغة ستَّة أشهر من العمر بالبطانية، ثمَّ خرجت. أمَّا أنا فقد جلست عند النافذة وانتظرت عودتها. وبغتة رأيت في الطريق عدَّة أشخاص وبينهم ماما وشقيقتي... وعندما مرَّت بالقرب من بيتنا نظرت إلى النافذة. أنا لا أعرف: هل رأتني أم لا؟ لكن الفاشيّ سدَّد إليها ضربة بكعب البندقية. ضربها بعنف ممَّا جعلها تنحني.

في المساء جاءت خالتي شقيقة أمِّي، فبكت بشدة، وشدَّت شعرها، وصارت تذكرني: اليتيمة، اليتيمة المسكينة. وقد سمعت هذه الكلمة أوَّل مرَّة.

في الليل راودني حلم رأيت فيه أمِّي منهمكة بتدفئة الموقد، والنار فيه متألِّقة، بينما تبكي شقيقتي. ودعتْني ماما، لكنني لا أرد. وبكتْ ماما في الحلم. أنا لم أغفر لنفسي، لكونها تبكي. وقد راودني هذا الحلم مراراً فترة طويلة، الحلم ذاته دوماً. وأردت أن... وخشيت أن أراه...

لا توجد لديَّ حتى صور فوتوغرافية لماما. بقي هذا الحلم وحده. إنني لن أرى ماما بعد هذا أبداً...

أردت أن أكون الوحيدة لدى أمِّي... لكي تدلِّلني

ماريا بوزان – 7 أعوام.
الآن – عاملة.

أرجو المعذرة لكوني أتذكَّر ذلك الآن... لا أستطيع. أنا... إنني لا أستطيع التطلُّع إلى عيون الآخرين...

أخرجوا أبقار المزرعة من الحظيرة، وساقوا الأهالي إلى هناك، ومعهم أمِّي. كنت أجلس مع أخي في وسطِ الأحراش، كان قد بلغ العامين من العمر، ولم يبكِ. كما جلس معنا كلبنا.

في الصباح جئنا إلى البيت فوجدناه خالياً، وأمُّنا غير موجودة فيه. كما لا يوجد أحد من الناس. بقينا لوحدنا. ذهبت لجلب الماء، ووجب إيقاد النار في الموقد، إذ كان أخي يريد أن يأكل. وجدت جثث جيراننا معلَّقة في عارضة البئر. فاستدرت إلى الطرف الآخر للقرية، فهناك يوجد بئر فيه أفضل ماء، حلو المذاق. وهناك شنق الأفراد أيضاً. عدت إلى البيت بدلوين فارغين. وأخي يبكي. لأنه جائع ويطلب صائحاً: «أعطني خبزا. أعطني قشرة خبز». وعضضته مرَّة لكي يكفَّ عن البكاء.

عشنا بهذا الحال عدَّة أيَّام، لوحدنا في القرية. كان الأهالي موتى راقدين أو مشنوقين. علما إننا لم نخف الموتى، لأنهم كانوا من معارفنا في القرية. ثم التقينا امرأة غريبة وأخذنا نبكي: «سنعيش معك، نحن نخاف

البقاء لوحدنا». فأجلستنا في زحافتها وأخذتنا إلى قريتها. كان لديها صبيَّان ونحن الاثنان. وعشنا بهذا الحال لحين مجيء جنودنا.

في ملجأ الأطفال أهدوني فستاناً برتقالياً فيه جيوب. لقد أحببته كثيراً، وطلبت من الجميع: «إذا مت، فادفنوني بهذا الفستان». لقد ماتت أمي ومات أبي وأنا سأموت قريباً. وانتظرت طويلاً لكي أموت. وكنت أنتحب دوما لدى سماع كلمة "ماما". وحدث مرَّة أن عنَّفني المربُّون لسبب ما، وعاقبوني بالوقوف في ركن الصالة، فهربت من ملجأ الأطفال.

أنا لم أذكر يوم ميلادي. وقالوا لي: اختاري أي يوم تريدين، اليوم الذي يعجبك. وكنت أحبُّ أعياد أيَّار/ مايو. وفكَّرت: «قد لا يصدِّقني أحد إذا قلت إنني ولدت في أوَّل أيَّار/ مايو أو الثاني من أيَّار/ مايو، وإذا قلت الثالث من أيَّار/ مايو فلربَّما يكون قريباً من الحقيقة». كان يجري توحيد أعياد الميلاد الفصلية، وتقام لنا مأدبة للاحتفال بالعيد توضع فيه على المائدة السكاكر ويُقدَّم الشاي، وتُقدَّم كذلك الهدايا: تُقدَّم إلى الفتيات بعض الأشياء من أجل خياطة فستان، بينما تُقدَّم إلى الصبية القمصان. وجاء إلى ملجأ الأطفال مرَّةً رجلٌ مسنٌّ وجلب الكثير من البيض المسلوق، ووزَّعه على الجميع، وابتهج كثيراً لجلب المسرَّة إلينا. وحدث ذلك بالذات في يوم عيد ميلادي.

لقد كبرت، ولكنني كنت أشتاق إلى اللعب. وعندما أرقد للنوم وينام الجميع، أقوم باستخراج الريش من الوسادة وأتفحصَّها. كان ذلك لعبتي المحبَّبة. وإذا مرضت كنت أرقد وأحلم بأمِّي. وكنت أريد أن أبقى الوحيدة لدى أمِّي، لكي تدلِّلني...

لم أكبر بسرعة؛ فإننا جميعنا في ملجأ الأطفال لم نكن نكبر بصورة جيِّدة. أعتقد أن هذا بسبب الكآبة. إننا لم نكبر لأننا قلَّما كنا نسمع كلمات الحنان. نحن لم نكبر في غياب الأم...

لم يغرقا، وبقيا طافيين مثل كرتين

فاليا يوركيفتش – 7 أعوام.

الآن – متقاعدة.

كانت أمّي تنتظر مولوداً ذكراً، وأبي كان يريد صبيّاً أيضاً.

لكنها ولدت بنتاً.

لقد أراد الجميع صبياً، فشببت بصفتي صبياً أكثر مني بنتاً. وألبسني والداي ملابس الصبية وعملا لي تسريحة شعر صبيانية. وكانت تعجبني ألعاب الصبية: مثل "القوزاق والحرامية" و"الحرب" و"رمي السكاكين". وكانت تعجبني كثيرة لعبة "الحرب"، واعتبرت نفسي جريئة في النزال.

جرى تدمير عربة القطار التي كانت تنقل النازحين في ضواحي سمولينسك تدميراً كاملاً. وشاءت الأقدار أن نبقى على قيد الحياة، حيث انتشلونا من تحت الأنقاض. وصلنا إلى القرية وهناك بدأت معركة. فجلسنا في قبو أحدهم، وانهار البيت، وتراكم الحطام فوقنا. عندما هدأت حدّة المعركة، خرجنا بعد جهد من القبو، وكان أوّل ما شاهدناه هو السيّارات، كما أذكر. كانت السيّارات تمضي في الشارع وفيها رجال يبتسمون، وهم يرتدون المعاطف السوداء اللامعة. أنا لا أستطيع وصف مشاعري؛ فقد غمرني الخوف، وكذلك نوع من الفضول المرضي. لقد مضوا عبر القرية ثم اختفوا عن الأنظار. أمّا نحن، الأطفال، فقد ذهبنا لاستطلاع ما يجري خارج القرية. عندما بلغنا الحقل انبجس أمامنا مشهد فظيع. فقد غُطِّي

حقل الشوفان كلُّه بالجثث. ويبدو أنني لم أتَّسم بطبع الصبايا، ولهذا لم يتملَّكْني الخوف لدى رؤية هذا كلِّه، ولو لأوَّل مرَّة. لقد كانت الجثث محترقة سوداء، وكان عددهم كبيراً، لذا يصعب تصديق أنها جثث بشر. لقد كان ذلك أوَّل انطباع لديَّ عن الحرب... جثث جنودنا المسودَّة.

عدنا أنا وماما إلى مدينتنا فيتبسك. وقد لحق ببيتنا الدمار، لكن جدَّتنا كانت في الانتظار. قدمت الملاذ لنا أسرة يهودية، تضمُّ اثنين من العجائز المرضى جدّاً. وكنا طوال الوقت نخاف على مصيرهما لأنه قد عُلِّقتْ في كل مكان من المدينة إعلانات تطالب جميع اليهود بالحضور إلى الغيتو، وقد رجوناهما بعدم الخروج من البيت. وفي إحدى المرَّات غادرنا البيت، وكنت ألعب مع شقيقتي، بينما ذهبت أمِّي لقضاء بعض الأمور، وجدَّتي غائبة أيضاً. عندما رجعنا إلى البيت وجدنا قصاصة ورق كتب فيها إنهما ذهبا إلى الغيتو لأنهما يخشيان أن يلحق بنا الأذى، فيجب أن نبقى على قيد الحياة، أمَّا هما فعجوزان. وعُلِّقت في المدينة مناشير: يجب على الروس تسليم اليهود إلى الغيتو إذا ما كانوا يعرفون أين يختبئون، وإلا فعقابهم الإعدام رمياً بالرصاص...

قرأت قصاصة الورق تلك وهُرعت مع شقيقتي إلى ضفَّة نهر دفينا، ولم يوجد جسر هناك، وكان يجري نقل اليهود بواسطة الزوارق. لقد طوَّق الألمانُ المكان. وجرى أمام سمعنا وبصرنا تحميل الشيوخ والأطفال في عبَّارات تُجرُّ بواسطة زورق بمحرِّك إلى وسط النهر وهناك تُقلب العبَّارات. وبحثنا فلم نجد عجوزينا، ولكننا رأينا أسرة ركبت الزورق ومؤلَّفة من زوج وزوجة وطفلين، ولدى قلب الزورق غاص الأبوان فوراً إلى القاع، أمَّا الطفلان فبقيا طافيين. فقام الفاشيون، وهم يضحكون، بضربهم بالمجاذيف. وكانوا يضربونهما في مكان ما فيظهرون في مكان آخر. فيلحقون بهما ويواصلون ضربهما. لكنهما لم يغرقا وكأنهما كرتان...

جثم على المكان السكون، ربَّما قد أصاب أذني الصمم، فقد بدأ كل شيء هادئاً، وهمد كل شيء. وفجأة انطلق وسط ذلك السكون صوت ضحك. إنه ضحك فتيٍّ ومكبوت.. لقد وقف قريباً من المكان شبَّان ألمان كانوا يراقبون المشهد، وصاروا يضحكون. لا أذكر كيف عدنا أنا وشقيقتي إلى البيت ، و أنا لا أذكر كيف عدت مع شقيقتي إلى البيت، وكيف جررتها. يبدو أن الأطفال يكبرون بسرعة جدّاً، فقد كانت في الثالثة من العمر، لكنها فهمت كل شيء ولزمت الصمت ولم تنتحب.

كنت أخاف المشي في الشوارع، بينما كنت أشعر بالاطمئنان لدى السير وسط الأنقاض. وحدث مرة أن اقتحم الألمان البيت ليلاً وبدأوا بركلنا وإنهاضنا. كنت نائمة مع شقيقتي، أمَّا أمِّي فكانت نائمة مع جدَّتي.

أخرجوا الجميع إلى الشارع ولم يسمحوا بأخذ شيء معنا، وكان ذلك والشتاء على الأبواب، وأركبونا في شاحنات انطلقت بنا إلى القطار.

بعد مضي عدَّة أسابيعَ وجدنا أنفسنا في مدينة أليتوس الليتوانية. جمعونا في المحطَّة في صفوف وساقونا. وكان الليتوانيون يتطلَّعون إلينا في الطريق. وفي أغلب الظن إنهم كانوا يعرفون إلى أين يقودوننا، فاقتربت امرأة من أمي وقالت: «إنهم يقودونكم إلى معسكر الموت، هاتي ابنتك وسأنقذها. وإذا بقيتِ على قيد الحياة ستجدينها». كانت شقيقتي جميلة، وأشفق الجميع عليها. لكن أية أم تعطي طفلها؟

في المعسكر أخذوا فورا جدَّتنا، وقالوا إن العجائز سيسكنون في عنبر منفصل آخر. وكنا ننتظر ورود أنباء من جدَّتي، لكنها اختفت. وفيما بعد علمنا من مصدر ما بأنه تم إرسال جميع الشيوخ والعجائز منذ اليوم الأوَّل إلى صوامع الغاز. وفي أعقاب الجدَّة أخذوا مرَّة في الصباح شقيقتي. وقبل ذلك قام عدَّة ألمان بالمرور على جميع العنابر وتسجيل الأطفال فيها، وتم اختيار ذوي السحنة الجميلة، والبيض، وكانت شقيقتي شقراء وبعينين

زرقاوين. لم يسجِّلوا الجميع، بل هؤلاء فقط. ولم يأخذني الألمان لأنني سمراء سوداء الشعر. وراح الألمان يمسِّدون رأس شقيقتي، فقد أعجبتهم كثيراً.

كانوا يأخذون شقيقتي في الصباح ويعيدونها في المساء. وبمرور الأيَّام أصابها الهزال. وكانت أمِّي تسألها لكنها لا تجيب ولا تقول شيئاً. ربما جرى تخويفهم أو إعطاؤهم أقراصاً ما، لكنها لم تتذكَّر أي شيء. فيما بعد عرفنا بأنهم كانوا يأخذون دمهم. ويبدو أنهم أخذوا الكثير من الدم، وبعد عدة أشهر تُوفِّيتْ شقيقتي. لقد جاؤوا مجدَّداً في الصباح لاصطحاب الأطفال، لكنها كانت قد فارقت الحياة.

لقد أحببت جدَّتي كثيراً، لأنني غالباً ما كنت أبقى معها لدى ذهاب أبي وأمِّي إلى العمل. لكننا لم نشهد موتها، وكنا نأمل مع هذا أن تكون على قيد الحياة. أمَّا موت شقيقتي فقد حدث إلى جانبنا... كانت راقدة وكأنها ما زالت حية ترزق... لقد رقدت كحسناء.

كانت تسكن في العنبر المجاور النساء من مدينة أوريول، وكن يرتدين معاطف الفرو العريضة، ولدى كل واحدة عدَّة أطفال. فيجري إخراجهن من العنبر وصفُّهن كل ستة أفراد سوية ويصدر الأمر لهن بالمشي مع الأطفال المتعلِّقين بهن. وحتى تُعزف موسيقى ما... وإذا لم تسر امرأة ما بالتوافق مع خطوات الأخريات فإنها تُضرب بالسوط. ينهال الألمان عليها بالسوط بينما تواصل مع هذا المشي، لأنها تعرف أنها إذا سقطت سيطلق عليها الرصاص مع أطفالها. وكان ينتفض شيء ما في صدري عندما أرى اصطفافهن وسيرهن، بمعاطفهن الثقيلة...

جرى سوق الكبار إلى العمل، حيث كانوا يستخرجون جذوع الأشجار من نهر نيمان إلى الضفَّة. وكان الكثيرون يموتون هناك في النهر. وحدث مرة أن سحبني القومندان وأوقفني مع المجموعة الذاهبة إلى العمل.

وعندئذ خرج مسنٌّ من الحشد وأبعدني ووقف في مكاني. وعندما أردنا، أنا وأمّي، في المساء تقديم الشكر له، لم نجده. وقيل لنا إنه مات في النهر.

كانت أمّي معلّمة مدرسة. وغالبا ما تردّد: «يجب أن يبقى المرء إنساناً». وسعت حتى في جهنّم المعتقل أن نحتفظ ببعض العادات البيتية. أنا لا أعرف أين كانت تغسل الملابس ومتى، كنت دوماً ألبس الملابس النظيفة، علما أنها غسلت الملابس في الشتاء بواسطة الثلج؛ إذ كانت تنزع ملابسي وتجلسني على سرير المعتقل الخشبي وتغطّيني باللحاف، وتغسل ملابسي. فقد كانت لدينا الملابس التي نلبسها فقط.

وبالرغم من كل شيء كنا نحتفل بأعيادنا، ونحتفظ بشيء ما ممّا يؤكل من أجل يوم العيد. مثل قطعة شوندر مغلية، أو جزرة. وحاولت ماما أن تبتسم في هذا اليوم. وكانت تؤمن بأن جنودنا سيأتون. وبفضل هذا الإيمان بقينا على قيد الحياة.

بعد الحرب التحقت بالصف الخامس فوراً وليس بالصف الأول. لقد كنت كبيرة، لكنني منطوية على نفسي كثيراً، وبقيت أبتعد عن الناس فترة طويلة. وأحببت الوحدة طوال حياتي. إنني أحسُّ بالإجهاد لدى معاشرة الناس، وأجد صعوبة في ذلك. ثمّة أشياء ما احتفظت بها في دخيلتي ولم أستطع أن أتقاسمها مع الناس.

طبعا إن أمّي لاحظت كيف تغيَّرت، وسعت إلى إلهائي وافتعلت مختلف الأعياد. ولم تنسَ يوم عيد قديسي الشفيع. وغالباً ما يزورنا الضيوف من أصدقائها. كما أنها دعت بنفسها صديقاتي لزيارتنا. من العسير أن أتفهّم هذا، لكنها كانت تنجذب إلى الناس. ولم أحزر مدى حبِّ أمي لي.

هأنَذا أجد الخلاص مرّةً أخرى في الحب...

بقيت في ذاكرتي السماء الشديدة الزرقة وطائراتنا التي تحلق في السماء...

بيوتر كالينوفسكي – 12 عاماً.

الآن – مهندس بناء.

قبل الحرب...

أذكر أننا كنا نتعلَّم مهارات الحرب، ونستعدُّ لها. لقد تدرَّبنا على إطلاق النار ورمي القنابل اليدوية. وتدرَّبت حتى الفتيات. وأراد الجميع أداء الاختبار للحصول على شارة الامتياز "رامي فوروشيلوف"، وكنا نتحرَّق شوقاً إلى ذلك. كما كنا ننشد أغنية "غرينادا". وترد فيها كلمات رائعة عن البطل الذي يتوجَّه للقتال من أجل إعطاء الأرض إلى فلاحي غرينادا. ومواصلة قضية الثورة. الثورة العالمية! نحن، هذا ما كنا عليه، وهذه أحلامنا أيامذاك.

في طفولتي كنت أكتب الحكايات بنفسي؛ فقد تعلَّمت القراءة والكتابة بصورة مبكِّرة. كنت صبيّاً موهوباً. وأرادت ماما أن أصبح فنَّاناً، كما أظن، بينما كنت أحلم بأن أحلِّق في الجو، وأرتدي بزَّة الطيَّار، فهذا كان من سمات زماننا أيضاً. وعلى سبيل المثال فأنا لم ألتقِ قبل الحرب صبيّاً لا يحلم بأن يصبح طيَّاراً أو بحَّاراً. كنا في حاجة إمَّا إلى السماء وإمَّا إلى البحر، الكرة الأرضية بأسرها.

الآن تصوَّري ما حدث لي، وللناس عندنا. ماذا حدث لنا عندما رأينا

الألمان في مدينتنا العزيزة، في شوارعنا العزيزة... لقد بكيت. وعندما أقبل الليل راح الناس يغلقون النوافذ، ويذرفون الدموع وراء النوافذ المغلقة.

التحق بابا برجال الأنصار... وفي الجهة المقابلة من الشارع عمدت إحدى الأسر إلى ارتداء القمصان البيض واستقبلت الألمان خير استقبال وبالملح والخبز. وجرى تصويرهم بالكاميرا السينمائية.

عندما شاهدت أوَّل مرَّة أبناءنا المشنوقين هُرعت إلى البيت: «ماما، أهلنا معلَّقون في السماء». وارتعبت أوَّل مرَّة من السماء، وبعد ذلك تغيَّر موقفي منها، وأصبحت أنظر إليها بحذر. وأتذكَّر كيف تدلَّت جثث الأفراد عالياً، وربَّما تراءى لي ذلك بسبب الفزع. لقد رأيت القتلى على الأرض، لكنني لم أفزع بهذا القدر.

سرعان ما جاء بابا لأخذنا... وعندئذ انطلقنا سوية.

ثمة مخفر للأنصار، وآخر... وفجأة سمعنا الأغاني الروسية تتردَّد في الغابة كلِّها. وتعرفت على صوت المغنِّية روسلانوفا. كان يوجد في الفصيلة جهاز فونوغراف وعدَّة أسطوانات كاد أن يصيبها التلف جرَّاء الاستعمال الكثير. ذُهلت ولم أصدِّق بأنني بين رجال الأنصار وهنا تتردَّد الأغاني. لقد عشت فترة عامين في المدينة التي احتلَّها الألمان، ونسيت كيف يغنِّي الناس. لكنني رأيت كيف يموتون... وكيف يرتعبون.

في عام 1944، شاركت في مينسك في العرض العسكري لرجال الأنصار. وسرت في الجانب الأيمن من الطابور خصوصاً من أجل أن أرى منصَّة القيادة. وقال رجال الأنصار لي: «أنت ما زلت صغيراً، وستضيع بيننا ولن ترى شيئاً، بينما يجب أن تحتفظ في ذاكرتك بهذا اليوم». لم يكن لدينا مصور فوتوغرافي. ويا للأسف! إنني لا أستطيع أن أتصوَّر كيف كنت آنذاك. بينما وددت ذلك جدَّاً؛ أن أرى وجهي.

أنني لا أتذكَّر منصَّة القيادة. لكنني أتذكَّر السماء الشديدة الزرقة، وطائراتنا تحلِّق في السماء. لقد كنا ننتظرها، كنا ننتظرها طوال فترة الحرب...

مثل ثمار القرعة الناضجة...

ياكوف كولودينسكي – 7 أعوام.
الآن – معلِّم.

أوَّل عمليات قصف جوِّي.

سيبدأ القصف... فحملنا إلى الحديقة الوسائد والملابس، والوسائد كبيرة، ونحن لا نرى تحتها، وتبرز من تحتها سيقاننا فقط. ابتعدت الطائرات فحملنا كل شيء إلى البيت مرَّة أخرى. وكان هذا يتكرَّر عدَّة مرَّات في اليوم. ومن ثم لم نعد نهتم بشيء، فتجمعنا أمُّنا نحن الأطفال فقط، ونترك كل شيء في البيت.

في ذلك اليوم... أعتقد أنني أضفت شيئاً من أحاديث أبي، لكنني ما زلت أتذكَّر الكثير.

صباحاً... الضباب يخيِّم على الحقل البيتي. وقد أُخرجت الأبقار من الحظيرة. وأيقظتني أمِّي، وأعطتني قدحاً من الحليب الدافئ. ويتعيَّن علينا الذهاب إلى الحقل بعد قليل. وانهمك أبي في شحذ المحصدة.

طرق جارنا على النافذة ونادى أبي: «فولوديا!».

فخرج أبي إلى الشارع.

– «لنهربْ... الألمان يجوبون القرى ومعهم قوائم بالأسماء. سجَّل أحدٌ ما أسماء جميع الشيوعيين. وقد اعتقلوا المعلِّمة».

انطلقا عبر الحقول إلى الغابة. وبعد قليل دخل بيتنا اثنان من الألمان ورجل شرطة.

- «أين أبوكم؟».

فأجابت ماما: «ذهب لحصد العشب».

بعد ذلك فتّشوا البيت ولم يمسُّونا، ثمَّ خرجوا.

كانت زرقة الفجر ما زالت تغطّي المكان. الجوُّ بارد. ونظرنا، أنا وماما، عبر البوّابة ورأينا كيف اقتادوا مع المعلّمة أحد الجيران إلى الشارع، ودفعوه، وقيّدوا يديه... ربطوا أيدي جميع المعتقلين من الخلف، واقتادوهم اثنين اثنين. أنا لم أرَ قبل هذا إنساناً مقيَّد اليدين. وسرَت في جسدي رعدة. وطردتني ماما: «اذهب إلى البيت. والبس المعطف». كنت أرتدي الفانيلة، وأشعر بالبرد، لكنني لا أذهب إلى داخل البيت.

كان بيتنا يقع في وسط القرية. واقتيد الجميع إلى هناك. وتمَّ ذلك بسرعة. وقف الأفراد الذين رُبطت أيديهم مطأطئي الرؤوس. وتم تعدادهم وفق القوائم، ثم اقتيدوا إلى خارج القرية. كان بينهم عدد كبير من رجال القرية والمعلّمة.

وانطلقت النساء والأطفال وراءهم. تم اقتيادهم بسرعة. بينما تخلّفنا عنهم. ولدى بلوغهم آخر العنابر سمعنا إطلاق الرصاص. صار الرجال يتساقطون تارةً ويقفون تارةً أخرى. أُعدموا بسرعة وتهيّأ الألمان للانصراف. وإذ بأحد الألمان من راكبي الدرّاجات النارية يستدير بدرّاجته مارّاً بمحاذاة القتلى. كانت في يده أداة ما ثقيلة، إمّا هراوة وإمّا مفتاح تشغيل الدرّاجة النارية... لا أذكر. وصار يلوّح بها ويمضي بحركة بطيئة ويحطّم رؤوس جميع القتلى... وأراد ألمانيٌّ آخر أن يجهز على القتلى بمسدّسه، لكن زميله لوّح إليه بأنه لا حاجة إلى ذلك. لقد انصرف الجميع،

أمَّا هو فقد بقي حتى قام بتحطيم رؤوس جميع القتلى. أنا لم أعرف سابقاً بأن العظام البشرية تطقطق بهذا الشكل... أتذكَّر كيف تطقطق ثمار القرعة الناضجة حينما كان أبي يكسرها بالفأس، بينما كنت أجمع البذور.

استبدَّ بي الفزع لدرجة أنني تركت أمِّي والجميع وهرولت إلى مكان ما، لوحدي. لم أختبئ في البيت، بل لسبب ما في العنبر، وبحثت أمِّي عني كثيراً. ولم أنبس بكلمة طوال يومين. ولم يصدر عني أي صوت.

صرت أخشى الخروج إلى الشارع. ورأيت من النافذة: أحدهم يحمل لوحاً، والآخر يحمل بلطة، والآخر يسرع حاملاً دلواً. كانوا ينجرون الأخشاب وفاحت رائحة الألواح المنشورة حديثاً في الباحة كلِّها، لأنه كان هناك نعش في كلِّ بيت تقريباً. ولا أزال أشعر بالاختناق لدى شم هذه الرائحة، حتى يومنا هذا...

كان يرقد في النعوش أفراد عرفتهم. لم يكن لدى أي واحد منهم رأس. وبدلاً من الرأس ثمة شيء ما ملفوف بمنشفة بيضاء... ما تبقى من الرأس الذي تم جمعه.

عاد أبي مع اثنين من رجال الأنصار. كانت أمسية هادئة، وتم للتو سوق الأبقار. كان الواجب أن ننام، بينما أعدَّتْنا ماما للرحيل. ارتدينا بذلاتنا. كان لدي شقيقان أحدهما في الرابعة من العمر والآخر في عمر ثمانية أشهر. وكنت أكبر الجميع. عندما بلغنا ورشة الحدادة توقَّفنا والتفت أبي. التفتُّ أنا أيضاً. لم تكن القرية تشبه قرية، بل إنها مثل غابة سوداء غريبة.

كانت ماما تحمل الطفل الرضيع، بينما حمل بابا الرزم والعقد وأخي الأوسط. وصرت أمشي وراءهما دون أن أستطيع اللحاق بهما. وقال شاب من الأنصار: «دعني أحمله على ظهري».

لقد حملني على ظهره مع المدفع الرشَّاش...

كنا نأكل... المتنزَّه

آنيا غروبينا – 12 عاماً.

الآن – رسَّامة.

إنني أفقد القدرة على النطق حين أتحدَّث عن ذلك. الصوت يهمد...

جئنا إلى مينسك بعد الحرب. وأنا فتاة من لينينغراد. عانيت هناك من الحصار، حصار لينينغراد. عندما كانت مدينة بأكملها تتضوَّر جوعاً حتى الموت، مدينتي الحبيبة، الجميلة. تُوفِّي أبونا، وأنقذت ماما الأطفال. كانت ماما قبل الحرب مرحة وخفيفة الظل. وفي عام 1941 ولدت أخي سلافيك. كم كان من العمر حين بدأ الحصار؟ ستَّة أشهر، بالضبط ستَّة أشهر. وقد أنقذت هذا الطفل الصغير أيضاً. لقد أنقذتنا نحن الثلاثة جميعاً، بينما فقدنا أبانا. في لينينغراد قُتل جميع الآباء بصورة مبكِّرة، بينما بقيت الأمَّهات. يبدو أنه كان من الواجب أن يبقين على قيد الحياة. فمع من سنبقى عندئذ إذا ما قُتلت الأمَّهات؟

جرى ترحيلنا من لينينغراد بعد فكِّ طوق الحصار عن المدينة وعبر "طريق الحياة" إلى الأورال، إلى مدينة كاربينسك. تم إنقاذ الأطفال أوَّلاً، أُجليتْ مدرستنا كلها. وفي الطريق كان الجميع يتحدَّثون بلا توقُّف عن الطعام، عن الطعام وعن الآباء والأمَّهات. وفي كاربينسك انطلقنا فوراً إلى المتنزَّه، ولم نتجوَّل فيه للنزهة، بل رحنا نأكله! وقد أحببنا بشكل خاص أكل شجرة اللارقس الصنوبرية ذات الأوراق الوبرية؛ فهي حلوة المذاق

جدّاً! كما تناولنا براعم أشجار الحور الفتية، وقطفنا العشب. وأنا أعرف من أيّام الحصار جميع أصناف العشب التي يمكن أكلها، فقد أكل الناس في المدينة كل نبات أخضر. ولم تبق في الحديقة النباتية أية أوراق منذ حلول الربيع. بينما كانت توجد في متنزّه كاربينسك نباتات تسمى بملفوف الأرنب. كان ذلك في عام 1942 وساد الجوع في الأورال أيضاً. لكن بالرغم من ذلك لم يكن الوضع فظيعاً كما في لينينغراد.

كان يوجد في ملجأ الأطفال الذي عشت فيه أطفال لينينغراد فقط. ولم يكن في المستطاع توفير الطعام لنا، لم يستطيعوا إطعامنا خلال فترة طويلة. وكنا نجلس في الدروس ونمضغ الأوراق. كانوا يطعموننا بحذر... ومرة كنت جالسة وراء الطاولة، فقفزت من مكاني: «قطّة! قطّة!». ورآها جميع الأطفال، وراحوا يطاردونها: «قطّة! قطّة!». ونظرت المربّيات، وهنّ من أهالي المدينة، إلينا. واعتقدن بأننا من المجانين. صفوة القول لم تبقَ في لينينغراد قطّة واحدة... وكانت رؤية قطّة حية بمثابة حلم. كنا نروي لهنّ ذلك، لكنهن لم يصدّقن. وأذكر كيف كانت المربّيات يمسّدن رؤوسنا، ويحتضننا. ولم يرفع أي أحد صوته علينا، لحين نمو شعر رؤوسنا بعد الرحلة. وكان قد جرى حلق رؤوسنا جميعاً بشكل تام وأصبح الصبية والفتيات متشابهين. بينما فقد البعض شعرهم بسبب الجوع. لم نعبث ولم نهرول، بل كنا نجلس ونتطلّع حولنا، ونأكل كل ما يُقدّم لنا...

لا أذكر من حدثنا في ملجأ الأطفال عن الأسرى الألمان. وعندما رأيت أوّل ألماني عرفت بأنه أسير ويعمل خارج المدينة في مناجم الفحم. ولا أفهم حتى اليوم لماذا كانوا يأتون إلى ملجأنا، إلى ملجأ أطفال لينينغراد؟

عندما رأيته، هذا الألماني، لم يقل لي شيئاً، ولم يطلب شيئاً. وكان قد انتهى لحظتها وقت الغداء، ويبدو أن رائحة الطعام فاحت هناك، فوقف إلى جانبي وتشمّم رائحة الهواء، وتحرّك فكّاه بصورة لا إرادية، كما لو

كانا يمضغان شيئاً ما، حاول الإمساك به بيديه. بينما كانت الرائحة تتحرَّك وتتحرَّك. إنني لم أطق البتة رؤية شخص جائع، على الإطلاق! إن هذا المرض أصابنا جميعاً... فانطلقت وسألت الفتيات عمَّا إذا بقيت لدى أحد قطعة خبز، وأعطيناه قطعة الخبز تلك.

فشكرنا المرة تلو المرة.

- «دانكه شين... دانكه شين...».

في اليوم التالي جاء إلينا برفقة زميله. كانا بتلك الحال، ينتعلان القباقيب الخشبية الثقيلة. طق - طق... وحالما أسمع هذه الطقطقة أهرول إليهما...

كنا نعرف موعد قدومهما، بل حتى كنا ننتظرهما... ونأتي بما يتوفَّر لدينا من طعام... وفي فترة نوبتي في المطبخ كنت أحتفظ من أجلهما بحصَّتي اليومية من الخبز، وفي المساء أجمع ما يتبقَّى في القدور. كانت الفتيات كافَّةً يحتفظن بشيء ما من أجلهما. لكنني لا أذكر ما إذا فعل الصبية الشيء نفسه؛ فالصبية عندنا في حال جوع دائم، وينقصهم الطعام باستمرار. وقد وبَّختْنا المربِّيات، لأنه يحدث بين حين وآخر أن يغمى على الفتيات بسبب الجوع، ولكننا مع ذلك واصلنا سرَّاً إبقاء شيء من الطعام للأسرى.

وفي عام 1943 توقَّفوا عن المجيء إلينا، ففي هذا العام أصبح الوضع أكثر يسراً، ولم يعد الأورال يعاني من الجوع. وتوفَّر في ملجأ الأطفال الخبز الحقيقي، وقُدِّمت العصيدة بكميات كافية. لكنني لا أستطيع صبراً حتى اليوم لدى رؤية إنسان جائع. كيف ينظر... إنه لا ينظر أبداً إلى الأمام مباشرة، بل ينظر دائما إلى جهة ما... ومنذ فترة وجيزة شاهدت في التلفزيون البشر الجياع... ثمة حرب في مكان ما مجدَّداً. تُطلق النيران. ووقف الناس الجياع في طابور وبأيديهم الأطباق الفارغة. وعيونهم

ذاهلة. إنني أذكر هذه العيون. وقد جريت إلى الغرفة الأخرى واستولت عليَّ الهستيريا...

في العام الأوَّل بعد النزوح لم ننظر إلى الطبيعة. وكل شيء في الطبيعة يولِّد فينا رغبة واحدة، أن نجرِّب، هل يصلح للأكل أم لا؟ وبعد عام فقط رأيت مدى جمال الطبيعة في الأورال. أية أشجار شوح برية، وأعشاب عالية، وغابات كثيفة مترامية الأطراف. ما أروع لحظات الغروب هناك! وبدأت أمارس الرسم. لم تتوفَّر الأصباغ، ولذا كنت أرسم بقلم الرصاص. رسمت البطاقات البريدية، وأرسلناها إلى ذوينا في لينينغراد. وأحببت أكثر من أي شيء آخر رسم شجرة بطمة الشمال. تفوح في كاربينسك رائحة بطمة الشمال.

ومنذ أعوام عديدة تلاحقني الرغبة في السفر إلى هناك. ولدي رغبة شديدة في رؤية إذا ما زال ملجؤنا باقياً هناك... كان المبنى خشبياً، فهل بقي في الحياة الجديدة؟ وكيف حال متنزَّه المدينة الآن؟ وددت أن أسافر في الربيع حين تتفتَّح جميع الأزهار. أنا الآن لا أتصوَّر كيف يمكن تناول ملء كفٍّ من ثمار بطمة الشمال، بينما كنا نلتهمها. لقد أكلناها حتى عندما كانت ما تزال خضراء، مرَّة المذاق.

بعد الحصار... أنا أعرف أن الإنسان يستطيع أن يأكل أي شيء. والبشر أكلوا حتى التراب... وبيعت في الأسواق الأتربة الممزوجة بما كان يوجد في مستودعات الأغذية المحطمة والمحترقة في باداي، وثُمِّنت بشكل مرتفع التربة التي سال عليها زيت عباد الشمس، أو التربة الممزوجة بالمربى المحترقة. وكلاهما بيعا بثمن باهظ. أمَّا أمِّي فكانت تستطيع شراء فقط أرخص تربة، تلك المأخوذة من المكان الذي وجدت فيه براميل سمك الرنجة المملَّح، وهذا التربة فيها رائحة الملح فقط، ولم يوجد فيها ملح. ورائحة سمكة الرنجة فقط.

لم أتعلَّم الابتهاج سريعاً لدى رؤية الأزهار والعشب النضر، الابتهاج فحسب، وبعد مضي عشرات الأعوام من انتهاء الحرب...

سنطلق النار على كلّ من يبكي

فيرا جدان – 14 عاماً.

الآن – حلابة.

أنا أخاف الرجال... هذا الشعور بدأ لديّ منذ الحرب....

ساقونا تحت فوّهات الرشّاشات إلى الغابة. ووجدوا فسحة في الغابة. هزّ الألماني رأسه: «لا، ليس هنا». واقتادونا إلى مكان أبعد. وقال رجل الشرطة: «هذا ترف أن ترقدوا هنا يا قطّاع الطرق الأنصار، في مثل هذا المكان الجميل. سنضعكم في الوحل».

وقع اختيارهم على منخفض شديد، وفيه ماء راكدٌ دوماً. وسلّموا أبي وأخي مجرفتين من أجل حفر الحفرة. بينما أوقفوني مع أمّي بالقرب من الشجرة لكي ننظر. ورأينا كيف حفرا الحفرة، وبدرت من أخي أخر عبارة: «إيه يافيركا...». كان في السادسة عشرة من العمر... في السادسة عشرة... لقد بلغ لتوه هذا العمر.

رأيت مع ماما كيف أطلقوا عليهما الرصاص... ولم يسمح لنا بالالتفات وتحاشي النظر. لم يسقط أخي في الحفرة، بل التفّ مستديراً لدى إصابته بالرصاص وسقط إلى الأمام، وجلس بالقرب من الحفرة. ركلوه بأحذيتهم إلى داخل الحفرة، في الوحل. والأمر الأشد فظاعة ليس إطلاق النار عليهما، بل دفعهما إلى الوحل اللزج. في الماء. لم يسمحوا لنا بالبكاء، وطردونا إلى القرية. وحتى لم يهيلوا عليهما التراب. واصلت مع

ماما البكاء يومين كاملين. البكاء بنشيج خافت في البيت. وفي اليوم الثالث جاء ذلك الألماني مع اثنين من رجال الشرطة: «هيا اذهبا لدفن قاطعي الطريق». جئنا إلى ذلك المكان فوجدنا الجثتين طافيتين في الحفرة، وكان هناك بئر وليس قبراً. أخذنا معنا مجرفتين، فدفنّاهما ونحن نبكي. بينما قالوا لنا: «من يبكي سنرديه قتيلاً. ابتسما». وأرغمانا على الابتسام... أنا أنحني بينما يقترب الألماني مني وينظر في وجهي: هل أبتسم أم أبكي؟

كانوا واقفين... جميعهم من الرجال الشباب الوسيمين، يبتسمون. أنا لا أقصد الموتى بل أولئك الأحياء، وفزعت. ومنذ ذلك الحين أخاف الرجال الشباب...

لم أتزوَّج. لم أعرف معنى الحب. كنت أخاف: فربَّما سألد صبياً...

ماموتشكا وبابوتشكا... كلمتان من ذهب

إيرا مازور – 5 أعوام.

الآن – عاملة بناء.

أظن أنني يجب أن أتحدَّث عن عزلتي ووحدتي؟ كيف تعلَّمت ذلك؟

كان لحاف إحدى الصبايا، لينوتشكا، أحمر اللون، أما لحافي فكان بُنِّيَّ اللون. وعندما حلَّقت الطائرات الألمانية انبطحنا على الأرض وتغطَّينا باللحافين. في الأسفل الأحمر وفوقه لحافي البني. وقلت للصبايا إن الطيَّار سيرى من الأعلى اللحاف البُنِّي فيظنه حجراً...

لم يبق في ذاكرتي شيء عن أمِّي سوى أنني كنت أخشى أن أفقدها. وقد عرفت صبية قُتلت أمُّها في أثناء القصف الجوِّي. كانت تبكي طوال الوقت، وعندئذ تحملها أمِّي وتهدئها. وفيما بعد... دفنت أمِّي بعد مصرعها بمساعدة خالة غريبة في القرية. قمنا بغسلها، لقد رقدت نحيلة مثل فتاة. ولم يتملَّكْني الخوف، وكنت أمسِّدها بيدي باستمرار. وانبعثت منها كالعادة رائحة شعرها ويديها، ولم ألتفت إلى موضع إصابتها. ويبدو أن الجرح نجم عن رصاصة صغيرة. ولسبب ما اعتقدت أن ماما جرحت برصاصة صغيرة لأنني رأيت الرصاصات الصغيرة في الطريق. كما أثار دهشتي: كيف يمكن لهذه الرصاصات الصغيرة أن تقتل إنساناً كبيراً؟ وحتى قتلي أنا، الأكبر من الرصاصة بألف وبمليون مرَّة. لسببٍ ما تذكَّرت هذا المليون، لاعتقادي بأنه كبير جدَّاً لحد أنه لا يمكن حسابه.

لم تفارق ماما الحياة فوراً. وبقيت راقدة على العشب فترة طويلة، وفتحت عينيها: «إيرا، أريد أن أحدِّثك».

* «ماما، لا أريد...». لقد اعتقدت بأنها إذا ما قالت ما تريده فستموت.

عندما غسلنا جثمان ماما، كانت راقدة بمنديل على رأسها وبضفيرتين طويلتين... إنها مثل فتاة... هذه بقايا رؤيتي اليوم عنها. أنا الآن أكبر منها سنّاً بمرَّتين، فقد كانت في الخامسة والعشرين من العمر، بينما رُزقتُ بصبية تشبه أمِّي كثيراً.

ماذا بقي في ذاكرتي عن ملجأ الأطفال؟ الطبع الحاد، فأنا لا أستطيع أن أكونة ليِّنة وحذرة في انتقاء الكلمات. ولا أستطيع أن أغفر لأحد شيئاً. وفي أسرتي يشكون من كوني لست حنونةً جدّاً. فهل يمكن أن تشب الصبية حنونة بلا أم؟

كنت في ملجأ الأطفال أريد أن يكون لدي قدحي الخاص بي، أن يكون لي فقط. وأنا أحسد الذين يبقى لديهم شيء ما من الطفولة. بينما لا يوجد لديَّ شيء. ولا أستطيع وصف أي شيء بأنه بقي لديَّ من أيَّام الطفولة. بينما لديَّ رغبة شديدة في قول ذلك، وأحياناً حتى أختلق الأشياء...

الصبايا الأخريات تعلَّقن بمربِّياتنا، أمَّا أنا فقد أحببت الحاضنات؛ فهن يشبهن بقدر أكبر رؤيتنا حول أمَّهاتنا. كانت المربِّيات صارمات ويحببن النظام، أمَّا الحاضنات فهن بشعر أشعث دوماً، ويبدين التذمُّر كالأهل، ويمكن أن يلطمن أحداً ما لكن بلا إثارة الألم؛ كما تلطم الأمُّ طفلها. كانت مهمَّات الحاضنات تتلخَّص في استحمامنا وغسل ملابسنا في الحمَّام، وكنا نستطيع الجلوس على ركبهن. كما أنهن يمسكن بأجسادنا العارية. وهذا لا تفعله سوى الأم، وكنت أفهم ذاك، وكنا يتولَّين إطعامنا، وعلاجنا من الزكام بطريقتهن الخاصَّة، ويمسحن دموعنا. وحين نكون في عهدتهن نصبح ليس في ملجأ الأطفال بل في بيت الأهل.

غالبا ما أسمع من يقول: أمّي أو أبي. وأنا لا أفهم، كيف هذا: الأم والأب؟ كما لو أنهما من الغرباء. أما لو كانا على قيد الحياة فإنني كنت سأدعوهما قائلة: "ماموتشكا" و"بابوتشكا".

إنهما كلمتان من ذهب...

جلبوا أوصالها...

فاليا زميتروفتش – 11 عاماً.

الآن – عاملة.

لا أريد أن أتذكَّر. ليست لدي رغبة في التذكُّر أبداً...

كنا سبعة أطفال. وقبل الحرب كانت ماما تضحك: «الشمس تنير، وجميع الأطفال سيكبرون»، ثم اندلعت نيران الحرب فصارت تبكي: «يا لها من ساعة نحسة! وما أكثر الأطفال!». كان يوزيك في السابعة عشر من العمر، وأنا في الحادية عشر من العمر، وإيفان في التاسعة، ونينا في الرابعة، وجالا في الثالثة وآليك في الثانية، وساشا في سن خمسة أشهر. إنه طفل صغير ما زال يرضع من الثدي ويبكي.

آنذاك لم نعرف، لكن الناس حدَّثونا بعد الحرب، بأن والدينا لهما علاقة بالأنصار، وبجنودنا الأسرى الذين عملوا في معمل الألبان. وقد عملت هناك شقيقة أمِّي. وأنا أذكر شيئاً واحداً: كان يجلس عندنا ليلاً بعض الرجال، ويبدو أن النور تسلَّل بوهج أكبر، بالرغم من إسدال الستائر على النوافذ، وأطلقت رصاصة في النافذة مباشرة. وعمدت أمِّي إلى إخفاء المصباح تحت الطاولة.

لقد صنعت لنا ماما أكلة ما من البطاطا، إذ كانت تستطيع صنع أي شيء من البطاطا، والآن يقال إنها أطباق. كنا نستعد للاحتفال بأحد الأعياد. وأذكر أن رائحة شهية كانت تفوح في البيت. أمَّا أبي فقد انشغل في حصاد

العشب بالقرب من الغابة. طوّق الألمان البيت وأمرونا: «اخرجوا!». خرجت ماما وأنا وثلاثة أطفال. انهالوا بالضرب على ماما وراحت تصرخ: «يا أطفال، ادخلوا إلى البيت».

وأوقفوها عند الجدار تحت النافذة، بينما كنا نراقب المشهد من النافذة.

- «أين ابنك الأكبر؟».

أجابت ماما: «إنه يجمع الخس».

- «هيا بنا إلى هناك».

ودفعوا ماما إلى داخل السيّارة وجلسوا فيها أيضاً.

خرجت جالا من البيت وصرخت وأرادت أن ترافق ماما. وأدخلوها إلى السيّارة مع ماما أيضاً. بينما صاحت ماما: «يا أطفال، ادخلوا إلى البيت».

جاء أبي مسرعاً، ويبدو أن الناس قد أبلغوه، وأخذ بعض الوثائق وانطلق مسرعاً في إثر أمّي. وصاح أيضاً: «يا أطفال، ادخلوا إلى البيت». كما لو أن البيت سينقذنا أو سنجد هناك ماما. انتظرنا في الباحة... وفي المساء تسلّق بعضنا البوّابة، والبعض الآخر شجرة التفّاح: هل سيعود بابا برفقة ماما وأختنا؟ ورأينا الناس يهرولون من الطرف الآخر للقرية صائحين: «يا أولاد، غادروا البيت واهربوا. لقد قُتل أبوكم وأمُّكم، والألمان قادمون إليكم». زحفنا في حقل البطاطا باتجاه المستنقعات. بتنا الليل هناك، وبدت طلائع الفجر وشروق الشمس: ما العمل؟ وتذكّرت بأننا تركنا الطفلة الرضيعة في المهد. ذهبنا إلى القرية وأخذنا الطفلة الصغيرة، وكانت ما زالت على قيد الحياة، إلا أنها ازرقّت من الصراخ. وقال أخي إيفان: «أطعميها». ماذا أطعمها؟ فأنا بلا ثديين. لقد خاف إيفان أن تموت الطفلة، ورجاني: «حاولي».

جاءت جارتنا وقالت: «يا أولاد، سيبحثون عنكم. اذهبوا إلى خالتكم».

كانت خالتنا تقطن في قرية أخرى. وقلنا: «سنذهب إلى الخالة، لكن خبرونا أين ماما وبابا وشقيقنا؟».

فقالت إنهم قد أُعدموا. إنهم راقدون في الغابة...

- «لكن لا يجب أن تذهبوا إلى هناك، يا أطفال».

* «سنغادر القرية ونودعهم في طريقنا...».

- «لا يجوز ذلك، يا أطفال».

قادتنا الجارة إلى خارج القرية، ولم تسمح لنا بالذهاب إلى المكان الذي رقد فيه أهلنا...

بعد أعوام طويلة علمت بأن الألمان سمَّلوا عينَي أمِّي وجزُّوا شعرها وقطعوا ثدييها. ووجَّهوا نحو جالا التي اختبأت تحت شجرة الشوح الكلاب البوليسية، وجلبوا أوصالها لتراها أمِّي التي كانت ما تزال حية، وأدركت كل شيء... لقد مُزِّقتْ أمام سمعها وبصرها.

بعد الحرب بقيت أنا وأختي نينا فقط. وقد وجدتها لدى أناس غرباء، وأخذتها إلى حيث كنت أسكن. وذهبنا إلى بلدية المنطقة: «نحن في حاجة إلى غرفة لكي نعيش معاً». فأعطونا ممرّاً في المسكن الجماعي للعمَّال. بدأت بالعمل في المصنع، أما نينا فقد أخذت تدرس في المدرسة. ولم أكن أدعوها باسمها أبداً، بل أناديها دائماً بـ"أختي". إنها الوحيدة لديَّ.

أنا لا أريد أن أتذكَّر. لكن يجب أن أروي للناس مصيبتي. من الصعب أن أبكي لوحدي...

لقد تفقَّس البيض لتوِّه عن فراخ...
وكنت أخاف أن يقتلوها

أليوشا كريفوشي - 4 أعوام.

الآن - عامل سكك حديدية.

ذكرياتي... الوحيدة...

لقد تفقَّس البيض لتوِّه عن فراخ صفراء، تدبُّ على الأرض، وتقفز فوق راحتي يديَّ. وفي أثناء القصف الجوِّي كانت جدَّتي تضعها في المنخل وتقول: «يا للعجب! الحرب، والفراخ».

كنت أخاف أن يقتلوا الفراخ. وأنا أذكر حتى الآن، كيف كنت أنتحب بسبب هذا الخوف. يبدأ القصف... الجميع يختبئون في القبو، بينما أنا لا أغادر البيت. كنت أحتضن الفراخ... وعندما تضعها جدَّتي في المنخل أرافقها، أرافقها وأحسب: واحد، اثنان، ثلاثة فراخ.. وكان عددها خمسة.

كما حسبت القنابل. سقطت واحدة، وأخرى... سبع...

وهكذا تعلَّمت الحساب...

شيخ السباتي...
شيخ الديناري

جالينا ماتوسيفا - 7 أعوام.

الآن - متقاعدة.

يولد الإنسان...

ويجلس إلى جانباه ملاكان يقرِّران مصيره. إنهما يحدِّدان كم سنةً سيعيش، وهل سيكون طريقه في الحياة طويلاً أم قصيراً. وفي الأعالي ينظر الرب، الذي أرسل الملاكين، لكي يرحِّبا بقدوم الروح الجديدة، وإبلاغها بأنه موجود.

يا لك من فتاة طيبة! أنني أرى من العينين: هل سيكون الإنسان سعيداً أم لا. أنا لا أدنو في الشارع من أي أحد وأوقفه قائلة: «أنت شابٌّ جميلٌ. هل يمكن أن أسألك؟». الناس يمشون ويمشون في الشارع بينما يقع اختياري على شخص واحد في الحشد، كما لو أنني أعرف، ويستجيب قلبي لشيء ما، ويغمره الدفء، وتوجد الكلمات. حرارة الكلام. فأبدأ الحديث... أقرأ ما يدون في القدر؛ أكشف أوراق اللعب، ويوجد في الأوراق كل شيء: ما كان وما سيكون، وكيف تهدأ الروح، ومع من ستمضي، وتمضي إلى أين، ومن أين جاءت وانطلقت نحو السماء. ستظهر الأوراق... الإنسان المتكبِّر، إن قدره مدوَّن مسبقاً في السماء. هناك نصٌّ مكتوب، لكن كل إنسان يقرأه حسب طريقته...

نحن الغجر. شعب حر. لدينا قوانيننا الغجرية، ووطننا هناك حيث نقطن، وحيث تبتهج قلوبنا، وبالنسبة إلينافالوطن في كل مكان. في كل مكان تحت السماء. هذا ما علَّمني إيَّاه أبي، وعلَّمتْني أمِّي. تنطلق العربة وتهتزُّ في الدروب، بينما تتلو ماما لي صلواتنا. تتلوها. اللون الرمادي... لون الطريق، لون التراب. لون طفولتي... يا فتاتي الطيِّبة، هل رأيت الخيمة الغجرية؟ المدوَّرة والعالية علوَّ السماء. لقد وُلدت فيها، في الغابة، تحت النجوم. إنني لا أخاف منذ نعومة أظفاري الطيور الليلية أو الوحوش. تعلَّمت الرقص والغناء عند شعلة النار. ومن دون الأغاني لا أتصوَّر حياة الغجر، كل واحد منا يرقص ويغنِّي، كما يقال. وكلمات أغانينا ذات عذوبة وطلاوة. ومهلكة. أنا لم أفهمها في صغري، ومع ذلك كنت أحزن وأبكي. أية كلمات هي؟ إنها تتسلَّل إلى قلب الإنسان، وتستفزُّه، وتهدهده. يستفزه الطريق، والحرية، والحب الكبير. وليس عبثاً أن يقال إن الإنسان الروسي يموت مرَّتين: مرَّة من أجل الوطن، ومرَّة لدى سماع الأغاني الغجرية.

يا فتاتي الطيِّبة، لمَ تطرحين الكثير من الأسئلة؟ أنا نفسي سأحدِّثك...

في طفولتي عرفت السعادة. صدِّقيني!

في الصيف كنا نعيش في مخيم الغجر سوية. كنا ننصب خيامنا دائماً على ضفَّة نهر، بالقرب من الغابة، في مكان جميل. في الصباح الطيور تغرِّد، وماما تغنِّي وتوقظني. وفي الشتاء نسكن في الشقق حيث يقدم لنا الناس فيها المأوى. وأيَّامذاك كان الناس من ذهب؛ لهم قلوب تفيض طيبة. وكنا نحيا معهم في وئام. ولكننا كنا ننتظر الربيع طوال فترة بقاء الثلوج. كنا نعتني بالجياد، فالغجر يعتنون بالجياد عنايتهم بأطفالهم. وفي نيسان/ إبريل، وفي عيد الفصح، كنا نعرب عن امتناننا إلى الناس الطيِّبين، ونشدُّ الرحال ونسافر في الطريق. الشمس، الريح... نحن نحيا

في يومنا الحاضر، اليوم لديك السعادة؛ فهناك من يحتضنك في الليل، أو أن الأطفال في أتم عافية وشبع. وغداً سيكون يوم آخر. كلمات أمِّي... لم تعلِّمني أمِّي أشياء كثيرة؛ إذا كان الطفل في رعاية الرب، فلا حاجة إلى تعليمه فترة طويلة، فهو يتعلَّم بنفسه.

وهكذا شببت... سعادتي القصيرة. السعادة الغجرية.

استيقظت في الصباح لدى سماع اللغط والصراخ.

- «الحرب!».

* «أية حرب؟».

- «مع هتلر».

* «دعهم يتقاتلوا. فنحن أناس أحرار. طيور. نعيش في الغابة».

وفور ذلك حلَّقت الطائرات، وأطلقت نيرانها على الأبقار في المرعى. الدخان يتصاعد إلى أعالي السماء... وفي المساء تناثرت أوراق اللعب لدى أمِّي، لدرجة أنها أمسكت برأسها وراحت تتدحرج على العشب.

هبَّ جميع ساكني المخيَّم. لا حركة. شعرت بالسأم. أنا أحب الطريق.

وحدث مرَّة أن جاءت إلى شعلة النار غجرية عجوز. وقد خُسف خدَّاها وغارت عيناها وجميع جسدها متجعِّد، كالأرض التي أحرقتْها الشمس. أنا لا أعرفها لأنها من مخيم آخر بعيد.

وروت العجوز قائلة: «في الصباح طوق رجال مخيَّمنا. وقد تألَّقت أعراف خيولهم، ذات الحدوات المتينة. كان الألمان يمتطون صهوات الجياد، أمَّا رجال الشرطة فكانوا يخرجون الغجر من الخيام. وطفقوا ينتزعون الخواتم من الأصابع والأقراط من الآذان. وصار الدم ينزف من جميع آذان النساء، وأصابعهن متورِّمة. كما طعنوا الوسادات بالحراب بحثاً عن الذهب. وبعد ذلك بدأوا بإطلاق النار...

ورجتهم إحدى الفتيات: عمو، لا تطلق النار. سأغنّي لكم أغنية غجرية. فضحكوا. وغنت ورقصت لهم، وبعد ذلك أطلقوا النار عليها... أعدموا جميع أفراد المخيم. هلك مخيمنا بأكمله. وأحرقت الخيام. وبقيت الخيول فقط، فأخذوها معهم».

شعلة النار تتأجّج. الغجر صامتون. وأنا جالسة بالقرب من ماما.

في الصباح شددنا الرحال: وضعت في العربات العقد والرزم والوسادات والقدور.

- «إلى أين نذهب؟».

أجابت ماما: «إلى المدينة».

- «لماذا إلى المدينة؟»، إنني آسفة لترك النهر والشمس.

* «لقد أمرنا الألمان بالذهاب».

سمح لنا في مينسك بأن نسكن في ثلاثة شوارع فقط. كان لدينا غيتو خاص بنا. كان الألمان يأتون مرّة في الأسبوع لجردنا بموجب القوائم: «أين تسيجاينر... تسفاي تسيجاينر...». يا فتاتي الطيّبة!

كيف عشنا؟

كنت أذهب مع ماما إلى القرى. نستجدي، فيعطوننا شيئاً من الحنطة أو الذرة، والجميع يدعوننا إليهم: «أوي، أنت يا غجرية، تعالي. اقرئي لنا البخت. زوجي في الجبهة». لقد فرّقت الحرب البشر، الجميع مفترقون عن بعضهم البعض، وفي الانتظار. ينتظرون ورود الأمل.

كانت أمّي تقرأ البخت، وأنا أسمع... ختيار السباتي، ختيار الديناري... الموت - ورقة سوداء. ورقة البستوني... سبعة... حب شديد - الختيار الأبيض. الرجل العسكري - ختيار البستوني الأسود. السفر العاجل - ورقة الستة الدينارية.

تخرج ماما من الباحة فرحة القلب مشرقة النفس، بيد أنها تبدأ بالنحيب في الطريق.

إنه لشيء فظيع ألا تُقال الحقيقة إلى الإنسان: زوجك قُتل، وابنك ليس في عداد الأحياء. وقد ووريا التراب، وهما هناك. وأوراق اللعب تشهد على ذلك...

بقينا للمبيت في أحد الأكواخ الريفية. ولم أنم. وعند منتصف الليل رأيت النساء وقد سرَّحن ضفائرهن الطويلة وطفقن يستطلعن الغيب. وصارت كل واحدة تفتح النافذة وترمي حبَّة قمح في ظلمة الليل ثم تصغي إلى الريح، الريح فاترة؛ يعني أن المرجو حي يرزق، أمَّا إذا عوت الريح وصفقت النافذة، فمعنى ذلك: لا تنتظريه، فلن يعود. وأخذت الريح تصفق وتصفق على زجاج النافذة.

لم يحبَّنا الناس أبداً كما أحبُّونا في فترة الحرب، في الأيَّام الصعبة. وكانت ماما تجيد صنع التعويذات. كان في وسعها مساعدة الإنسان وكذلك الحيوان: فأنقذت الأبقار، والأحصنة. إنها تتحدَّث مع كل واحد بلغته.

تردَّدت شائعات حول إعدام أفراد مخيم غجري، ثم آخر... ونقلوا أفراد الثالث إلى معسكر الاعتقال.

وضعت الحرب أوزارها. وطفحت قلوبنا بالفرح لدى لقاء بعضنا البعض. فحين تلقى شخصاً ما تعرفه تحتضنه. وبقي القلائل من بيننا. ولكن الناس عادوا إلى ضرب البخت واستطلاع الغيب. توجد في البيت تحت الأيقونة ورقة تبليغ الوفاة، ولكن المرأة ترجو مع ذلك قائلة: «أوي، يا غجرية، اقرئي البخت. فلربما كان رجلي حياً يُرزق. ربما أخطأ الكاتب في مكتب التجنيد».

كانت ماما تقرأ البخت. وأنا أستمع...

قرأت البخت أوَّل مرَّة لفتاة في السوق. كان من نصيبها ورقة الحب الكبير. ورقة محظوظة. فأعطتني روبلاً. أنا أهديت إليها السعادة، ولو للحظة واحدة.

"تي أفيس بهتالو...". الله معك!

صورة فوتوغرافية عائلية كبيرة

توليا تشيرفياكوف – 5 أعوام.

الآن – مصور فوتوغرافي.

إذا ما بقي شيء في الذاكرة فهو صورة فوتوغرافية عائلية كبيرة...

يبدو في المقدمة أبي مع بندقية وبقبّعة عسكرية، إذ كان يعتمرها في الشتاء أيضاً. وبانت القبّعة والبندقية بخطوط واضحة، أكثر من وجه أبي. بينما أردت جدّاً أن أمتلك هذه وتلك – القبّعة والبندقية. فأنا صبي.

ووقفت أمّي إلى جانب أبي.

أنا لا أذكر أمّي في تلك الفترة، لكنني أذكر أكثر ما كانت تفعله: إنها غالباً ما تغسل شيئاً أبيض تفوح منه رائحة الأدوية، إذ كانت ممرّضة في فصيلة للأنصار.

أذكر كيف أنني كنت مع أخي الأصغر في مكان ما. إنه مريض طوال الوقت. وأذكره أحمر السحنة، وجسده كلّه مغطى بالجرب. وهو ينتحب سوية مع أمّي في الليل. إنه يبكي من الألم، بينما هي تبكي من الجزع والخوف من أن يموت.

بعد ذلك أذكر كيف جاءت نساء يحملن الأقداح إلى البيت الريفي الكبير الذي اتُّخذ كمستشفى وعملت فيه أمّي، وفي الأقداح حليب. سكبن الحليب في دلو وصارت أمّي تغسل أخي فيه. فلم يصرخ أخي في الليل، واستسلم للكرى.

الليلة الأولى... في الصباح سمعت ماما تقول لبابا: «كيف سأرد المعروف إلى الناس؟».

صورة فوتوغرافية كبيرة.. صورة فوتوغرافية كبيرة فقط...

دعني على الأقل أفرغ حبات بطاطا صغيرة في جيبك

كاتيا زايتس – 12 عاماً.

الآن – عاملة في مزرعة «كليتشيفسكي».

أبعدتنا جدَّتنا عن النافذة...

بينما نظرت وحدَّثت أمي:

«لقد وجدوا في صومعة الحبوب العجوز تودور. كان هناك جنودنا الجرحى، وقد جلب إليهم ملابس أبنائه، أراد تغيير ملابسهم لكي لا يتعرَّف عليهم الألمان. وقد أطلقوا النار على الجنود في الصومعة، واقتادوا تودور إلى باحة منزله وأمروه بأن يحفر حفرة بالقرب منه. وصار يحفر...».

والعجوز تودور هو جارنا. وكنت أرى من النافذة كيف كان يحفر الحفرة. ها هو أنجز الحفر. وأخذ الألمان المجرفة منه، وهم يصرخون بشيء ما بلغتهم. والعجوز لا يفهم أو لا يسمع، لأنه أصم منذ وقت بعيد، وعندئذ دفعوه إلى الحفرة وأمروه بأن يجثو على ركبتيه. وبهذا الشكل أهالوا التراب عليه حيّاً... وبقي جاثماً على ركبتيه...

أصيب الجميع بالرعب. من هؤلاء؟ هل هم بشر؟ حدث هذا في الأيَّام الأولى للحرب.

كنا خلال فترة طويلة نتفادى منزل العجوز تودور. وتراءى لنا أنه يصرخ من تحت الأرض.

أضرمت النار في قريتنا حتى لم يتبقَّ منها سوى الرماد. الأحجار

وحدها في باحات البيوت، علماً أنها سوداء. وفي حديقة بيتنا لم يتبقَّ حتى العشب؛ فقد احترق. وأصبحنا نتسوَّل. كنت أذهب مع شقيقتي إلى القرى الأخرى، ونتسوَّل من الناس: «تكرَّموا علينا بشيء ما...».

ماما مريضة. إنها لا تستطيع مرافقتنا، لأنها تخجل.

كنا نأتي إلى أحد البيوت: «من أين أنتم يا بنات؟».

* «من يادرينا سلوبودا. لقد أحرقوا بيوتنا...».

كانوا ينعمون علينا بقصعة فيها شعير، وقطعة خبز، وبيضة واحدة... شكراً للناس! لقد أعطونا كل شيء.

ويتَّفق أن نأتي إلى عتبة أحد البيوت، فنسمع أصوات نسائية شاكية: «أوه، يا أطفال ما أكثركم! في الصباح أتانا زوجان منكم».

أو: «لقد خرج الناس لتوِّهم من عندنا. لم يتبقَّ شيء من الخبز. وكم كان بودِّي أن أضع في جيبك حبَّات بطاطا صغيرة!».

عاد أبي من الجبهة. وبدأنا بتشييد البيت، وبقيت في القرية كلِّها بقرتان فقط. وحملنا الأخشاب فوق الأبقار، وحملتها بنفسي. لم تسعفني قواي في حمل جذع شجرة لوحدي، لكن إذا ما ساعدني أحد بمثل طولي فإنني كنت أستطيع حمله.

لم تتوقَّف الحرب سريعاً. إنهم يحسبون: أربعة أعوام. أربعة أعوام جرى فيها إطلاق النار... لكنهم نسوا كيف.

ماما... ماما.. غس..لت.. الاط..ار

فيديا تروتكو – 13 عاماً.

الآن – مدير قسم في مصنع الجير.

هذه قصَّتي...

نقلنا ماما إلى المستشفى قبل يومين من نشوب الحرب، لإصابتها بمرض شديد. كانت المستشفى في مدينة بريست. وبعدها لم نرَ ماما.

فبعد يومين دخل الألمان المدينة. وطردوا جميع المرضى من المستشفى، أمَّا الذين لم يقدروا على المشي فقد نقلوهم بالشاحنات إلى جهة مجهولة. وروى الناس أن ماما كانت من بينهم. وأطلقوا عليهم النار في مكان ما. لكن أين؟ وكيف؟ ومتى؟ لم أعرف، ولم تتبقَّ أية آثار.

في لحظة نشوب الحرب كنت وأختي وأبي في بيتنا في بيريزا. أمَّا أخي فولوديا فكان يدرس في معهد الطرق – التكنيكي في بريست. بينما تخرَّج أخي الآخر ألكسندر من الكلِّية البحرية التابعة للأسطول الأحمر، وبقي للعمل هناك كعامل تشغيل المحرِّكات في إحدى السفن.

والدنا، ستيبان الكسييفتش تروتكو، نائب رئيس اللجنة التنفيذية لمنطقة بيريزا. وقد صدر إليه الأمر بأن يسافر مع الوثائق إلى سمولينسك. فهُرع إلى البيت وقال:

«فيديا، خذ أختك، واذهب إلى الجد في أوغورودنيكي...».

في الصباح جئنا إلى جدِّنا في القرية، وفي الليل طرق زجاج النافذة

أخونا فولوديا، وكان قد مشى نهارين وليلتين قادماً من بريست. وفي تشرين الأوَّل/ أكتوبر جاء إلى القرية أخونا ألكسندر. وروى أن الباخرة التي كانت متوجِّهة إلى دنيبروبتروفسك قد تعرَّضت للقصف الجوِّي. وبعض البحَّارة نجوا، وبعضهم وقعوا في الأسر. وهرب عدة أشخاص كان من بينهم أخونا ساشا.

وقد فرح الجميع حين جاء رجال الأنصار إلى بيت جدِّنا؛ فسنذهب معهم، وسننتقم.

سألني الآمر حين أخذونا إليه: «كم عدد الصفوف التي أنهيتها؟».

* «خمسة صفوف».

ثمَّ سُلِّمت إلى أخوي بندقيتان، بينما أعطوني قلم رصاص من أجل أن أتعلَّم.

كنت من أفراد الطلائع الفتيان. وكانت الورقة الرابحة في يدي هي أنني عضو في فصائل الطلائع. ورجوت إلحاقي بفصيلة قتالية.

ضحك الآمر وقال: «إن عدد الأقلام لدينا أقل من عدد البنادق».

كانت رحى الحرب تدور حولنا بينما نحن ندرس. وأُطلقت على مدرستنا تسمية "المدرسة الخضراء". لم تكن هناك مصاطب ولا قاعات دراسة ولا كتب مدرسية، بل وُجد تلامذة ومعلِّم فقط. واستخدم الجميع كتاب تعليم أبجدية واحداً، وكتاب تاريخ واحداً، وكتاب رياضيات واحداً، وكتاب قواعد اللغة واحداً. من دون ورق وطباشير وحبر وأقلام رصاص. جرى تنظيف فسحة في الغابة، وغُطِّيت بالرمل، وأصبحت بمثابة "لوحة مدرسية"، وكنا نكتب فوق الرمل بواسطة الأغصان الرفيعة. وبدلاً من الأوراق جلب لنا رجال الأنصار وريقات وورق جدران وصحفاً ألمانية. وحصلوا في مكان ما حتى على جرس مدرسي. وقد أثار البهجة أكثر من

أي شيء آخر. فهل توجد مدرسة حقيقية إذا لم يرن فيها الجرس؟ وكانت لدينا أربطة عنق حمراء.

وعندما يصيح المناوب: «قصف جوي!». تُخلى فسحة الغابة.

بعد القصف يتواصل الدرس. ويكتب تلامذة الصفّ الأوّل على الرمل: «ما - ما غسل-لت - الإطار».

وصنعنا من الأغصان ولحاء الشجر آلات حساب كبيرة. وعملنا من الخشب عدَّة مجموعات من حروف الأبجدية. وكانت لدينا حتى دروس تربية بدنية. وجهَّزنا ساحة لممارسة الألعاب الرياضية فيها عقلة وممر الركض وزانة ودوائر لرمي الرمَّانات. وكنت أرمي هذه الرمَّانات لمسافة أبعد من الجميع.

عندما أنهيت الصف السادس قلت جازماً إنني سأذهب إلى الصف السابع بعد الحرب. وسُلِّمت لي بندقية. وبعد ذلك غنمت بنفسي غدارة بلجيكية، وكانت صغيرة الحجم وخفيفة.

وأتقنت الرماية. ونسيت دروس الرياضيات...

لقد أهداني قبَعة قوزاقية
ذات شريط أحمر

زويا فاسيليفا – 12 عاماً.

الآن – مهندسة مختصَّة بتسجيل براءات الاختراع.

ما أكثر أفراحي قبل الحرب! أية سعادة! وهذا ما أنقذني...

التحقت باستديو فن الرقص التابع لمسرح الأوبرا والباليه في مدينتنا. كان الاستديو تجريبياً، وتم انتقاء أكثر الأطفال موهبة. وكتب لي خطاب توصية غاليزوفسكي مخرج الباليه الشهير في موسكو. وفي عام 1938 أُقيم في موسكو استعراض هواة التربية البدنية، وقد شاركت فيه، وتم إرسالنا كممثلين عن قصر الطلائع في مينسك. فأطلقنا البالونات الزرقاء والحمراء في السماء، وسرنا في طابور. وكان غاليزوفسكي مخرج هذا الاستعراض، وقد لاحظني.

بعد مضي عام جاء غاليزوفسكي إلى مينسك، ولقيني وكتب رسالة إلى زينائيدا أناتوليفنا فاسيايفا، فنَّانة الشعب، الفنانة البيلاروسية الشهيرة. وكانت قد تولَّت آنذاك تشكيل هذا الاستديو لفن الرقص. حملت الرسالة، وكان بودِّي جدّاً أن أقرأها لمعرفة ما كتب فيها، لكنني لم أسمح لنفسي بذلك. وكانت زينائيدا أناتوليفنا تقطن في فندق "أوروبّا" بالقرب من الكونسرفتوار. وبما أنني فعلت كلَّ شيء من دون علم والديَّ، لذا خرجت من البيت مسرعة جدّاً. سرت في الشارع عارية القادمين. وانتعلت

الصندلين في مكان الاستديو فقط، كما لم أغيِّر ملابسي. فلو ارتديت شيئاً ممَّا أرتديه في الأعياد لسألتني ماما: «إلى أين أنت ذاهبة؟». بينما لم يرغب والداي حتى في سماع أي شيء عن الباليه، وعارضا ذلك بشكل قاطع، وبحزم.

سلمت زينائيدا أناتوليفنا الرسالة. فقرأتها وقالت: «اخلعي ملابسك. فلنرَ ذراعيك وساقيك». فجمدت في مكاني رعباً: كيف سأنزع الصندلين وقدماي وسختان؟ ويبدو أن تعابير وجهي كانت بشكل جعلها تدرك كل شيء. فأعطتني منشفة وأبعدت الطاولة إلى المغسلة...

التحقت بالاستديو، ولم يبق من مجموع خمسة وعشرين شخصاً سوى خمسة فقط. وبدأت حياة جديدة: الرقص الكلاسيكي والإيقاع والموسيقى. ما أعظم بهجتي حينئذ! وقد أحبتني زينائيدا أناتوليفنا. كما أننا أحببناها، لأنها كانت بمثابة المعبودة، والإلهة لنا، ولم يكن من هو أكثر جمالاً منها في العالم بأسره. وفي عام 1940 رقصت في باليه "العندليب" لكروشنر، حيث شاركت في الرقص في الفصل الثاني ضمن مجموعة رقصة القوزاق. وكنا قد قدَّمنا هذا العرض مسبقاً في مهرجان الفن البيلاروسي في موسكو، وحقَّقنا نجاحاً. كما أديت دور الفرخ الصغير في العرض الأوَّل للاستديو في باليه "الفراخ". وتظهر فيه دجاجة كبيرة: الأم، وأنا أحد أصغر الفراخ.

بعد المهرجان في موسكو كرَّمونا بأذونات الالتحاق بمخيَّم الطلائع في ضواحي بوبريوسك. وهناك رقصنا أيضاً في عرض "الفراخ". ووعدونا بهدية هي كعكة كبيرة تم صنعها لتُقدَّم في 22 حزيران/ يونيو...

كنا نعتمر السدائر تعبيراً عن التضامن مع إسبانيا... وهي غطاء الرأس المفضل عندي. وكنت قد وضعتها على رأسي حين صاح الأطفال: «الحرب!». وفي الطريق إلى مينسك فقدت سدارتي.

في مينسك احتضنتني ماما عند عتبة البيت، وهُرعنا إلى محطَّة القطار. وفقدنا أحدنا الآخر في أثناء القصف الجوِّي. لم أعثر على ماما وشقيقتي، وسافرت بدونهما. في الصباح توقَّف القطار في محطَّة كروبكي ولم يواصل السير. وصار الناس يرتادون بيوت الفلاحين، بينما كنت أخجل، لأنني بلا ماما، لوحدي.

وفي المساء ولجت مع هذا أحد البيوت، ورجوت إعطائي ما أشربه، فأعطوني الحليب. وعندما أبعدت عيني عن القدح للنظر إلى الجدار رأيت صورة ماما في شبابها بفستان الزفاف. فصرخت: «ماما!». وسألني الجد والعجوز: «من أين أنت؟ ومن هم أهلك؟». مثل هذه الأمور لا تحدث إلا في فترة الحرب؛ فقد جئت إلى بيت شقيق جدِّي، والد أبي، الذي لم أرَه في حياتي أبداً. طبعاً لم يسمح لي بالذهاب إلى أي مكان. توجد مثل هذه المعجزات!

كنت في مينسك أرقص في باليه "الفراخ"، بينما وجب علينا الآن حراستها لكي لا تقتنصها طيور العقعق. لا بأس بالفراخ، أمَّا الإوزّ فكنت أخشاها. كنت أخاف كل شيء، وحتى الديك. وأبديت الجرأة أوَّل مرَّة حين طاردت الإوز إلى المرعى. وكان الوز الذكر ذكياً، وأدرك أنني أخافه، فصار يزبط ويجرني بمنقاره من طرف ردائي. ووجب عليَّ أن أحتال أمام أصدقائي الجدد. كما صرت أفزع كثيراً لدى حدوث عاصفة رعدية. وعندما كنت أرى هبوب العاصفة الرعدية أفتعل أمراً ما وأهرب إلى أي بيت قريب. فليس هناك ما يولِّد الرعب لديَّ أكثر من قصف الرعد. بينما كنت قد رأيت القصف الجوِّي...

لقد أعجبني أهل الأرياف، وطيبتهم، وكان الجميع يدعونني بـ"صغيرتي". وأذكر اهتمامي الكبير بالحصان، وأعجبني اقتياده، إذ سمح الجد بذلك. فهو ينخر، ويهز ذيله، والشيء الأهم أنه كان ينصاع لأوامري:

أسحب اليد اليمنى، فيعرف إلى أين يجب الاستدارة، وأسحبه من الجهة اليسرى فيستدير إلى اليسار.

وسألت الجد: «خذني على الحصان إلى أمِّي».

* «عندما تنتهي الحرب سآخذك إليها».

كان الجد عبوساً وصارماً.

قرَّرت الهرب. ورافقتني صديقتي إلى أطراف القرية.

في محطَّة القطار تسلَّلت إلى عربة مدفأة لكنهم طردوني منها. وتسلَّلت إلى سيَّارة ما. عندما أتذكَّر ذلك يصيبني الرعب: إذ جلس في السيارة ألماني مع ألمانية، ومعهما رجال شرطة، بينما أنا هناك، لكنهم لم يمسُّوني. وفي الطريق أخذوا يسألونني: «أين تعلَّمت؟ وكم عدد الصفوف التي أنهيتها؟».

وعندما علموا بأنني تعلَّمت أيضاً في مدرسة الباليه لم يصدِّقوا ذلك. وعلى الفور أريتهم في داخل السيارة مقطعي في دور "الفرخ". وهل تعلَّمت لغة أجنبية؟

كنا في الصف الخامس قد بدأنا بتعلُّم اللغة الفرنسية، وما زال كل ذلك حياً في الذاكرة. سألني الألماني شيئا ما باللغة الفرنسية فأجبته. وقد أدهشهم أنهم التقطوا صبية في القرية أنهت خمسة صفوف وحتى أنها تعرف اللغة الفرنسية. وقد عرفت أنهما من ذوي المهن الطبِّية، ومن الناس المتعلِّمين. وقد أدخلوا في رؤوسهم فكرة أننا برابرة متوحشون، ودون الجنس البشري.

يبدو لي مضحكاً الآن، كنت أخاف الديك، وشاهدت رجال الأنصار بقبَّعاتهم الفرو والأحزمة على الأكتاف والنجوم والرشاشات: «عمو، أنا شجاعة. خذوني معكم». وفي فصيلة الأنصار انتهت جميع أحلامي حيث

جلست في المطبخ وانهمكت في تقشير البطاطا. تصوَّري مدى التمرُّد في أعماق روحي! بقيت فترة أسبوع كامل في نوبات المطبخ، ثم جئت إلى آمر الفصيلة: «أريد أن أكون مقاتلة حقيقية». فأعطاني قبَّعة قوزاقية ذات شريط أحمر، بينما أردت إعطائي بندقية فوراً. أنا لم أخشَ الموت.

رجعت إلى ماما حاملة ميدالية "نصير الحرب الوطنية العظمى من الطبقة الثانية". ذهبت إلى المدرسة ونسيت كل شيء، مارست مع الفتيات لعبة "لابتا"، حيث يجري إسقاط مجموعة أشياء بضربة عصا من بعيد، وركبت الدراجة. وفي إحدى المرّات سقطت مع الدراجة في حفرة ناجمة عن سقوط قنبلة، وأصبت بجروح، وشاهدت الدم، ولم أتذكَّر الحرب بل مدرستي للباليه. فكيف سأرقص الآن؟ ستـ.ود قريبا زينائيدا أناتوليفنا، بينما أنا مصابة بكسر في ركبتي...

لكنني لم أستطع العودة إلى مدرسة الباليه. وذهبت للعمل في المصنع، إذ وجب أن أساعد ماما. بينما كانت لدي رغبة في الدراسة... ابنتي كانت تدرس في الصف الأوَّل، بينما أدرس أنا، أمها، في الصف العاشر. في المدرسة المسائية.

أهداني زوجي تذكرة إلى عرض باليه في مسرح الأوبرا. كنت طوال العرض أذرف الدموع...

وأطلقت النار في الهواء...

آنا بافلوفا – 9 أعوام.

الآن – طبَّاخة.

أوه، ستزخر روحي بالألم... وتتضعضع صحَّتي مجدَّداً.

جرَّني الألمان إلى العنبر. وتبعتهم أمِّي وهي تشد شعرها، وصاحت: «افعلوا كل ما تريدون بي، فقط لا تمسُّوا صغيرتي». وكان لدي أخوان أصغر مني سنّاً، وتعالى صراخهما أيضاً...

نحن من أبناء قرية ميخوفايا في مقاطعة أوريول. وقد اقتادونا مشياً على الأقدام إلى بيلاروسيا. وساقونا من معسكر اعتقال إلى معسكر اعتقال آخر... وعندما أرادوا ترحيلي إلى ألمانيا، تظاهرت ماما بأنها حبلى، بينما جعلتني أحمل أخي الأصغر. وهكذا أنقذتني. وتم شطب اسمي من القائمة.

آوه! ستتعذَّب روحي طوال اليوم وطوال الليل. لقد فاضت روحي حزناً وأثيرت شجوني...

مزَّقت الكلاب أجساد الأطفال. وكنا نجلس إلى جانب الطفل الممزَّق وننتظر حتى يتوقَّف القلب عن الخفقان. عندئذ نواريه الثلج، وسيكون ذلك قبره حتى قدوم الربيع.

في عام 1945، بعد النصر، أُرسلت أمِّي للعمل في بناء مصحَّة في جدانوفيتشي، فرافقتها. وهكذا بقيت هنا. أنا أعمل في المصحَّة منذ أربعين

عاماً، منذ وضع أول حجر، وتم تشييد المبنى كلّه أمام سمعي وبصري. أعطوني بندقية وعشرة أسرى ألمان لكي أرافقهم إلى موقع العمل. جئت أوّل مرة، فاعترضت طريقنا النساء هناك، البعض يحمل الحجر والبعض المجرفة أو العصا. وفجأة أتيت مع الألمان وبيدي البندقية وصحت: «يا نساء! لا تتعرَّضوا لهم، فأنا وقَّعت ورقة استلامهم. سأطلق النار!». وأطلقت النار في الهواء.

بكيت النساء، وبكيت أنا أيضاً. أمّا الألمان فوقفوا. لم يرفعوا أبصارهم.

زرت المتحف العسكري مع ماما مراراً. واتفق أن رأتني أتمعن في جريدة فيها صورة فوتوغرافية لأفراد أُعدموا رمياً بالرصاص، فجرَّتْني وعنَّفتْني.

لا يوجد في بيتنا اليوم أي كتاب عن الحرب. علماً أنني أعيش منذ وقت بعيد بدون ماما...

حملتني ماما بذراعيها إلى الصف الأوَّل...

إينا ستاروفويتوفا – 6 أعوام.

الآن – مهندسة زراعية.

قبَّلتْنا ماما وانصرفت...

بقينا في الكوخ نحن الأربعة: الأخ الأصغر، وابن وابنة العمِّ، وأنا. كنت أكبرهم سِنّاً، وبلغت السابعة من العمر. إنها ليست المرَّة الأولى التي نبقى فيها وحيدين، وقد تعلَّمنا ألا نبكي، وأن نلتزم الهدوء والسكينة. وكنا نعرف أن أمَّنا لها علاقة بالاستخبارات، وكانت تذهب لأداء المهمَّات التي تُكلَّف بها، بينما ينبغي لنا انتظارها. لقد أخذتْنا ماما من القرية، وصرنا نعيش في معسكر لرجال الأنصار خاص بالعوائل. كان ذلك حلمنا خلال فترة طويلة! والآن تحققت سعادتنا.

كنا نجلس ونصغي إلى حفيف الأشجار، بينما تنهمك النساء في غسل الملابس في مكان قريب، ويؤنبن أطفالهن.

وفجأة سمعنا صراخاً: «الألمان! الألمان!». وطفق الجميع يهربون من أكواخهم، وينادون الأطفال، ويهربون إلى عمق الغابة. إلى أين نذهب نحن بلا ماما؟ فقد تعرف ماما أن الألمان قادمون إلى المخيَّم فتأتي إلينا. وبما أنني كنت الأكبر سنّاً فقد أصدرت الأمر التالي: «جميعاً سكوت! المكان معتم هنا ولن يجدنا الألمان».

اختبأنا. ولزمنا الصمت التام. ومدَّ رجل ما رأسه في داخل الكوخ وقال باللغة الروسية: «الموجودون هنا، اخرجوا!».

كان الصوت هادئاً، فخرجنا من الكوخ. ورأيت رجلاً طويل القامة ببزَّة خضراء. فسألني: «هل لديك أب؟»

* «نعم».

- «أين هو؟».

* «بعيداً، في الجبهة».

وأذكر أن الألماني ضحك.

وطرح سؤالاً آخر: «أين أمُّك؟».

* «ماما مع رجال الأنصار في مهمَّة استطلاعية».

اقترب ألماني آخر يرتدي بزَّة سوداء، وأشار إلينا بيده إلى الجهة التي يجب أن نسير فيها. وقفت هناك نساء وأطفال لم يفلحوا في الهرب. ووجَّه الألماني الأسود فوَّهة مدفعه الرشَّاش نحونا، وأدركت ما سيفعله في اللحظة التالية. أنا لم أفلح حتى في الصراخ واحتضان الصغار...

استيقظت ووجدت أمِّي باكية. وظننت أني نمت. نهضت فرأيت ماما تحفر حفرة وتبكي. وقفت وظهرها لي، ولم أجد القوَّة لدعوتها، وكانت قواي تكفي فقط للنظر إليها. واعتدلت ماما وأدارت رأسها نحوي وصاحت: «إينوتشكا!». اندفعت نحوي، وأمسكت بيدي. كانت تمسكني بيد وتفحص باليد الأخرى بقية الأطفال فربَّما ما زال أحدهم على قيد الحياة... كلا، لقد سرت البرودة في أجسادهم.

عندما عولجت حسبت مع ماما تسع رصاصات من المدفع الرشَّاش التي أصابتني بجروح. لقد تعلَّمت الحساب: في أحد الكتفين رصاصتان، وفي الآخر رصاصتان. وهي أربع. وفي إحدى الساقين رصاصتان، وفي

الأخرى رصاصتان؛ أي ثمان. وفي العنق جرح واحد. أي تسع رصاصات.

انتهت الحرب... وحملتني ماما إلى الصف الأول بذراعيها...

أيُّها الكلب، يا عزيزي، سامحني...

جالينا فيرسوفا – 10 أعوام.

الآن – متقاعدة.

كان لديَّ حلم: أن أصطاد عصفوراً وألتهمه.

نادراً ما تظهر الطيور في المدينةِ. وحتى في الربيع كان الجميع ينظرون إليها ويفكِّرون في شيء واحد، هو الشيء نفسه الذي كنت أفكر فيه. الشيء نفسه... لم تتوفَّر القوَّة لدى أحد للتخلِّي عن الأفكار حول الطعام. وكنت بسبب الجوع أشعر ببرودة دائمة في أحشائي، برودة باطنية فظيعة. وكذا الحال في الأيام المشمسة. فلم أشعر بالدفء مهما ارتديت من ملابس.

أردت بشدة أن أحيا...

إنني أتحدَّث عن لينينغراد حيث كنا نعيش، وعن حصار لينينغراد. كانوا يقتلوننا بالجوع، وخلال فترة طويلة. تسعمئة يوم من الحصار... تسعمئة. آنذاك كان اليوم الواحد يبدو وكأنه باقٍ إلى الأبد. إنك لا تتصوَّرين كيف يبدو اليوم طويلاً بالنسبة إلى الجائع. الساعة، الدقيقة... نحن ننتظر طويلا موعد الغداء. ومن ثم العشاء. وبلغت حصَّة الفرد من الطعام في أثناء الحصار حتى خمسة وعشرين غراماً من الخبز في اليوم. هذا بالنسبة إلى غير العاملين، ويُعطى ببطاقة التموين. ويسيل الماء من هذا الخبز. ويجب تقطيعه إلى ثلاثة أقسام – الفطور، الغداء، العشاء. وكنا نشرب الماء المغلي فقط. الماء المغلي الخالص.

في العتمة... عند الساعة السادسة صباحاً، أقف في الطابور عند المخبز، أذكره في الشتاء أكثر من أي وقت آخر. وأقف عدَّة ساعات، ساعات طويلة، لحين وصول دوري، تخيِّم العتمة في الشارع مرَّة أخرى. يضيء نور الشمعة، والبائع يقطِّع تلك الأجزاء. الناس واقفون ويتطلَّعون إليه، وإلى كل حركة، بعيون متأجِّجة وذاهلة... وكل هذا يجري بصمت.

توقَّفت عربات الترام. لا ماء، لا تدفئة، ولا كهرباء. لكن أفظع شيء هو الجوع. لقد رأيت رجلاً يمضغ أزراراً. كانت أزراراً صغيرة وكبيرة. لقد جُنَّ جنون الناس بسبب الجوع.

واتفق لي أن أصبت بالصمم. آنذاك أكلنا قطَّة... وسأروي كيف أكلناها. وبعد ذلك أصبت بالعمى... وجلبوا لنا كلباً. وهذا ما أنقذني.

أنا لا أذكر... ولم يبقَ في ذاكرتي التفكير في أن من الممكن أكل قطَّتي أو كلبي، وأصبح ذلك شيئاً اعتيادياً، اعتيادياً، وشيئا يومياً. لم أتابع هذه اللحظة... ففي أعقاب طيور الحمام والسنونو اختفت في المدينة القطط والكلاب. لكن لم يكن لدينا أي حيوان بيتي، فنحن لم نقتنيها لأن ماما تعتقد بأن هذا يتسم بمسؤولية كبيرة، بالأخص إدخال كلب كبير إلى البيت. لكن صديقة أمِّي لم تستطع أن تأكل قطَّتها وأعطتها لنا، فأكلناها. فعاد إليَّ سمعي مجدَّداً... لكن القدرة على السمع اختفت فجأة، ففي الصباح كنت أسمع، لكن في المساء قالت لي ماما شيئاً ما، فلم أرد عليها.

مضت الأيَّام... وها نحن نتضوَّر جوعاً مرَّةً أخرى.. فجلبت صديقة أمِّي كلبها. أكلناه أيضاً. ولولا الكلب لما بقينا على قيد الحياة. طبعاً، ما كنا سنبقى على قيد الحياة. هذا شيء واضح. بدأ جسدي ينتفخ بسبب الجوع. لم ترغب أختي في النهوض في الصباح. كان الكلب كبيراً ولطيفاً، ولم تستطع ماما طوال يومين اتخاذ قرار بذبحه. كيف ستُقدم على ذلك؟ في

اليوم الثالث ربطت الكلب ببطارية التدفئة في المطبخ، وأخرجتنا من البيت إلى الشارع...

أنا أتذكَّر تلك القطع من اللحم... أتذكَّرها...

كانت رغبتي شديدة في أن أحيا...

غالبا ما كنا نجتمع ونجلس بالقرب من صورة بابا. كان أبي في الجبهة، والرسائل الواردة منه قليلة. كتب لنا: «يا فتياتي...». كنا نجيبه وحاولنا عدم إزعاجه.

احتفظت ماما بعدَّة قطع من السكَّر، كيس ورقي صغير. كان ذلك رصيدنا الاحتياطي الذهبي. وحدث مرة أن لم أطقْ صبراً، وكنت أعرف مكان السكَّر، فتسللت إلى هناك وأخذت قطعة واحدة. وبعد بضعة أيام أخذت قطعة أخرى. ثم، بعد مرور فترة من الوقت، أخذت قطعة مجدَّداً. وسرعان ما أصبح كيس ماما فارغاً... كيساً فارغاً.

مرضت ماما... وكانت في حاجة إلى الغلوكوز، السكَّر. لم تكن قادرة على النهوض. وتقرَّر في مجلس العائلة إخراج الكيس المأمول؛ كنزنا! فنحن احتفظنا به من أجل مثل هذا اليوم! وستتعافى ماما حتماً. بدأت أختي الكبرى بالبحث فلم تجد أثراً للسكَّر. وتم البحث في البيت كلِّه. وأنا أيضاً بحثت مع الآخرين.

وفي المساء اعترفت لهم...

عاقبتني أختي فضربتني وعضَّتني، وخدشتني بأظافرها. وأنا أدعوها: «هيا اقتليني! اقتليني! كيف سأعيش بعد هذا؟!». أردت أن أموت.

لقد حدَّثتك عن عدَّة أيَّام. بينما كان عددها تسعمئة يوم.

تسعمئة يوم كهذه الأيام...

حدث أن سرقت صبية في السوق كعكة من امرأة. صبية صغيرة.

فطاردوها وألقوها أرضاً. وانهالوا عليها بالضرب. ضربوها بعنف، حتى الهلاك. أمَّا الصبية فكانت تعجِّل بمضغ وابتلاع الكعكة... ابتلاعها قبل أن يقتلوها.

تسعمئة يوم كهذه الأيَّام...

بلغ الضعف لدى جدِّنا حدًّ أنه سقط في الشارع، وكاد أن يفارق الحياة. ومرَّ به في الشارع أحد العمَّال، والعمَّال يحصلون على بطاقة تموين أفضل، ليس كثيراً، إلا أنها أفضل... على أي حال، توقَّف ذلك العامل وسكب في فم جدِّي زيت عباد الشمس، أي حصَّته منه. جاء جدِّي إلى البيت وحدَّثنا وانخرط في البكاء: «إنني حتى لا أعرف اسمه!».

تسعمئة...

كان الناس يتجوَّلون كالأشباح في أرجاء المدينة، كما في الحلم، الحلم الدفين... أي أن المرء يرى، لكنه يعتقد بأنه يرى حلماً. تلك الحركات البطيئة، والسابحة، كما لو أنه لا يمشي فوق الأرض، بل فوق الماء.

لقد تغيَّر الصوت بسبب الجوع، أو فُقد تماما. وكان من غير الممكن تحديد هل هو صوت رجل أم صوت امرأة؟ وكذلك الملبس، فالجميع يلتفُّون بخرق ما. وفطورنا؟ كان الفطور قطعة من ورق الجدران، الورق العتيق، لكن بقي فيه شيء من الصمغ. صمغ الطحين. هذا الورق... والماء المغلي.

تسعمئة يوم.

أنا قادمة من المخبز... استلمت حصة اليوم. تلك القطع الصغيرة، تلك الغرامات البائسة... بينما لقيني كلب في الطريق. دنا مني وتشمَّم رائحة الخبز. وأدركت بأنه يمثِّل سعادتنا. هذا الكلب... خلاصنا! سأقتاد الكلب إلى البيت.

أعطيته قطعة خبز صغيرة، فتبعني. وبالقرب من البيت أعطيته قطعة أخرى، فلعق يدي. ولجنا مدخل البيت، لكنه لم يرغب في صعود السلالم، وكان يتوقَّف في كل طابق. فأعطيته جميع خبزنا... قطعة بعد أخرى. وهكذا حتى بلغنا الطابق الرابع، بينما تقع شقَّتنا في الطابق الخامس. عندئذ أبدى عناداً ولم يرغب في مواصلة الصعود. راح يتطلع إليَّ، كما لو أنه أحس بشيء ما. أدرك ما ينتظره. فاحتضنته: «يا كلب، عزيزي، سامحني.. أيُّها الكلب الصغير سامحني». وطفقت أتوسَّل إليه، وأرجوه. لكنه ذهب.

لقد أراد بشدة أن يحيا...

سمعنا النبأ... من المذياع: «لقد كُسر الحصار! لقد كُسر الحصار!». لم يكن هناك بشر أكثر سعادة منا. ولا يوجد من هو أكثر سعادة منا. لقد صمدنا! وكُسر الحصار...

سار جنود في شارعنا. فهُرعت إليهم.. لم أمتلك القوَّة لكي أحتضنهم.

توجد في لينينغراد نصب تذكارية كثيرة، لكن لا يوجد نصب ينبغي أن يقام هناك. لقد نُسي. إنه نصب كلب الحصار.

أيُّها الكلب الصغير، سامحني...

لقد ابتعدت هاربة:

هذه ليست ابنتي! ليست لي!

فايينا ليوتسكو – 15 عاماً.

الآن – موظَّفة في استديو سينمائي.

أنا أستعيد الذكريات في كل يوم، لكن أحيا... كيف أحيا؟ أوضحي لي...

أنا أتذكَّر بأن جنود التنكيل كانوا جميعاً ببزَّات سوداء... سوداء، وبقبَّعات عالية. وحتى كلابهم كانت سوداء، تتألَّق.

تشبَّثنا بأمِّنا. لم يقتلوا الجميع في القرية، بل أخذوا من كان يقف في الجهة اليمنى... في الجهة اليمنى. وكنا نقف هناك مع أمِّنا... وفصلونا: الأطفال على انفراد، والكبار على انفراد. وأدركنا بأنهم سيقتلون الكبار الآن. بينما سيبقون علينا أحياء. كانت هناك ماما... وأنا لم أرغب في أن أعيش بدونها. فاندفعت إليها وأنا أبكي، ولسبب ما سمحوا لي بالذهاب إليها.

أمَّا هي... فحالما رأتني صرخت: «هذه ليست ابنتي!».

* «ماموتشكا! ما...».

– «هذه ليست ابنتي! ليست ابنتي! ليست...».

* «ما–موتشكا!».

كانت عيناها ممتلئتين - ليس بالدموع بل بالدم. إنهما ممتلئتان بالدم...

- «هذه ليست ابنتي!».

فأبعدوني جانباً. ورأيت في البداية كيف أطلقوا النار على الأطفال. أطلقوا النار وتطلَّعوا إلى عذاب الأمَّهات والآباء. أطلقوا النار على شقيقتي وأخويَّ. وبعد أن قتلوا الأطفال صاروا يقتلون الأهل. لم أر ماما عندئذ... أظن أن ماما سقطت على الأرض...

وقفت امرأة وفي يديها طفل رضيع، كان يمتصُّ الماء من قنينة. فأطلقوا النار في البداية على القنينة ومن ثم على الطفل... وبعد ذلك فقط قتلوا الأم...

أنا أعجب كيف بقيت على قيد الحياة بعد هذا كله... كيف أعيش وقد كبرت؟ أنا كبيرة منذ وقت بعيد...

هل نحن أطفال؟
كنا رجالاً ونساءً...

فكتور ليشينسكي – 6 أعوام.

الآن – مدير مدرسة مهنية لصناعة الطاقة.

كنا في ضيافة خالتي التي دعتْني لتمضية فترة الصيف عندها.

كنا نقطن في بيخوفو، أمّا خالتي ففي القرية. إنها كومونة في ضواحي بيخوفو. وانتصب في وسط القرية مبنى طويل لسكنى عشرين عائلة؛ إنه مبنى أهل الكومونة.

هذا كل ما بقي في ذاكرتي.

قالوا: «الحرب». يجب الذهاب إلى أهلي. لكن خالتي لم تسمح لي بالذهاب: «هل ستنتهي الحرب قريباً؟».

* «طبعاً، قريباً».

بعد فترة جاء والداي مشياً على الأقدام: «الألمان في بيخوفو. الناس يهربون إلى القرى». وبقينا في بيت الخالة.

في الشتاء جاء الأنصار إلى القرية، ورجوتهم إعطائي بندقية. لقد كانوا من أبناء خالي، وأولاد عمّي. فضحكوا وأعطوني بندقية لأمسكها بيدي... ثقيلة.

كانت تفوح في المنزل دائماً رائحة الجلود والصمغ الدافئ. كان والدي يصنع الجزم من أجل رجال الأنصار. وطلبت منه أن يصنع لي جزمة أيضاً،

فطلب مني أن أنتظر؛ فلديه الكثير من العمل. وكما أذكر فقد أكَّد لي أن قدمي صغيرة، ويجب أن تكون الجزمة صغيرة. ووعد...

آخر الذكريات عن أبي، كيف اقتادوه إلى شاحنة كبيرة في الشارع، وانهالوا عليه بالضرب على رأسه بعصا...

وضعت الحرب أوزارها، وأصبحنا بلا أب وبلا بيت. كنت في الحادية عشرة من العمر، والأكبر سناً في العائلة. وثمة آخران؛ أخي وأختي، وهما صغيران. أخذت ماما قرضاً، واشترت منزلاً قديماً فيه سقف ينزف منه الماء لدى سقوط المطر، ولا يوجد فيه ملاذ، لأن الماء يسيل في كل مكان. وقمت بنفسي، أنا الذي بلغت الحادية عشرة من العمر، بتثبيت النوافذ، وسدِّ الشقوق في السقف بالصمغ. كما شيَّدت العنبر...

كيف؟

سحبت أوَّل جذع خشبي ووضعته بنفسي، وساعدتْني أمِّي في وضع الثاني. أمَّا في القسم العلوي فلم تسعفْني قواي. ولذا عملت التالي: كنت أسحب الجذع وأقطع الزاوية فيه وأنتظر مرور النساء لدى الذهاب إلى العمل في الحقل. فيرفعن في الصباح أحد الجذوع فأثبِّته في الزاوية، وفي المساء أسحب جذعاً آخر. إنهن يرجعن من العمل، فيرفعن الجذع... وهكذا صار الجدار يعلو فيعلو.

يوجد في القرية سبعون بيتاً، ورجلان فقط عادا من الجبهة. أحدهما يعرج على العكَّازة. وكانت ماما تردد: «ولدي! يا ولدي!». كانت أستسلم للنوم حيثما أجلس.

هل نحن أطفال؟ نحن كنا رجالاً ونساءً في سن العاشرة أو الحادية عشرة...

لن أعطي بذلة أبي لرجل غريب

فاليرا نيتشيبورينكو – 8 أعوام.

الآن – سائق حافلة.

كان ذلك في عام 1944... وأظن أنني كنت في الثامنة من العمر؟ أعتقد ثمانية أعوام... وكنا قد عرفنا بفقدان أبينا. أمَّا الآخرون فكانوا ينتظرون... إنهم يستلمون تبليغات الوفاة، ومع ذلك كانوا ينتظرون. ولدينا علامة موثوق بها، إثبات، لقد أرسل صديق أبي ساعته، إلى ابنه... إليَّ. وقد رجاه أبي أن يسلِّمها إلينا قبل أن يفارق الحياة. وهذه الساعة موجودة لديَّ حتى الآن، فأنا أحتفظ بها.

كنا ثلاثتنا نعيش براتب أمِّي الضئيل. ونعيش على الخبز والماء. أُصيبت شقيقتي بالمرض. وقرَّر الأطبَّاء أنها مصابة بالسل المفتوح. وقالوا لأمِّي: يجب تحسين الطعام، وإعطاؤها الزبدة والعسل. الزبدة في كل يوم! كان هذا بالنسبة إلينا كالذهب. قطعة من الذهب.. شيء لا يُصدَّق... إن راتب أمي كان يكفي حسب أسعار السوق لشراء ثلاثة قوالب خبز. بينما كان يمكن شراء مئتي غرام من الزبدة بهذا المبلغ.

وبقيت لدينا بذلة أبي، بذلة جيِّدة. أخذناها أنا وأمِّي إلى السوق. وجاء المشتري، بسرعة، لأن البذلة كانت جميلة. وقد اشتراها أبي قبيل الحرب ولم يلبسها بعد. وبقيت البذلة معلَّقة في صوان الملابس. بذلة جديدة. قوَّم المشتري البذلة وساوم على سعرها، وأعطى أمي النقود، لكنني صرخت

بأعلى صوتي في السوق: «لن أعطي بذلة بابا إلى رجل غريب!». وحتى اقترب منا رجل شرطة..

من سيقول بعد هذا أن الأطفال لم يشهدوا الحرب؟ من؟

في الليل بكيت،
أين ماما المرحة البشوشة

جالا سبانوفسكايا – 7 أعوام.

الآن – مصمِّمة فنية.

للذاكرة لون...

يبقى في الذاكرة كل ما حدث قبل الحرب بشكل حركة، إنها تتحرَّك وتتغيَّر ألوانها. وتكون الألوان ساطعة في أغلب الأحيان. أمَّا الحرب بالنسبة إلى الأطفال، فتبدو كما لو توقَّف كل شيء عن الحركة. والألوان رمادية.

نزحنا إلى مؤخرة الجبهة. الأطفال لوحدنا، بلا أمَّهات. نقلونا خلال فترة طويلة، لفترة طويلة جدّاً. وأطعمونا البسكويت والزبدة بالشوكولاتة، ويبدو أنهم لم يجدوا الفرصة لأخذ شيء آخر في الطريق. قبل الحرب كنت أحبُّ البسكويت والزبدة بالشوكولاتة، لأنهما لذيذان جدّاً. لكنني كرهتهما طوال حياتي بسبب شهر واحد في الطريق.

وددت خلال الحرب كلِّها أن تأتي ماما بسرعة وتأخذني إلى مينسك. ورأيت في أحلامي الشوارع ودار السينما القريبة من بيتنا، كما راودني في الحلم رنين حافلة الترامويِ. كانت ماما طيِّبة القلب جدّاً، ومرحة، وكنا نعيش سوية كصديقتين. أمَّا بابا فلا أذكره، فقد فارقنا مبكِّراً.

لقد وجدتْني ماما وجاءت إلى ملجأ الأطفال. وكان ذلك أمراً مفاجئاً

تماماً. يا للفرحة! هُرعت إلى أمِّي. فتحت الباب... كان يقف أمامي عسكري، بجزمتين وسراويل وقبَّعة وجاكتة عسكرية. من هذا؟ لقد تبين إنها ماما، يا لفرحتي الغامرة! ماما، وهي في بزَّة عسكرية.

كيف سافرت؟ لا أتذكَّر، لكنني بكيت كثيراً، وربما لهذا السبب أنا لا أتذكَّر.

طفقت أنتظر وأنتظر ماما مجدَّداً. فجاءت ماما هذه المرة مرتدية الفستان. وبحذاءين. ولم أرَ شيئاً من هذه البهجة، لكوني سأذهب معها، فقد كانت هناك ماما فقط... يا لفرحتي!

تطلَّعت إلى ماما، لكنني لم ألاحظ أنها فقدت إحدى عينيها. ماما – إنها كالمعجزة! فمعها لايمكن أن يقع شيء. ماما! لقد عادت ماما من الجبهة مريضةً جدَّاً. لقد كانت ماما أخرى؛ كانت قليلة الابتسام، ولم يكن لديها ميل إلى الغناء والمزاح كالسابق، وغالباً ما كانت تبكي.

عدنا إلى مينسك. وكانت حياتنا صعبة جدَّاً؛ فلم نجد بيتنا الذي أحببته كثيراً، ولم تكن هناك دار السينما وشوارعنا. وبدلاً من ذلك هناك أحجار وركام.

كانت ماما حزينة دائماً. لم تمزح ولم تتحدَّث كثيراً. صمتت أكثر.

في الليل كنت أنتحب: أين ماما المرحة؟ وفي الصباح كنت أبتسم، بغية ألا تعرف ماما أنني ذرفت الدموع....

هو لا يدعني أطير...

فاسيا ساؤولتشينكو – 8 أعوام.

الآن – باحث اجتماعي.

كان يعذِّبني بعد الحرب حلم واحد لا غير...

الحلم حول أوَّل ألماني قتيل. قتلته بنفسي، لكنني لم أرَ القتيل. يراودني الحلم بأنني أطير بينما هو لايدعني أنطلق. فهأنذا أنطلق... وأطير... وأطير... فيلاحقني، ويسقط معي. أسقط في حفرة ما. وعندها أريد أن أنهض، وأنهض... بينما يمنعني من ذلك، ولهذا لا أستطيع التحليق...

يتكرَّر الحلم نفسه. إنه يلاحقني منذ عشرات السنين...

كنت في ذلك الوقت الذي قتلت فيه الألماني قد رأيت الكثير. رأيت كيف أطلقوا الرصاص على جدِّي في الشارع، وجدَّتي بالقرب من البئر. وضربوا أمِّي بعقب البندقية أمام سمعي وبصري، وأصبح شعرها قانياً. لكنني عندما أطلقت النار على ذلك الألماني، لم أجد الفرصة للتفكير في ذلك. لقد كان جريحاً، وأردت أن آخذ الرشَّاشة منه، فقد قالوا لي: خُذْها منه. كنت في العاشرة من العمر، واصطحبني رجال الأنصار معهم لتنفيذ المهمات العسكرية. دنوت منه فرأيت كيف رُفع أمام بصري مسدَّس، صوَّبه الألماني نحوي، وقد أمسكه الألماني بكلتا يديه وصوَّبه نحو وجهي.

لكنه لم يفلح في إطلاق النار أوَّلاً، إذ سبقته...

لم يتملَّكني الخوف لكوني قتلت. وفي فترة الحرب لم أتذكَّره؛ فقد

كان هناك الكثير من القتلى، وكنا نعيش وسط القتلى. وحتى أننا قد اعتدنا ذلك. وقد أصبت بالخوف مرَّة واحدة فقط: دخلنا إلى قرية أُحرقت منذ فترة قريبة. أحرقوها في الصباح، وجئنا إليها في المساء. ورأيت امرأة محترقة. كانت راقدة وجسدها أسود كله، ويداها بيضاوان، إنهما يدا امرأة حية. لحظتئذ تملَّكني الخوف. لم أردْ أن أصرخ، وحبست دموعي...

كلا، لم أكن طفلاً. لا أتذكَّر كوني طفلاً. لكن بالرغم من أنني لم أفزع لدى رؤية القتلى، كنت أخاف السير عبر المقبرة ليلاً أو مساء. لم يفزعني الموتى الراقدون فوق التراب، بل يفزعني الذين تحت الأرض. رعب الأطفال... لقد بقي. ولو أنني أعتقد بأن الأطفال لا يخافون شيئاً...

حُرِّرت بيلاروسيا... وُجدت متناثرة في كل مكان جثثُ القتلى الألمان، أما جثث قتلانا فقد جُمعت ودُفنت في مقابر جماعية، بينما بقيت جثث الألمان متروكة فترة طويلة، ولاسيما في الشتاء. كان الأطفال يذهبون إلى الحقول للنظر إلى الموتى... بينما يبدأون في مكان قريب بممارسة لعبة "الحرب" أو "القوازق - اللصوص".

لقد دُهشت حين راودني ذلك الحلم حول الألماني القتيل بعد مرور سنوات طويلة... كان ذلك مفاجأة بالنسبة إليَّ.

بينما لاحقني هذا الحلم طوال عشرات السنين...

لدي ابن، إنه رجل بالغ الآن. وعندما كان صغيراً عذَّبتْني الفكرة نفسها؛ محاولة التحدُّث إليه عن الحرب. وقد استفسر عن الموضوع بينما كنت أتهرَّب من الجواب. لقد أحببت قراءة الحكايات له، وأردت أن تكون لديه طفولة. ثم شبَّ، ومع ذلك لم أرغب في التحدُّث عن الحرب. ربَّما سأحدِّثه في وقت ما عن الحلم. ربَّما... أنا لست واثقاً من ذلك...

هذا يعني تدمير عالمه. العالم بلا حرب... البشر الذين لم يشاهدوا كيف يقتل الإنسان أخيه الإنسان، هم بشر من نوع آخر...

أردت أن أقبّل الجميع كلمة «النصر»...

آنيا كورزون – عامان.

الآن – مربّية حيوانات.

أنا أذكر كيف انتهت الحرب... في التاسع من أيّار/ مايو عام 1945...

هرولت إلى روضة الأطفال امرأة وصاحت: «يا أطفال، النصر! النصر–ر–ر–ر!».

وصار الجميع يضحكون ويبكون. يبكون ويضحكون.

أخذوا يقبّلننا. نساء غريبات... يقبّلن ويبكين... يقبّلن. وتم تشغيل مكبّر الصوت. وأصاخ السمع الجميع. ونحن الصغار لم نفهم الكلمات، وكنا نفهم أن الفرحة تأتي من هناك، من فوق... من الصحن الأسود لمكبّر الصوت. ورفع الكبار أحدهم بأيديهم عالياً... وراح يتسلّق العمود بنفسه.. وصعد الواحد تلو الآخر فوق السلالم، ووصل الثالث أو الرابع فقط إلى الصحن الأسود وطبع قُبلةً عليه. ومن ثم تغيّر الصاعدون. لقد أراد الجميع تقبيل كلمة "النصر"...

في المساء أُطلقت الألعاب النارية، وتألّقت السماء. وفتحت ماما النافذة وبكت: «يا بنيّتي، تذكّري هذا اليوم طوال حياتك...».

عندما عاد بابا من الجبهة، كنت أخافه. وأعطاني قطعة سكاكر وطلب مني: «قولي، بابا...».

فأخذت قطعة السكاكر، واختبأت تحت الطاولة: «عمُّو...».

لم يكن لدي أب طوال فترة الحرب، وكبرت مع أمِّي وجدَّتي وعمَّتي. ولم أتصوَّر كيف سيكون الحال عندما يوجد في بيتنا بابا؟

فسيأتي حاملاً البندقية...

في قميص صُنع من القميص العسكري لأبي

نقولاي بيريوزكا – من مواليد عام 1945

الآن – سائق تاكسي.

ولدت في عام 1945، لكنني أتذكَّر الحرب. أنا أعرف الحرب.

أغلقت ماما عليَّ الباب في الغرفة الأخرى، ثمَّ أرسلتني إلى الشارع للعب مع الصبية. ولكنني سمعت مع هذا، كيف صرخ بابا. واصل الصراخ طويلاً. تطلَّعت من الشق بين مصراعي الباب، كان أبي يمسك بيديه ساقه المصابة، ويؤرجحها. أو كان يزحف على الأرض ويضرب بقبضته قائلاً: «الحرب! الحرب اللعينة!».

عندما زال الألم حملني أبي بذراعيه، فمسست ساقه: «هل الحرب تؤلم؟».

فأجابني أبي: «الحرب! هي اللعينة».

وأيضاً... كان لدى جيراننا صبيان صغيران، وربطتني بهم أواصر الصداقة. لقد انفجر بهما لغم في أطراف القرية. حدث ذلك كما أعتقد في عام 1949... وألقت أمُّهما، العمَّة آنيا، بنفسها في القبر. فأخرجوها... بينما راحت تصرخ وتولول... البشر لا يصرخون هكذا...

ذهبت إلى المدرسة مرتدياً قميصاً صُنع من القميص العسكري لأبي. لكم أنا سعيد! وكان جميع الصبية الذي رجع آباؤهم من الحرب يرتدون قمصاناً صُنعت من القمصان العسكرية لآبائهم.

بعد الحرب تُوفِّي أبي بسبب الحرب... بسبب الجروح.

أنا لا أحتاج إلى اختلاق أي شيء؛ فقد رأيت الحرب. وأرى الحرب في الحلم. كما أنني أبكي في الحلم، لأنهم سيأتون غداً، ويعتقلون أبي... وتفوح في البيت رائحة جوخ المعطف العسكري الجديد...

الحرب! عليها اللعنة...

لقد زينتها بزهور القرنفل الحمراء

مريم يوزيفوفسكايا – من مواليد عام 1941.

الآن – مهندسة.

ولدت في زمن الحرب. وخلال فترة الحرب كبرت.

ها نحن... ننتظر عودة بابا من الحرب.

ما أكثر ما فعلت ماما بي: فقد حلقت شعر رأسي كلِّياً، ودلَّكته بالكيروسين، ودهنته بالمرهم. وأصبحت أكره نفسي كل الكره. وصرت أخجل. حتى أنني لم أخرج إلى باحة البيت. لا خلاص لي من القمل والدمامل...

ثم جاءت تلك البرقية: سيتم تسريح بابا. ذهبنا إلى محطَّة القطار لاستقباله. وألبستْني ماما بأبهى حلة. وربطت شريطا أحمر فوق قمة رأسي. كيف ثُبِّت هناك؟ غير مفهوم. وكانت طوال الوقت تجرني قائلة: «لا تحكِّي. لا تحكِّي». لكن الحكَّة لا تحتمل! وهذا الشريط اللعين كاد أن يسقط. وتدور في رأسي فكرة: «وإذا لم أحظَ بإعجاب بابا؟ فهو لم يرني من قبل أبداً».

لكن ما أعقب ذلك كان أسوأ. فقد رآني أبي واندفع نحوي أوَّلاً، على الفور. وفي لحظة خاطفة، وأية لحظة خاطفة... وقد أحسست بذلك فوراً، بجلدي، وبكل جسدي. تراجع كما يبدو.. في لحظة خاطفة... وشعرت بإساءة بالغة، وبمرارة لا تحتمل. وعندما حملني بذراعيه، طفقت أضربه

بكلِّ قواي في صدره. وبلغت أنفي فجأة رائحة الكيروسين. علماً أنه رافقني في كلِّ مكان خلال عام، ولم أعد أسمعه. واعتدت ذلك. ولحظتئذ سمعته. ربَّما لأنه انبعثت من أبي رائحة رائعة وغير معروفة. كان وسيماً جدّاً بالمقارنة معي ومع أمِّي المعذَّبة. وهذا ما لسعني في أعماق روحي. فنزعت الشريط. وألقيته على الأرض. ودست على قدمه.

فدهش أبي: «ماذا تفعلين؟».

ضحكت ماما التي أدركت كل شيء وقالت: «هذا طبعها...».

كانت تمسك أبي بكلتا يديها، وهكذا انطلقا نحو البيت.

في الليل دعوت ماما ورجوتها أن تأخذني إلى سريرها. كنت أنام مع ماما دائماً... طوال فترة الحرب... لكن ماما لم تستجب لندائي كما لو أنها نائمة. لم يوجد من أحدِّثه عن كربي.

وقررت بشكل قاطع وأنا أستسلم للنوم بأنني سأذهب إلى ملجأ الأطفال...

في الصباح أهداني بابا دميتين. بينما لم يكن لدي حتى بلوغي الخامسة أية لعب حقيقية. كانت لدي لعب قماشية مصنوعة يدوياً، لعب جدَّتي. أما اللعب التي جلبها أبي فقد كانت تفتح وتغلق عيونها، وتحرك أذرعها وسيقانها، وتقول بصوت خفيض "ماما". وبدا لي ذلك شيئاً سحرياً، واعتززت بهما جدّاً، وخشيت حتى حملها إلى خارج البيت. لكنني كنت أريهما للآخرين من النافذة. كنا نقطن في الطابق الأول، وتجمع الأطفال من الباحة كلها للنظر إلى دميتي.

كنت ضعيفة البنية وكثيرة المرض... وذات حظٍّ عاثر دائماً. فتارة أصيب جبهتي برضوض، وتارة أدوس على مسمار. أو أسقط عموماً فاقدة الوعي. وكان الأطفال لا يدعونني كثيرا لمشاركتهم في ألعابهم. وحاولت

كسب ثقتهم بكل السبل، قدر استطاعتي، وما أكثر ما ابتدعت من حيل لهذا الغرض. وبلغ الأمر حتى التودُّد إلى دوسيا ابنة عاملة التنظيف في الشارع. كانت دوسيا قوية البنية، مرحة، وأحبَّ الجميع ممارسة اللعب معها.

وقد طلبت مني أن أجلب الدميتين، فلم أصمد أمام طلبها. حقّاً، ليس فوراً. إذ قاومت بعض الوقت.

وهدَّدتني دوسيا قائلة: «إذاً لن ألعب معك».

وقد فعل ذلك فعله فوراً.

وجلبت الدمية التي تتكلم. ولعبت معها فترة قصيرة. ثم تخاصمنا، وبلغ الأمر حد صراع الديكة. وأمسكت دوسيا بساق الدمية وضربت بها الحائط. فانفصل رأس الدمية، وسقط من بطنها الزر.

راح جميع الأطفال يبكون قائلين: «دوسيا، أنت مجنونة».

وكفكفت دوسيا دموعها من خدِّها: «لم تأمرني؟ إنها تعتقد بأنه ما دام لديها بابا فكل شيء ممكن عندها. الدمى وبابا... كل شيء لها فقط».

لم يكن لدى دوسيا دمى ولا أب...

نصبنا أول شجرة عيد ميلاد تحت الطاولة. كنا آنذاك نعيش في بيت جدّي، ونعاني من ضيق المكان. وبلغ الضيق إلى درجة أنه لم يبق متسعٌ إلا تحت الطاولة الكبيرة. وهناك وضعنا شجرة عيد ميلاد صغيرة. وقمنا بتزيينها بالمسامير الحمراء اللون. وأذكر جيِّداً أن الشجرة كانت نضرة وذات رائحة نقية. وما كان في استطاعة أي شيء أن يقضي على رائحتها، لا عصيدة الذرة التي كانت جدَّتي تطبخها، ولا رائحة طلاء جزمة جدِّي.

كان لدي عقد من الزجاج، كنزي. ولم أجد له مكاناً على شجرة عيد الميلاد. وأردته أن يتألَّق من أية جهة ينظر إليها المرء. فعلَّقته على ذروة الشجرة. وعندما ذهبت للنوم رفعته وأخفيته. كنت أخشى أن أفقده...

علماً أنني كنت أنام في وعاء الغسيل، وهو من الزنك وتشوبه زرقة تشبه غشاوة الزمهرير. ومهما غُسل تبقى فيه رائحة الصول الذي تُغسل به الملابس، بسبب شح الصابون. وكان يعجبني. وكنت أحب الضغط بجبهتي على حافاته الباردة، بالأخص في فترة مرضي. كما أحببت جدّاً حين أهزُّه كالمهد. وحينئذ تنبعث منه طقطقة، ولهذا عنّفوني. لقد اعتززت به كثيراً. وكان الشيء الوحيد لدينا المتبقّي من الحياة قبل الحرب.

وفجأة اشترينا سريراً، فيه كرات لامعة عند الظهر. وأثار هذا كله بهجة غامرة لدي! ارتقيت السرير ثم انزلقت فوراً إلى الأرض. كيف؟! هل هذا معقول؟! أنا لم أصدّقْ بأنه يمكن أن ينام المرء على مثل هذا السرير الجميل.

عندما رآني بابا على الأرض أنهضني واحتضنني بشدّة. والتصقت ببابا واحتضنته من عنقه، كما كانت ماما تحتضنه.

وأذكر كيف ضحك بكل سعادة...

انتظرت كثيراً مجيء بابا...
طوال حياتي...

أرسيني غوتين – من مواليد عام 1941.
الآن – عامل كهرباء.

بلغت الرابعة من العمر في يوم عيد النصر...

منذ الصباح أبلغت الجميع بأنني في الخامسة من العمر، وليس أنني دخلت العام الخامس. أردت أن أغدو كبيراً. سيعود أبي من الحرب، ويجدني كبيراً.

جمع رئيس المزرعة في هذا اليوم النساء وقال: «النصر!». ولثم جميع النساء، كل واحدة منهن. وأنا كنت مع ماما... ففرحت. بينما استغرقت ماما في البكاء.

تجمهر جميع الأطفال، وأضرموا النار في إطارات السيَّارات الألمانية خارج القرية. وردَّدوا: «هورا! هورا! النصر!». وقرعنا الخوذات الألمانية التي جمعناها في الغابة. قرعناها كالطبول.

كنا نسكن في قبو تحت الأرض. وهُرعت إلى القبو، فوجدت ماما باكية. لم أفهم لماذا تبكي، ولا تبتهج لهذا اليوم.

تساقط المطر، فكسرت غصناً وقست عمق الحفرة إلى جانب قبونا.

سألوني: «ماذا تفعل؟».

* «أقيس.. لأعرف هل إن كانت عميقة، وإلا سيأتي بابا إلينا ويسقط فيها».

بكى الجيران، وبكت ماما. ولم أفهم معنى كلمة "مفقود".

لقد انتظرت عودة بابا طويلاً. في حياتي كلها...

عند ذاك الحد... وعند ذاك الطرف...

فاليا برينسكايا – 12 عاماً.

الآن – مهندسة.

الدمى... أجمل الدمى... إنها تذكِّرني بالحرب دائماً...

عندما كان بابا ما يزال حياً، وكذلك ماما، لم نتحدَّث عن الحرب. والآن، بعد انتقالهما إلى جوار ربِّهما، رحت غالباً أفكِّر، ما أحسن الحال حين يكون في البيت شيوخ وعجائز. نحن نبقى أطفالاً حينما يكونون على قيد الحياة. وحتى بعد الحرب بقينا أطفالاً...

كان والدي عسكرياً. وعشنا في أطراف بيلوستوك. وبدأت الحرب بالنسبة إلينا منذ الساعة الأولى، ومنذ الدقائق الأولى. وسمعت وأنا شبه غافية هديراً ما، مثل صدى هزيم الرعد، لكنه غير مألوف، وغير معتاد. فاستيقظت وهُرعت إلى النافذة فرأيت السماء تحترق فوق الثكنات في ضاحية غرايفو التي كنا نذهب أنا وشقيقتي إلى مدرستنا فيها.

– «بابا، هل هذه عاصفة رعدية؟».

قال بابا: «ابتعدي عن النافذة، إنها الحرب».

انشغلت ماما في إعداد حقيبة السفر له. وكان بابا غالباً ما يُستدعى في أحوال الإنذار. وبدا أنه ليس في الأمر أي شيء غير اعتيادي. وأردت أن أنام... وانطرحت على الفراش، لأنني لم أفهم شيئاً. لقد أوينا، أنا وشقيقتي، إلى الفراش في وقت متأخِّر، إذ ذهبنا في المساء إلى السينما.

والذهاب إلى السينما في تلك الفترة، قبل الحرب، ليس تماماً كالذهاب إلى السينما الآن. إذ كانت الأفلام تجلب فقط عشية يوم العطلة الأسبوعية، ولم تكن كثيرة: "نحن من كرونشتاد" و"تشابايف" و"إذا نشبت الحرب غداً" و"الفتيان المرحون". وقد عُرضت الأفلام في صالة مطعم الجيش الأحمر. ونحن الأحداث لم نكن نفوِّت مشاهدة أي فيلم وكنا نحفظ حوار جميع الأفلام عن ظهر قلب. بل حتى نلقن الممثِّلين على الشاشة ونسبقهم في الكلام. لم يكن هناك تيار كهربائي في القرية ولا في الوحدة العسكرية، وجرى عرض الأفلام باستخدام محرِّك. وحالما يعجعج المحرِّك نترك جميع مشاغلنا ونهرع إلى شغل المقاعد أمام الشاشة، أو نجلب معنا الكراسي بلا مسند.

وكان عرض الأفلام يستمر طويلاً، فعندما يختتم جزء، نجلس في الانتظار، لكي يعبِّئ الميكانيكي البكرة التالية. حسناً، إذا ما كان شريط الفيلم جديداً، أمّا إذا كان قديماً فإنه غالباً ما ينقطع، ونحن ننتظر لكي يتم لصقه، وتجفيفه. وقد يحترق الشريط، وهذا هو الأسوأ. وتقع الكارثة حين يتوقَّف المحرِّك عن العمل. وغالباً ما يحدث ذلك حين لم يكتمل عرض الفيلم حتى النهاية. يصدر الأمر: «الفصيلة الأولى، إلى الخارج! الفصيلة الثانية، اصطفاف!».

وإذا ما أعلن الانذار فقد يذهب معهم الميكانيكي الذي يشغل آلة السينما أيضاً. وعندما يطول أمد الفترات بين أجزاء العرض، ينفد صبر المشاهدين ويبدأ اللغط والصفير والصراخ... اعتلت شقيقتي الطاولة وقالت: «لنبدأ حفلة غنائية». علماً أنها كانت تحب كثيراً عندما تلقى الكلمات والبيانات. إنها لم تكن تحفظ النص جيِّداً عادةً، لكنها تعتلي الطاولة بلا أي خوف.

لقد اكتسبت ذلك من روضة الأطفال عندما عشنا في الحامية

العسكرية في ضواحي غوميل. وبعد إلقاء القصائد كنا نردِّد معها الأغاني، فيدعونا الجمهور إلى تكرار المقاطع لدى أداء أغنية "الدرع متين ودبَّاباتنا سريعة". ويهتزُّ زجاج النوافذ في صالة المطعم عندما يتلقَّف الجنود الردة في الأغنية:

وتمضي الدبَّابات في مسيرة الغضب،
تقذف اللهب هادرة، ويتألَّق الفولاذ بنور ساطع...

حل يوم 22 حزيران/ يونيو عام 1941، قبل ليلة من الحرب. شاهدنا للمرة العاشرة، كما أظن، فيلم "إذا ما نشبت الحرب غداً". وبعد عرض الفيلم لم نتفرَّق، واقتادنا بابا إلى البيت بصعوبة: «ستذهبان إلى النوم اليوم؟ وغداً يوم العطلة الأسبوعية».

استيقظت حينما وقع انفجار في مكان قريب وتساقط زجاج النافذة في المطبخ. لفَّت ماما شقيقنا الأصغر شبه النائم توليك ببطانية. وكانت شقيقتي قد ارتدت ملابسها، أما بابا فلم يكون موجوداً في البيت. استحثَّتنا ماما قائلة: هيا يا بنات، بسرعة. على الحدود أفعال استفزازية.

ركضنا إلى الغابة: كانت ماما تلهث وفي ذراعيها شقيقنا الصغير، وتكرِّر طوال الوقت: «يا بنات، لا تتخلَّفا. يا بنات، انحنيا قليلاً...».

ولسبب ما بقيت في ذاكرتي أشعَّة الشمس الساطعة التي تصيب عيني بالغشاوة. والسماء صافية... صافية. وسمعت زقزقة الطيور، وهدير الطائرات الشديد ذاك.

كنت أرتجف، ومن ثم شعرت بالخجل لكوني أرتجف. لقد أردت دوماً أن أقلِّد الأبطال الرجال من كتاب أركادي غايدار "تيمور وفريقه"، وإذا بي أرتجف. حملت شقيقي في ذراعيَّ ورحت أؤرجحه، وحتى أنشد أغنية "أيَّتها الصبية الفتية". كانت هذه الأغنية "عن الحب" قد وردت في

فيلم "حارس المرمى". وغالباً ما كانت ماما تردِّد هذه الأغنية، وأثَّرتْ لحظتها كثيراً في مزاجي ووضعي. فقد كنت... عاشقة! لا أدري تفسير ذلك بموجب العلم والكتب حول سيكولوجية اليافع، لكنني كنت في حالة عشق دائم. واتفق لي أن أحببت مرَّة واحدة عدَّة صبية. لكن في تلك اللحظة كان يعجبني فتى واحد هو فيتيا من حامية غرايفو، وكان يدرس في الصف السادس. علماً أن هذا الصف السادس كان يشغل صالة واحدة مع صفِّنا الخامس. ففي المقاعد الأمامية يجلس تلامذة الصف الخامس، وفي المقاعد التالية يجلس تلامذة الصف السادس. ولا أدري كيف كان المعلِّمون يقدمون الدروس. لكن انشغل بالي بأمور أخرى غير الدروس. وأردت دائماً أن ألوي عنقي للنظر إلى فيتيا!

لقد أعجبني كل شيء فيه: فهو قصير القامة، مثلي، وعيناه زرقاوان، مثل عيني بابا، كما أنه كان كثير المطالعة وليس مثل آليك بودوبنياك، المولع بنقر الآخرين على جباههم، والمعجب بي. وكان فيتيا يحبُّ أكثر ما يحب مطالعة كتب جول فيرن! مثلي! وقد وجدت في مكتبة الجيش الأحمر مؤلفاته الكاملة، وأنا قرأتها كلها...

لا أذكر كم بقينا في الغابة... لكننا كنا نسمع أصوات الانفجارات. وحل السكون، وتنفَّست النساء الصعداء: «لقد تصدَّى لهم جنودنا». وبغتة سمعنا هدير محرِّكات الطائرات في الجو... فخرجنا إلى الشارع. كانت الطائرات تحلِّق باتجاه الحدود، «هو- را!». لكننا وجدنا شيئاً غريباً في هذه الطائرات، إذ أن الأجنحة لا تشبه أجنحة طائراتنا، كما أن هديرها غريب. لقد كانت قاذفات القنابل الألمانية تحلق في صفوف متناسقة جناحاً إلى جناح وببطء وبتثاقل. وبدأ كما لو أنها غطَّت قبَّة السماء. وأخذنا نحسبها، وضيَّعنا الحساب. وفي وقت لاحق، في أخبار أعوام الحرب، رأيت هذه الطائرات، لكنها تركت لديَّ انطباعاً آخر. فالصور التقطت بمستوى تحليق

الطائرات. لكن عندما يراها المرء من الأسفل، وعبر أغصان الأشجار، ناهيك عن رؤيتها بعيني حدث يافع، فالمشهد مرعب. وفيما بعد غالباً ما كانت هذه الطائرات تراودني في الحلم. لكن هذا الحلم تواصل؛ فهذه السماء الحديدية كلها كانت تسقط ببطء فوقي وتخنقني وتخنقني وتخنقني. أستيقظ وجسدي غارق في عرق بارد، ويستبد بي الزمهرير... شيء فظيع!

قال بعضهم إنهم قصفوا الجسر. وأصابنا الخوف: كيف سيأتي بابا؟ إن بابا لن يعبر النهر؛ فهو لا يجيد السباحة.

الآن لا أستطيع أن أجزم بدقَّة، لكنني أذكر بأن بابا جاء إلينا وقال: «سيتم إجلاؤكم في السيَّارة». وسلَّم أمِّي ألبوماً ضخماً للصور الفوتوغرافية، ولحافاً قطنياً دافئاً: «لُفِّي الأطفال، فالجوُّ بارد». هذا كل ما أخذناه معنا. كنا في عجلة من أمرنا. لا وثائق ولا هويات شخصية ولا كوبيك واحد من النقود. لكن كان معنا قدر فيه كستليتات كانت ماما قد أعدَّتْها لنتناولها في يوم العطلة الأسبوعية، وكذلك جزمتا أخي. أمَّا أختي – يا للمعجزة! – فقد اختطفت في آخر لحظة كيساً ورقياً فيه فستان أمِّي وحذاؤها. حدث هذا بالصدفة. ربَّما كانت تعتزم الذهاب مع أبي لزيارة أحد ما. لم يستطع أحد أن يتذكَّر. لقد اختفت الحياة السلمية في لحظة خاطفة، وتراجعت إلى الخلف في الذاكرة.

وهكذا تم إجلاؤنا...

وصلنا إلى محطَّة القطار بسرعة، لكننا جلسنا هناك فترة طويلة. كان كل شيء حولنا يرتجُّ ويهدر. انطفأ النور. وبدأنا نشعل الورق والصحف. وقد عُثر على مصباح، وظهرت في نوره أشباح ضخمة على الجدران والسقف. وكانت تتوقَّف تارة وتتحرَّك تارة أخرى.

وعندئذ لعب خيالي: الألمان في القلعة، وجنودنا في الأسر. وقرَّرت أن أختبر نفسي، هل سأصمد للتعذيب أم لا؟ فمددت أصبعي بين الصناديق وضغطت عليها. فصرخت من الألم. وارتعبت ماما: «ماذا بك يا بنيَّتي؟».

* «أنا أخاف أن لا أحتمل التعذيب لدى استجوابي».

- «ما لك، ياحمقاء؟ أي استجواب؟ إن رجالنا لن يسمحوا للألمان بالمرور».

ومسَّدتْ رأسي، وقبَّلتْني في رأسي.

كان القطار يسير دوماً تحت القصف. وحالما يبدأ القصف تستلقي ماما فوقنا: «إذا ما قتلونا فليكن ذلك سوية. أو أقتل أنا وحدي...». وأوَّل قتيل رأيته هو صبي. كان يرقد ويتطلَّع إلى فوق، بينما أردت إيقاظه. إيقاظه... ولم أدرك بأنه ليس حيّاً. وكانت لدي قطعة سكَّر، وقدمت له هذه القطعة من السكَّر من أجل أن ينهض فقط. لكنه لم ينهض...

تواصل القصف، بينما همست لي أختي: «عندما يتوقَّف القصف، سأكون مطيعةً لأمِّي. سأكون مطيعة لها دائماً». وفعلا، بعد الحرب أصبحت توما مطيعةً جدّاً. وحسب ذكريات ماما فإنها كانت تدعوها قبل الحرب بالطفلة الشقية. أمَّا صغيرنا توليك، فكان قبل الحرب يمشي جيِّداً، ويتحدَّث جيِّداً. وإذا به يكفُّ عن الكلام، ويمسك رأسه بقبضته باستمرار...

لقد رأيت كيف ابيضَّ شعر أختي. كان شعرها أسودَ وطويلاً، وإذا به قد أصبح أبيض خلال ليلة واحدة...

تحرَّك القطار. أين تمارا؟ إنها غير موجودة في العربة. ونظرنا فإذا بتمارا تهرول وراء العربة وبيدها باقة من أزهار القنطريون العنبري. هناك حقل كبير وسنابل الحنطة أعلى من قاماتنا. وفيه أزهار القنطريون العنبري.

وجهها... ما زال حتى الآن أمام ناظري. عيناها السوداوان تبحلقان، إنها تهرول صامتة. وحتى لا تصرخ بكلمة "ماما". إنها تهرول صامتة.

جُنَّتْ ماما... أرادت النزول من القطار وهو سائر. وأمسكت أنا توليك، ونحن نصرخ. بغتة ظهر جنديٌّ فدفع ماما بعيداً عن الباب، وقفز، ولحق بتومكا وألقى بها في العربة السائرة. وفي الصباح وجدناها بيضاء الشعر. ونحن لم نقلْ لها شيئا خلال عدة أيَّام، وأخفينا المرآة، حتى تطلَّعت إلى وجهها بالصدفة في مرآة آخرين فراحت تبكي: «ماما، أنا أصبحت عجوزاً؟».

وعمدت ما إلى طمأنتها: «سنقصه وينمو أسودَ مجدَّداً».

بعد هذا الحادث قالت ماما: «الجميع. لا يخرج أحد من العربة. إذا ما أرادوا قتلونا فليقتلونا. وإذا بقينا على قيد الحياة فهذا قدرنا!».

عندما يبدأ الصياح: «طائرات! يجب أن يخرج الجميع من العربات». كانت ماما تخفينا تحت الحشيات، وتقول لمن يطلب منها مغادرة العربة: «لقد خرج الأطفال، وأنا لا أستطيع الخروج».

ولا بدَّ من القول إن ماما غالبا ما كانت تردد كلمة "القدر". وكنت أستفسر منها بإلحاح: «ما هو القدر؟ هل هو الرب؟».

* «كلا، ليس الرب. أنا لا أؤمن بالرب. القدر هو مسار الحياة. وأنا يا أطفالي كنت دوماً أؤمن بقدرنا».

كنت أرتعب حين يبدأ القصف... شيء رهيب وفظيع. وفيما بعد، في سيبيريا، كرهت نفسي لجبنها. وقرأت بالصدفة بطرف عيني رسالة أمِّي. لقد كتبتها إلى بابا. ونحن أيضاً كتبنا أوَّل مرَّة في حياتنا الرسائل، وقرَّرت أن أرى ما تكتبه ماما. كتبت ماما أن تمارا تصمت، حين يبدأ القصف الجوي، وفاليا تبكي وتخاف. وكان هذا كافياً بالنسبة إليَّ. وعندما جاء إلينا بابا في

ربيع عام 1944 لم أستطع أن أرفع ناظري إليه؛ إذ أحسست بالخجل. أما بصدد اللقاء مع بابا فسأتحدَّث عنه لاحقا. فهو ينأى عنا بعيداً...

أنا أتذكَّر الغارة الليلية.. وعادة لم تُنفَّذ غارات ليلية. كان القطار ينطلق بسرعة، وإذا بغارة وقعت. هجوم قوي... الرصاص يقرع سقف العربة. هدير الطائرات. الخطوط المضيئة للرصاص الخطَّاط... والشظايا. قُتلت امرأة إلى جانبي. وقد عرفت فيما بعد أنها ميتة، لكنها لم تسقط؛ فلا يوجد مكان تسقط فيه لأن العربة مكتظَّة بالركَّاب. المرأة واقفة بيننا وتشخر والدم ينزف منها ويلطِّخ وجهي. وإذا بفانيلتي وسروالي مبلَّلان بالدم. وعندها صرخت ماما وهي تمدُّ يدها إليَّ: «فاليا! هل أصبت؟».

لم أستطع إجابتها.

بعد ذلك حدث لديَّ ما يشبه الانعطاف. أنا أعرف بأنني بعد هذا... نعم... لم أعد أرتجف. كان الأمر سيَّان لدي... لا أخاف، ولا أتألَّم، ولا أشفق على أحد. لقد أُصبت بحالة من الذهول واللامبالاة.

أنا أذكر بأننا لم نصل الأورال فوراً؛ فقد توقَّفنا فترة من الزمن في قرية بالاندا في مقاطعة روستوف. وصلنا إلى هناك في المساء، ونحن نيام. وفي الصباح، في الساعة السادسة صباحاً، لوَّح الراعي بسوطه، وهبَّت جميع النساء، وأمسكن أطفالهن وخرجن إلى الشارع صائحات: «قصف جوي». وواصلن الصراخ لحين مجيء الرئيس وقال إن هذا الراعي كان يسوق الأبقار. عندئذ اطمأن الجميع...

أطلق مستودع الحبوب صفيراً، فارتعب وارتجف أخي توليك، وكان لا يسمح لأحد بتركه ولو للحظة واحدة، إلا حينما يغفو، فيمكن عندئذ الخروج إلى الشارع من دونه. وذهبت ماما بصحبته إلى مكتب القومندان العسكري للاستفسار عن أبي، ولطلب المساعدة. فسألها القومندان: «أريني وثائق تثبت بأن زوجك ضابط في الجيش الأحمر».

لم تكن لدينا وثائق، وهناك الصورة الفوتوغرافية لبابا بالزيِّ العسكري. فأمسك بها وأبدى شكوكه: «ربَّما هذا ليس زوجك. فكيف تستطيعين إثبات ذلك؟».

رأى توليك أن القومندان يمسك بالصورة ولا يعطيها فقال: «هاتِ بابا...».

فضحك القومندان وقال: «لا أستطيع عدم تصديق هذه "الوثيقة"».

كانت أختي صهباء الشعر، وقد قصَّت ماما شعرها. وفي كل صباح كانت تتفحَّص خصلات الشعر الجديدة: هل هي سوداء أم رمادية؟ وكان أخي يطمئنها: «لا تبكي، توما... لا تبكي، توما». مع ذلك نما الشعر أبيض. وصار الصبية يسخرون منها، ويهزأون بها. وكانت لا تنزع منديل الرأس أبداً حتى في أثناء الدروس.

جئنا من المدرسة. لم يكن توليك في البيت.

فهرعنا إلى مكان عمل ماما: «أين توليك؟».

* «توليك في المستشفى».

كنت أسير مع أختي في الشارع وأحمل إكليلاً من زهور زرقاء، من زهور عنب الأحراج الشتوي... وكذلك نحمل معنا بذلة البحَّار لأخينا. وسارت معنا ماما، وقد قالت لنا إن توليك تُوفِّي. وقفت ماما بالقرب من براد الجثث ولا تستطيع الدخول. إنها لم تجرؤ. فدخلت مع أختي وتعرفنا على توليك، كان يستلقي هناك عارياً. لم أذرف دمعة واحدة، فأنا من خشب.

وصلتْنا ونحن في سيبيريا رسالة من بابا. وواصلت ماما النحيب طوال الليل؛ فكيف تكتب إليه أن توليك مات؟ وفي الصباح ذهبنا ثلاثتنا إلى مركز البريد: «البنات أحياء. وتوما ابيضَّ شعرها...». وقد حدس بابا بأن

توليك مات. لي صديقة قُتل أبوها، وكانت في ختام رسائلها تورد العبارة التالية دوماً: «بابا، تحية إليك مني ومن صديقتي ليرا». الجميع كانوا يريدون أن يكون لهم أب.

وسرعان ما وردت رسالة من بابا. فكتب أنه كان خلال فترة طويلة في مهمَّة وراء خطوط الجبهة وأصيب بمرض، وهو الآن في المستشفى. وقالوا له إن العائلة فقط يمكن أن تشفيه: فحينما يرى عائلته سيتماثل إلى الشفاء.

انتظرنا بابا عدة أسابيع. وأخرجت ماما من الحقيبة فستانها "الكريبديشين" العتيد وحذاءيها. وكنا قد اتفقنا على عدم بيع هذا الفستان والحذاءين مهما كانت الأحوال صعبة، انطلاقاً من الإيمان بالخرافات. وخشينا بأنه إذا ما بعناها فلن يرجع بابا.

سمعت صوت بابا عبر النافذة وأنا لا أصدِّق سمعي: فهل يصدق أنه أبي؟ لم أصدق بأنني سأستطيع رؤية بابا، إذ اعتدنا انتظاره. وكان بابا بالنسبة إلينا يرمز إلى من يجب انتظاره، وانتظاره فقط. في ذلك اليوم توقَّفت الدروس في المدرسة، واجتمع حول بيتنا تلامذة المدرسة جميعاً. لقد انتظروا خروج بابا. كان أوَّل أب يعود من الحرب. ولم ندرس أنا وأختي خلال يومين آخرين؛ إذ تواصل توافد النساء إلينا والاستفسار منا وكتابة رسائل قصيرة: «كيف بابا؟». أمَّا أبي فهو أب بامتياز؛ إنه بطل الاتحاد السوفيتي أنطون بتروفيتش برينسكي...

لم يرغب بابا، مثل توليك سابقاً، في البقاء وحيداً. لم يستطع ذلك. كان يشعر بالكآبة لوحده. وكان يصطحبني معه في كل مكان. ومرة سمعت حديثه مع شخص ما عن كيف اقترب رجال الأنصار من قرية ورأوا تربة حُفرت حديثاً. فتوقَّفوا، وقفوا عندها... وهُرع عبر الحقل صبيٌّ وصرخ بأنه جرى إطلاق النار على جميع أهل القرية ودفنهم.... الجميع.

التفت أبي، ورآني أتهاوى. وبعد ذلك لم يتحدَّث عن الحرب أبداً في حضورنا.

نحن نادراً ما نتحدَّث عن الحرب. وساورت بابا وماما القناعة بأنه لن تنشب أبداً مثل هذه الحرب البشعة، وقد آمنَّا بذلك فترة طويلة. والشيء الوحيد الذي بقي لدينا أنا وشقيقتي من الحرب هو أننا نشتري الدمى. أنا لا أعرف السبب. ربما، كما أظن، إننا نفتقد إلى الطفولة. بهجة الطفولة. درست في المعهد، وكانت أختي تعرف أن أفضل هدية تقدِّمها لي هي دمية. وولدت لدى أختي طفلة، فجأت إليها وسألتها: «أية هدية ترغبين؟».

* «دمية».

- «أنا أسالك أية هدية أقدِّمها لك وليس إلى طفلتك».

* «أنا أجيبك... قدِّمي لي هذه الهدية، دمية».

كبر أطفالنا، ونحن أهدينا لهم الدمى. نحن نهدي الدمى إلى الجميع، إلى جميع معارفنا.

تُوفِّيتْ أوَّلاً أمُّنا الرائعة، ومن ثم تُوفِّي أبونا. وأحسسنا فوراً، أحسسنا بأننا آخر من يقف عند ذلك الحد، عند ذلك الطرف. نحن آخر الشهود. إن زماننا يُختتم. ويجب علينا أن نتحدَّث...

وكلماتنا ستكون آخر الكلمات.

2004-1978

سفيتلانا أليكسييفيتش

كاتبة وصحفية من بلاروس.

صدرت لها عدة أعمال توثيقية أغلبها عن الحروب السوفيتية. أثارت كتاباتها جدلاً كبيراً في بلدان الاتحاد السوفيتي وتعرضت لعدة محاكمات قانونية بسببها.

حازت على عدة جوائز دولية أهمها جائزة السلام من معرض فرانكفورت 2013. وجائزة نوبل للآداب 2015، التي نالتها على «أعمالها المتعددة الأصوات التي تمثّل معلماً للمعاناة والشجاعة في زماننا.وهي تعمّق بأسلوبها الاستثنائي - الذي يقوم على تداخل دقيق بين صوت البشر - الفهم لعصر كامل».

عبد الله حبه

كاتب ومترجم عراقي مقيم في موسكو.

درس في معهد الفنون الجميلة/ قسم التمثيل، وبعد تخرجه وحصوله على الشهادة الجامعية سافر إلى موسكو عام 1960 لدراسة المسرح الروسي في معهد الفن المسرحي (غيتيس) الشهير.

صدر له أكثر من 50 كتاباً مترجماً عن اللغة الروسية إلى اللغة العربية لأعلام الأدب الروسي.

أنشأت سفيتلانا أليكسييفيتش نوعاً جديداً من الأدب قائماً على كتابة رواية من الأصوات المتعددة لشهود مرحلة ما. حازت على عشرات الجوائز الدولية؛ أهمها جائزة السلام من معرض فرانكفورت للكتاب 2013، وجائزة نوبل للآداب 2015، التي نالتها عن مجمل أعمالها المتعددة الأصوات التي تمثِّل معلماً للمعاناة والشجاعة في زماننا. وهي تعمق بأسلوبها الاستثنائي - الذي يقوم على تداخل دقيق بين أصوات البشر - فهم عصر كامل.

كُتب الكثير عن بطولات ومآثر الحروب، وعن مدى الحاجة إليها بوصفها وسيلةً لتحقيق أهداف قد تُعدُّ نبيلة. لكن بقي السؤال الدائم: هل يوجد تبرير للسلام ولسعادتنا وحتى للانسجام الأبدي، إذا ما ذُرفت دمعةٌ صغيرةٌ واحدة لطفلٍ بريءٍ في سبيل ذلك؟
في الحرب العالمية الثانية، قُتل وجُرح وهُجِّر أكثر من مئة مليون شخص في حرب هي الأكثر دموية - حتى الآن - في تاريخنا البشري. وقد كُتب الكثير عن مآسي ونتائج هذه المرحلة القاتمة من تاريخنا. ولكن كيف رآها آخر الشهود الأحياء؛ أطفال هذه الحرب؟
بعد أكثر من ثلاثين عاماً على نهاية تلك الحرب تُعيد سفيتلانا في كتابها "آخر الشهود" مَن بقي من أبطال تلك المرحلة إلى طفولتهم التي عايشت الحرب، لتروي على لسانهم آخر الكلمات... عن زمان يُختتم بهم...





